روحسد

رواية

محمد الطيب


الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L



الطبعة الأولى: حزيران/يونيو 2017م – 1438 هـ

ردمك 978-614-01-2272-7

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (9611+)

للناس حـج وأنـا لـي حـج إلـى بدنـي

تهُـدى الأضــاحي وأهـدي مهجتــي

ابن عربي

إهداء

إليكم
غفران
آسيا
عثمان
الكتابة في وقتكم الخاص تعني أن ما يخط ملك
لكم
بطريقة ما.

محمد الطيب

الفصل الأول

(سليم الصوفي)

هذه السجون مجرد قمامة، بل البلد كله مجـــرد مكـــب كـــبير للزبالة، لو كنت في بلاد تحترم حقوق الإنسان لما أجبرت على هذا. هل هذه الأسرّة الحديدية الصدئة التي تفوح رائحة العرق من فراشها القديم تصلح للاستخدام البشري، ثم يأتي هذا الجو الخانق وزخـــات البعوض التي لا تنتهي إلا لتبدأ من جديد في الانهمار. أنا سليم الصوفي مجبر على الإقامة هنا؟ في هذا المكب الحقير؟ بين هـــؤلاء المجـــرمين والأغبياء والقتلة؟ عندما رفضت مقابلة ذلك الصحفي عاقبني مـــدير السجن بتنظيف الحمامات القذرة لأسبوع كامل، يا لتفاهة الـــزمن، سليم الصوفي ينظف فضلات السجناء، هذه الكائنات التي لا ترقـــى لأن تكون بشراً تجبرني تصاريف الأقدار على خدمتها، لو أن الأمـــر بيدي لقطعت أوصال ذلك الوضيع ثم ألقيت بها في دورة المياه النتنـــة ولا أبالي. لا بد أنه مرتش حقير، قبض ثمن استعراض قصتي بين يدي صحفي آخر، لا يمر يومان دون أن يأتي واحد من أولئك الفضوليين السمجين كي يستمع إلى قصتي، أما أن أجد شيئاً يجذب انتباههم أو أتحول إلى فوطة متسخة ملقاة في دورات المياه. لم يكتف بكل هـــذا، الآن يريد مني أن أحكي قصتي لكاتب، واحد من تلـــك الكائنـــات اللزجة التي تسود الصفحات بالترهات مدعية أن هذه هي الثقافـــة.

حسناً، ينبغي عليّ التحكم في غضبـــي، لولا الغضب الأعمـــى مـــا كنت هنا ولما كانت وئام الآن تحاول أن تتأقلم على الحياة من غيري، هذا الندم الذي ينخر عميقاً في العظام، لماذا لم تكن أمي أكثر حكمة فتتجنب غضبـــي، ليت الندم يجدي، هي عشرة أعـــوام ينبغـــي أن أقضيها بين دورات المياه وسماجة مدير السجن وسوقية المساجين.

- مسجون سليم الصوفي مكتب مدير السجن.

أمسك العسكري بساعدي، يمارس فرض السيطرة وإظهار قوة السلطة بشكل يومي، حتى العائدون إلى الحياة من السجن يعـــودون نصف أحياء ونصف أموات، هذا المكان البغيض يقتل أهـــم مـــا في الإنسان، إنسانيته، من كانوا هنا لفترة طويلة تجدهم لا يمـــانعون في التنازل عن كل شيء مقابل لا شيء، يكفيه رضا عسكري لا يرضى عنه، يودون العيش في سلام ومقابل ذلك يهدرون كرامتهم ويريقون ماء وجههم، ترى كيف سيكون حالي بعد خمسة أو ستة أعوام. هذا الطريق وعر جداً، أخبرني دريابـــي أنني إن لم أنحن أنكسر، هنـــا لا يملون إذلالك حتى تستسيغه وتستطعمه، يقول دريابـــي بعد طـــول إقامتك هنا لو مر يوم من غير صفعة على قفاك أو روحك ستفتقدها، صفعات الروح هنا من أساسيات الحياة حتى تستلذها، وعندما تصل إلى تلك المرحلة يصبح السجن بيتك، عندما ترى القادمين من الحياة وتأففهم مما يحدث هنا تستعجب، وربما تسخر، ما يوجد هنـــا هـــو الحياة الحقيقية يا صديقي.

لست صديقاً له، هذا العجوز الخرف، ذهب السجن بعقله، لم يكن يحتاج إلى اختلاس مبلغ بهذا الحجم كي يصبح فيلسوفاً، الفلسفة تحتاج إلى القليل من التأمل والكثير من الجوع لا غير، كـــان يمكنـــه

البقاء خارجاً والتمتع بالحياة بدلاً من أن يسمعني ترهاته صباحاً ومساءً، لو كنت أملك الخيار لألقيت به خارجاً ليكتوي بنار الحياة بعيداً عني ولكني لا أملكه وهو لا يرغب في ذلك أيضاً.

مكتب مدير السجن بأثاثه المتواضع ودولابه الخشبي المهلهل يبدو وكأنه مكتب للأرشيف، لا يوجد منفذ للضوء مما جعل الرؤية غير واضحة رغم أننا في منتصف النهار، لم ينسَ العسكري الأحمق أن يفرض سلطته هنا أيضاً وهو يزعق قائلاً:

- انتظر بهدوء.

ألقى عليّ نظرة تمتلئ وعيداً ثم استدار خارجاً، جلست أنتظر في هدوء، خالي الذهن ممن سأقابله، أخبرني مدير السجن بأني سأقابل كاتباً مشهوراً وكرر عليّ أكثر من مرة بإظهار الاحترام وخدمته في أفضل صورة. لا بأس كل الخيارات تفضي إلى دورة المياه القذرة.

لم أتعرف إليه في البداية رغم اعتيادي على الإضاءة الخافتة، ولكن مهلاً، يبدو أن مسلسل الانحطاط لم ينتهِ بعد. خيري عبد العزيز، يا للصدفة المقيتة، مد يده مصافحاً، الإضاءة الخافتة في المكتب لم تمكنه من معرفة ملامحي. قال بصوت محايد:

- بالطبع مدير السجن أخبرك ما الغرض من مقابلتي.

تنحنح واضعاً يده على فمه، ثم قال بصوت حاول أن يجعله متعاطفاً:

- كنت أتمنى مقابلتك في ظرف أفضل من هذا.
- الروائي العالمي خيري عبد العزيز خيري، صاحب الثماني روايات التافهة هو من يرغب في سماع قصتي.

كان صوتي ينبض بالسخرية والاحتقار ثم لم أتمالك نفسي وأنا أضحك في تهكم.

- وهل كنت أتوقع أفضل من هذا، من كان يظن أن دجاجة مثلك قد تصبح روائية في يوم من الأيام.

لا بد أنه بوغت من هجومي غير المتوقع، اقترب بوجهه متفرساً في ملامحي. اعتادت عيناه على الإضاءة الخافتة، الابتسامة الساخرة التي تزين محياي كانت واضحة وكأنها تشع ضوءاً، عقد حاجبيه وكأنه يجتهد في محاولة التذكر. الحقير، لا بد أنه قد قرأ ملفي جيداً قبل قدومه إلى هنا.

- من أنت؟

قال خيري في اقتضاب.

رددت عليه بنفس النبرة الساخرة:

- مثلك لا ينسى من هم مثلي، العكس هو الصحيح، لولا وجهك المشابه لوجه الضفدع الذي يزين الصحف بشكل شبه يومي لما تذكرتك.

هتف متظاهراً بالدهشة:

- سليم الصوفي؟
- نعم سليم الصوفي، تريد أن تجعلني واحداً من أبطالك التافهين في واحدة من رواياتك الساذجة يا خيري لا بأس.
- رواياتي ليست تافهة، وليس هذا مقام لتقييمها.
- ليس هذا هو المهم الآن، ما الذي ستقدمه لي مقابل ذلك؟ أنا سأهديك رواية أفضل من جميع سخافاتك التي تظنها أدباً، ولكن ماذا سأجني من وراء هذا؟ لا شيء، سأتعفّن

في هذا السجن الشبيه بالمرحاض وتجني أنت المزيد من الشهرة والمال.

حدّق خيري إلى وجهي للحظة ربما كان مندهشاً من وقاحتي ثم قال:

- ما الذي تريده مقابل أن تحكي لي حكايتك.

تجاهلته مكملاً:

- ترى ما العنوان الذي ستطلقه عليها، الابن الجاحد، القاتل المريض، السجين القاتل.

كرّر عبارته بآلية.

- ما الذي تريده مقابل أن تحكي لي حكايتك؟

ابتسمت ثم حككت ذقني في استمتاع ظاهر.

- لنرَ ما الذي يمكن أن يقدمه روائي عظيم مثلك إلى رجل بائس مثلي، امممم، بالطبع أنت رجل غني، وأبوك كان سفيراً، وكما ترى فأنا أقيم في هذا السجن ولو أردت أن أبول لا بد أن أدفع مالاً، ما رأيك؟

خيم الصمت للحظات، ثم هز خيري رأسه وقال بكلمات سريعة:

- تريد مالاً، لا بأس لا بأس. كم تريد؟

أكملت بنفس النبرة الساخرة:

- لنفترض أن الرواية قد تُرجمت إلى أربع أو خمس لغات، بعد أن تنصب عليك دار النشر ويتم قرصنتها لتنزل مجاناً على الإنترنت، غير النسخ المزيفة التي سيتم طباعتها وتعود أرباحها لجيوب آخرين لن يكونوا من أبطال الرواية مثلي

ولا هم اجتهدوا في كتابتها مثلك، ولكن لنتفاءل قليلاً ونفترض أنها ستفوز بجائزة ما، وهو مبلغ محترم أيضاً. رغم كل هذه العوائق فنحن نتكلم عن مبلغ لا يُستهان به، وبما أن فترة السجن المتبقية لي تتجاوز التسعة أعوام، غير أني سأكون معدماً عندما أخرج من هذا المرحاض، لذا فلا بد من الاستفادة جيداً مما أملكه الآن قبل أن يكون بحوزتك فتبعثره بين دفتي كتاب.

صراحة أقرب إلى الوقاحة أدهشت خيري كثيراً ولكنه لم يبدِ اعتراضاً وهو يحرك ساقيه في شيء من القلق ثم قال بصوت هادئ:

- إذاً فأنت تريد أن تشاركني في أرباح الرواية التي لم تُكتب بعد.

ضحكت ضحكة صغيرة ثم قلت بصوت ساخر:

- أنا أدرك تماماً أنني سأقدم لك رواية لا يمكن أن تدور بمخيلة ضحلة كمخيلتك يا وجه الضفدع.

قربت وجهي من وجهه مضيفاً:

- هل تعرف ماذا قال هيث ليدجر في فيلم بات مان؟

ثم أكملت بصوت هامس وشفتاي تكادان تلامسان أذنه:

- (You are good at something never do it for free).

أرجع خيري رأسه إلى الخلف في انزعاج ثم نهض من مكانه وقال بنفاذ صبر:

- تريد مالاً سأعطيك ما تريد، ولكن قبل هذا يجب أن تؤكد لي أن ما تقدمه يستحق المال.

- ليس هذا مجالاً للمفاوضة يا وجه الضفدع، لن نـــدخل في فلسفة البيضة أولاً أم الدجاجة، لن أفتح شـــفتي مـــن دون اتفاق.

لا بد أنه جاهد كي يأتي صوته محايداً.

- ما الذي يضمن لك رغبتي في سماع قصتك، هناك احتمـــال أن أغادر الآن ولا أعود مرة أخرى.

تفشت النبرة الساخرة في صوتي كعطر نفّاذ كريه الرائحة.

- أنت كقط بائس جائع، يقتله الفضول وتأســـره الرائحـــة، تشعر الآن بأنك أفضل مني، تقف عالياً وأنـــت تنظـــر إلى أسفل حيث تظنني واقفاً، مدركاً أنني أتفوق عليك في كل شيء، ولكن بمعاييرك الساذجة أنت روائي عالمي ناجح وأنا مجرد قاتل وضيع، أليست هذه دنيا عجيبة؟ لا بد من معرفة التفاصيل، لا بد من معرفة التفاصيل.

قلت العبارة الأخيرة محاكياً صوت طفل باكٍ ثم أكملـــت وأنـــا أصر على أسناني:

- التفاصيل هي التي تنخر خيالك الضيق، لا سبيل لابتداعها، تريد أن تعرف، لذلك لن تبتعد إلا بمقدار طول الخيط الذي يربطك بهذه الغرفة الوضيعة.

ابتسم خيري وفرد ذراعيه قائلاً بطريقته المهذبة:

- أليس هناك طريقة للتحدث بصورة أكثر تهذيباً، نحن علـــى الأقل زملاء جامعة، وبيننا الكثير من الذكريات المشـــتركة، كما أظن أنني لم أقم بإيذائك بأي صورة من الصور الـــتي تدفعك لتوجيه هذا الكم من الإساءة إليّ.

عقدت يديّ أمام صدري ثم قلت:

- تأتي إلى هنا لتحول حياتي إلى واحدة من قصصك التي يتلهى بها الناس، ثم تتظاهر بالتهذيب والتحضر، حسناً لا بأس سأعطيك مثالاً للتحضر، هل ترى هذه النافذة؟

تلفت خيري حوله ثم هز رأسه نافياً.

- عن أي نافذة تتحدث؟ لا توجد في هذا المكتب نوافذ.

ابتسمت في سخرية قائلاً:

- لو أن هناك واحدة لألقيتك منها.

اندفع خيري نحو المكتب، تناول حقيبته قائلاً:

- آسف لإزعاجك، ولكن من الواضح أن هذه المحادثة لن تفضي إلى شيء، أعتذر ينبغي عليّ الانصراف.

قهقهت ثم قلت:

- كالعادة تضع ذيلك بين قائمتيك ثم تلوذ بالفرار، ألا ترى أنني رجل مثقف في وسط من المجرمين والجهلة، إن التحدث إلى رجل مثقف مثلك يعد درجة من درجات الرفاهية، ألا يستحق رجل بائس كحالي مثل هذه الفرصة.

لم يرد خيري وهو ينظر إلى عينيّ العابثتين وكأني أقاوم الرغبة في الانغماس في الضحك، أكملت بصوت مرح:

- دعك من المال نحن زملاء جامعة كما قلت، لماذا لا تأتي فنتبادل الحديث سوية ونتناقش كرجلين مثقفين ونستعيد ذكريات الجامعة؟ وبالطبع سأعرج على جوانب حياتي الأخرى كما ستعرج أنت وتحكي لي عن نجاحك كروائي وزوج لإعلامية جميلة ورجل مشهور.

تطلعت إلى وجه خيري ممسكاً عن الكلام لحظة بحثاً عن أثـــر كلامي عليه، ثم أكملت بلهجة مستهجنة:

- بالطبع، ما الذي يجبرك على أن تحكي عن حياتك لقاتل، أنا مجرد مجرم يستحق الشنق ولكن لحسن الحظ لست معلقـــاً هناك الآن، كيف يتنازل روائي مثلك ويحكي عن حياتـــه الخاصة إلى رجل مثلي، شعرت بالمهانة أليس كذلك؟

تلعثم خيري قليلاً وابتسم في حرج ثم قال:

- لا لم أفكر بهذه الطريقة بالطبع، ولكني لا أرى شيئاً مهمـــاً يمكن أن أحكيه عن حياتي، أظن أن قصة حياتك هي مـــا تهمنا.
- قصة حياتي مهمة لأجل عمل تافه، أليست هذه أنانية مطلقة منك، تنازلت عن المال لأجلك ولكنك تستكثر أن تـــؤنس وحدتي في هذا المكان الكريه، لست مختلفاً عنهم في شيء.

دنا خيري مني واضعاً يده على كتفي.

- لست مشابهاً لأحد يا سليم، أنا آسف يبدو أنني لم أستطع توصيل ما أردت قوله بالصورة المطلوبة.

أبعدت يده عن كتفي قائلاً:

- دعك من كثرة الأسف، لست محتاجاً إليه ولا إلى ادعائك الممجوج بالتهذيب وتظاهرك بالتعاطف معـــي وتفهمـــك لحالي، لا أحد يتعاطف مع قاتل.

نهضت مبتعداً وأنا أرسف في قيدي بخطى متعثرة:

- انتهى الحديث بيننا، ابحث عن مغفل آخر كي يمـــلأ لـــك صفحات روايتك بالغثاء.

تجمد في مكانه حائراً وقبل أن أغادر نحـــو الممـــر المـــؤدي إلى السجن ظهر عسكري عند الباب متأهباً لمرافقتي، لا بد وأنـــه كـــان يسترق السمع. التفت نحو خيري ماطاً شفتيّ قائلاً:

- كم كنت أتمنى أن توجد نافذة في المكتب.

(رونق)

علاقتي بخيري عبد العزيز ليست علاقة قارئة بكاتـــب، فهنـــاك آلاف بل ملايين المعجبات بمئات الكتاب حول العالم، تنتهي علاقتهم بالكاتب مع الانتهاء من القراءة وربما تمتد لتصيد أخباره في الصحف أو الوسائط الإعلامية المختلفة، أما علاقتي به فليست من هذا النوع، هي علاقة مختلفة بدأت منذ أربعة أشهر من الآن، عندما وقعت بـــين يدي روايته الأقل شهرة (إيلات).

عندما كتب خيري هذه الرواية لم يكن قد نال الشهرة الواسعة التي يتمتع بها الآن، وقتها كان قد نشر روايتين فقط وحققتا نجاحـــاً معقولاً ولكنهما لم تخلّفا دوياً كبيراً، بعد نشر روايته الأشهر (ماموزا) بدأت الصحف تتحدث عنه بشكل مكثف كما تم استضافته في عدد من القنوات التلفزيونية خاصة بعد أن حـــازت الروايـــة جـــائزتين مرموقتين، وتم ترجمتها لعدد من اللغات، وأضحت رواية عالمية تقـــرأ في مختلف دول العالم، بدافع الفضول ذهبت إلى مكتبة من أجل شراء الرواية فلم أعثر عليها، ولكن وجدت رواية إيلات فاشتريتها من باب معرفة أي نوع هو من الكتّاب، تسببت تلك الرواية في انقلاب كبير في حياتي ما جعلها تدور في فلك خيري عبد العزيز بشكل كامل.

بعد قراءتي للرواية سعيت بكل السبل لملاقاته، ولكـــن كـــان الوصول إليه صعباً بشكل لا يصدق، نمط حياته الذي عرفته تماماً كان يجعل من ملاقاته دون موعد سابق حلماً بعيد المنال، والموعد الســـابق يحتاج إلى رقم للاتصال به ورقمه بالطبع ليس بحوزتي، فجهدت أيمـــا اجتهاد للحصول عليه، اتصلت بعدة صحف، وقنـــوات تلفزيونيـــة، وحاولت التواصل معه عبر صفحته الرسمية في الفيس بوك بل حـــتى تواصلت مع دار النشر التي تنشر له رواياته ولكن بلا فائدة، تحـــول الأمر إلى نوع من التحدي، لا بد أن أقابل خيري عبد العزيز مهمـــا كلف الأمر، فأضحيت متابعة لكل تحركاته، أقرأ الحوارات التي تدار معه، شاهدت سهرتين في قناتين مختلفـــتين استضـــافتاه في وقـــت متقارب، قرأت رواياته السبع الأخرى، وجمعت قـــدراً جيـــد مـــن المعلومات حوله، فعلمت أنه متزوج من الصحفية ومقدمة البرنـــامج في قناة المقرن، الجميلة كوثر حامد، كما أنه أب لطفلين، أكبرهما في الرابعة عشرة من العمر. العزلة التي يعيشها متفرغاً للكتابة والقـــراءة كراهب متعبد أثارت فضولي أيضاً، لا أستطيع أن أتخيل أن هنالـــك شخصاً لديه القدرة على احتمال هذا النوع من الحياة، كـــان هـــذا واحداً من عشرات الأسئلة التي كنت سأوجهها إليه حالما أقابله.

علمت بأن قناة الفونج ستسجل معه سهرة على أن تبث لاحقاً، فجهدت حتى علمت بمواعيد التسجيل وقررت انتظاره أمام مقر القناة ومقابلته، وإن كنت مدركة أن الوقت والمكان غير مناسبين وغالبـــاً سيعتذر عن الكلام معي وسيعتبر أن ما أقوم به مجرد فعـــل مـــزعج سيبذل قصارى جهده لتجنبه، ولكن لا بد من المحاولـــة، فمقابلتـــه بالنسبة إليّ كانت مسألة حياة أو موت.

مواعيد التسجيل التي حُدّد لها الثالثة قبل العصر في واحدة من نهارات الخرطوم الصيفية وفي يوم مشرق حدّ الاحتراق مع سماء تعرّت من السحب وتركت كل مساحاتها للشمس التي لم تبارح مكانها قيد أنملة منذ وصولي لمقر القناة في تمام الساعة الواحدة ظهراً وذلك تجنباً لوصوله باكراً وعدم ملاقاتي له. النظارة السوداء كانت تلسعني بشكل ملح بعد أن تشبعت من حرارة الشمس حتى أضحت تنفثها على خدي كالحمم، ضجيج السيارات ودخان عوادم السيارات الذي لا ينقطع جعل من المائة وثلاث دقائق التي أمضيتها في انتظاره جحيماً لا يُطاق وكنت أخشى بعد كل هذا أن لا أتمكن من محادثته فيذهب كل هذا الاحتراق سدى.

وفي تمام الساعة الثانية وثلاث وأربعون دقيقة توقفت السيارة التي تقله أمام مدخل القناة، شعرت بقلبي يكاد يقفز من صدري وأنا أقف في الاتجاه المقابل من الطريق عندما رأيت كوثر وراء مقود السيارة. لم أعبأ لأبواق السيارات والسباب المتطاير من الأفواه الغاضبة وأنا أقطع الطريق نحوهما، تحركت السيارة مبتعدة وخيري يوليها ظهره متجهاً للقناة، كدت أصرخ منادية إياه وأنا أسب غبائي الذي جعلني أختار الجهة المقابلة من الطريق بحثاً عن ظل أستظل به، ولكني حمدت الله عندما لمحت شاباً يصافحه وعندما وصلت إليهما كان الشاب يتحدث بانفعال واللعاب يتطاير من فمه منتقداً روايات خيري بشكل عام وروايته الأخيرة بشكل خاص.

وإحقاقاً للحق كان الرجل ملماً بكل تفاصيل الروايات الثماني التي سبق نشرها، فدلل على انتقاده للمشاهد الجنسية في روايات خيري بمشاهد السكرتيرة المكررة في رواية (ماموزا) والتي كانت

مهمتها إغواء العملاء الذين يقعون في دائرة اهتمام مديرها، معتبراً أن هذه دعوة مباشرة للبغاء خاصة بعد أن نجت السكرتيرة من العقاب وانتهت الرواية بزواجها من مديرها بعد أن ابتزته بعدد من الملفات التي تخصه. ثم منتقداً رواية (مطر أسود) التي تابعت قصة مغتصب الفتيات الصغيرات والذي يفلت من قبضة الشرطة كلما ضيقت عليه الخناق مبيناً أن هذا يعكس صورة قاتمة لشرطة بلاده وإظهارها بمظهر العاجز ثم مفنداً رواية (رجل بلا ظل) التي تناقش قصة سياسي فاسد يفر إلى خارج البلاد بثروته بعد انكشاف أمره مؤكداً أن مثل هذه الكتابات تعكس صورة غير مشرفة للوطن، خاصة وأن رواياته الآن تقرأ في كل أنحاء العالم.

كل هذا وخيري يستمع له في أنات عجيبة وابتسامة صبور لا تغادر وجهه، وعندما رد عليه مفنداً لآرائه بنبرته الهادئة ولهجته الأبوية لم يقتنع الشاب بل علا صوته وازداد غضبه متهماً إياه بالخيانة والعمالة. خلق صوته العالي وانفعاله الزائد تجمعاً من الفضوليين حولهما حتى كاد أن يخفي المشهد من عيني، فدنوت منهما مرهفة السمع. ما يحدث أثار الدهشة في بعضهم الذي تعرف إلى خيري فحاولوا التدخل ليبينوا للشاب خطل رأيه وضيق نظرته ولكن هذا لم يفت من عضده ونبرة صوته تعلو ناثرة التهم والسباب ثم فجأة هوت كف الشاب بصفعة مدوية على خد خيري أطارت نظارته الطبية من وجهه، وأطارت شهقة من بين شفتي دون أن أنتبه. سارع الجمع للإمساك بالشاب المندفع في حين لمعت عينا خيري للحظة بالغضب ثم ظهر الارتباك على وجه وهو يضع يده على خده ناظراً إلى الشاب بدهشة، في حين بادله الآخر نظرة متعالية ومتحدية في آن. سارع

أحدهم لرفع النظارة من الأرض وناولها له مقترحاً استدعاء الشرطة، رد فعل خيري كان محيراً للجميع وهو يطلب منهم إطلاق سـراحه، ثم عادت ابتسامته لتقبع أعلى شفتيه وان كانت خابية قليلاً ونظر إلى الشاب في تأنٍّ ثم قال:

- سأعطيك فرصة أفضل من استخدام العنف للتعـبير عـن رؤيتك في رواياتي.

ظهر التساؤل في عيني الشاب مصحوباً بالدهشة وهـو يرمـق خيري في حيرة.

اتسعت ابتسامة خيري وهو يردف بهدوء:

- ما رأيك أن تكون ضيفاً معي في سهرة اليوم علـى القنـاة لتقول رأيك هذا على الملأ وسأرد عليك هناك.

غني عن القول إنني لم أستطع محادثة خيري في ذلك اليوم ولكن تتابع الأحداث جعلني أكتشف جوانب أخرى من شخصية خـيري جعلتني أتعلق به ربما من مقابلتي الأولى له وجهاً لوجه إن صح التعبير.

ليس مهماً هنا إصرار خيري على إقحام الشـاب كضـيف في السهرة وربما تضجر المخرج من هذا التغيير المفاجئ، وليس مهماً مـا قاله الشاب ورد خيري عليه. ولكن المهم حقاً أن هناك صحفياً كان وسط الجمع مصادفة على ما يبدو فالتقط عدة صور للحادثة، فدبجت الصحيفة في اليوم الثاني بمانشيت عريض ثم جـاء الخـبر مصـحوباً بالصور متحدثاً عن حلم الأستاذ وسعة باله ورفقه بالشباب وتفهمـه لاندفاعهم وأخذه بيدهم ونبذه للعنف والإعلاء من قيمة الحوار البناء ودعوته المباشرة لحرية الفكر والنقاش. كما أن واحداً من الحضـور كان من نشطاء الفيس بوك فسرد الحادثة في إكبار للأستاذ وحسـن

تصرفه وسعة حلمه، وقام العشرات بمشاركة المنشور على صفحاتهم ثم انتقل الخبر لتويتر بهاش تاق مميز #كن_حليماً_كن_كخيري وقام المئات بإعادة التغريد تحت نفس الهاش تاق.

لم يمر يومان على الحادثة إلا وكانت حمى خيري قد اجتاحت الشارع السوداني فتم ذكرها في حافلات المسافرين وجلسات الأنس ووسطاء الصلح بين المتخاصمين، بل يُقال إن خلافاً حدث بين رجل زوجته وعلت أصواتهما وعندما قالت له كن حليماً كخيري غضب زوجها الغارق في عمله وغير المهتم بما يدور في الشأن العام طالما لا يتصل بمجاله وسألها من أين تعرف خيري وعن علاقتها به، وكاد أن يقع الطلاق لولا تدخل العقلاء بينهما شارحين الأمر للزوج الغاضب ومطالبين إياه أن يكون حليماً كخيري وبلغ الأمر ذروته في افتتاح معرض الكتاب السنوي حينما تحدث وزير الثقافة في الحفل الذي أقيم على شرف خيري مادحاً له باعتباره قدوة للشباب ورمزاً من رموز الثقافة والتواضع وحسن الخلق.

(كوثر)

عندما أعود بذاكرتي إلى تلك الأيام تبدو محاطة بغلالة من السحر وكأنها لم تحدث على أرض الواقع. للقدر ترتيبه الذي يبدو غير مفهوم لنا نحن البشر ولكن يظل يغزل خيوطه كي يفضي بك إلى حدث أو موقف ما أو كي تقابل شخصاً يغير في الكثير من قناعاتك ومسلماتك في الحياة، بل ومن عجائبه أن هذا الشخص قد يكون موجوداً على الدوام ولكن عين بصيرتك تعمى عنه ثم يأتي الوقت

المناسب لتنجلي تلك الغشاوة عن عينيك في لحظة معينة فتـــراه لأول مرة وتنكر معرفتك به سابقاً، بل وربما تجادل وأنت في كامل الثقـــة بعدم وجود علاقة بين الشخصين رغم تأكدك بأنهما الشخص نفسه ولكنك تبصره الآن بعين البصيرة. وهكذا غزل القدر خيوطه الرشيقة حولي وحول خيري الذي لم أتخيل أن تجمعنا جلسة أنس في يوم من الأيام، دعك من أن نكون زوجين قد مر على زواجنا الآن ستة عشر عاماً كاملة.

يقع ترتيبـــي ثالثةً بعد أخي الأكبر المتسلط ناصـــر وأخـــتي المحايدة على الدوام نهال في أسرة واحد من الرعيل الأول في السلك الدبلوماسي السوداني، المرحوم حامد ناصر حامد الدبيب، والدي الذي عمل سفيراً في عدة دول أوربية بعد الاستقلال مباشرة ويعد من رواد الحركة الوطنية قبل الاستقلال. ولأن في عرف عائلتنا بند مقدس وهو تكرار سلسلة الأسماء في العائلة بصورة متواترة فقـــد كانت تسمية ناصر على جده أمراً متقبلاً ولكن لأن قدومي قـــد صادف رحيل جدتي لأبـــي فقد أطلق اسمها عليّ تخليداً لذكراها، وبمقاييس ذلك الزمن كان اسم كوثر يعتبر اسماً حـــديثاً ولكـــني نشأت كارهة له، تمنيت لو كان اسمي شذى أو لمى أو أي اســـم آخر غير اسم جدتي البالي حسبما أرى، أو ربما هو تمردي المبكـــر على التبعية وحبـــي للاستقلال، كان الاسم يشعرني بأني تابعـــة لجدتي نوعاً ما، أثرها الباقي بعد موتها، خاصة حين تعقد المقارنات المكررة بيني وبينها كلما اجتمع شمل العائلة، مؤكدين أنني ورثت جمالي منها رغم يقيني الكامل أنني لم أرث منها سوى اسمها البالي هذا.

لم تكن مداعبات ناصر المتكررة لي بلفظ (حبوبة) هي السبب الأساسي لنأيي عنه أحياناً وشجاري معه في أحايين أخرى، ولكن الدافع الأساسي لكثرة الشجار بيننا هو تسلط ناصر الدائم علي أنا ونهال، ناصر الذي اعتاد على التدخل في كل تفاصيل حياتنا الدقيقة، ابتداء من أنسنا الهامس في غرفتنا الخاصة، مروراً بملابس الخروج كما يسميها، وانتهاء بمجال الدراسة المناسب لكل منا.

نهال بطبيعتها المحايدة كانت تتجنب الجدال قدر الإمكان، كما أن الصمت المتضامن لأمي وأبي مع ناصر يدل على رضاهما عما يقوم به، كان هذا يجعلني وحيدة في مواجهة أخي فأثور أحياناً وأناقش في أحايين أخرى وقد أعتزل الخروج أو أصوم عن الكلام أو أقيم في غرفتي لا أخرج منها ليوم أو يومين، ولكن كل هذا لم يكن مجدياً، فتكثر بيننا النقاشات المفضية لمزيد من الجفوة والخصام خالقة علاقة متوترة ومزمنة يصعب علاجها، وربما كان لناصر الدور الأساسي في طريقة تعاملي مع زملائي في الجامعة لاحقاً، كنت أستمتع بهزيمتهم في النقاشات أو بكسر كبريائهم بالتجاهل. انتبهت لجمالي الأخاذ في أول سني الجامعة بكلية القانون، رأيته في عيون زملائي، في ارتباكهم وتلعثمهم حين يتحدثون إلي، ولكني لم أكن أبالي بكل هذا، بل حتى كلية القانون كانت بالنسبة لي مجرد كلية والسلام، طوال عمري كنت منجذبة إلى عالم الصحافة، ولكن ثقتي الكاملة في رفض أبي لحلمي الكبير جعلني أحجم عن الخوض فيه، أبي الذي لم تغيره السنون الطويلة التي قضاها متنقلاً في أوروبا سفيراً، فحين حدوث صدام بين قناعاته وأي من هذه الأمور يتحول

إلى صخر صلد لا يلين ولا ينكسر، فإن كان أبـــي قـــد رفـــض أن تدرس لهال الطب مبرراً بأن هذا المجال لا يصلح للنســـاء، فكيـــف بدراسة الإعلام الذي يسلم أبـــي بأنه بؤرة من بؤر الفساد، وشر لا بد منه ولكن بالطبع بعيداً عنه وعن أسرته.

أذكر جيداً أنني وقتها كنت مأخوذة بالقراءة غـــير الأكاديميـــة بشكل كبير، وجودي لسنوات طويلة في دول أوروبا المختلفة برفقـــة أسرتي جعلني أطلع على مختلف نواحي الأدب فقـــرأت لســـاراماجو وزوسكيند، كما أطلعت على الثورة الأدبية التي جـــاءت مـــن وراء الأطلنطي يقودها ماركيز وفويتس وباراجاس، تفاعلت مع جنـــونهم الجميل وتعبيراتهم المنمقة البراقة التي لم تكن مشابهة للواقعية الأوربيـــة وقتها، كما أن الأدب الروسي كان يقع في دائرة اهتمـــامي أيضـــاً، خاصة الرواية العظيمة (آنا كارنينا) التي أعدت قراءتها حوالي مائة مرة وصرت أحفظ منها مقاطع كثيرة أقرأهـــا غيبـــاً دون الرجـــوع إلى الكتاب، لم يكن افتتاني بالرواية لرومانسيتها الـــتي ناقشـــت الحـــب العنيف الذي اشتعل بين آنا وفرونسكي فمهما تنوعت قصص الحب فهي واحدة وإن اختلفت النهايات ولكن ما أعجبني حقاً هو شخصية آنا واعتدادها بنفسها، آنا التي واجهت المجتمع عندما اقتنعت بعـــدم جدوى الحياة الباردة التي تعيشها، لم تبالِ بزوجهـــا أليكســـيس ذي الأذنين الكبيرتين وحلقت بعيداً عن سماجته وبلادته، هـــذه الـــروح المتوثبة المتمردة سحرتني رغم نهايتها المأساوية، كثيراً ما كنت أغـــرق في الخيال متلبسة روحها العظيمة المقاتلة، رغم خســـارتها العظيمـــة ولكني أظنها ماتت وهي سعيدة في نهاية الأمر، إن كان في الانتحـــار سعادة، وهذا هو المهم.

نمط الحياة المحلق بين الواقع والخيال جعلني أبدو حالمة في نظـــر الكثير من زملائي، خاصة مع هدوئي وصمتي الدائمين، ولكن جمالي كان دافعاً للكثيرين للتقرب مني، وعندما يصطدم باهتماماتي الغريبة لا يملك إلا أن يفر مني فرار المجذوم.

وقتها كان طلاب الجامعة مفتونون بالأدباء العرب أمثال نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم ويوسف ادريس كما تحركهم أشـــواق المـــد اليساري القادم من الشرق فتمور نقاشاهم بالحـــديث عـــن الثـــورة البلشفية ولينين وستالين والرأسمالية الغربية والصراع العـــالمي والمـــد الإسلامي وأثره على الحراك السياسي في الشرق الأوسط ويـــرددون أشعار الفيتوري والمجذوب والتجاني يوسف بشـــير وأبـــو القاســـم الشابـــي، ويتغنون بأغاني وردي وإبراهيم عوض وعثمان حسين، أما أنا فكنت أتابع ما يمور حولي في الساحة بنصف وعيي أو بشيء مـــن الملل لو شئت الدقة. في البداية كانت أتضايق من محاولات التقـــرب مني، تلك المحاولات الساذجة التي لا يكل طلاب الجامعـــات عـــن ممارستها طوال الوقت، ثم راقت لي الفكرة فصرت أتصيد أحـــدهم ملقية إياه في شباك ثقافتي المختلفة عليه وأنا أرمقه بنظرة خفية متابعـــة بدقة تلعثمه ومحاولاته غير المجدية للخروج من الفخ الذي نُصب لـــه على حين غرة، وعندما يعلن استسلامه أفلته من حبالي متزينة بعطيـــة المنتصر. وهكذا أضحيت الأمنية المستحيلة والبنت المتعجرفة والمتعالية في آن واحد. لم يكن الأمر يشكل إزعاجاً لي بأي حال من الأحوال، فقد كنت أرى في مجتمع الجامعة قلة مـــن الـــزميلات الرجعيـــات التقليديات وجمعاً هادراً من تلاميذ المدارس بقامات أطول وشـــوارب أغزر، وهكذا مرت سنوات الجامعة ثم تخرجت بتقدير منخفض، كان

مرضياً بالنسبة لي، كلية القانون لم تكن حلماً و لم تثر اهتمامي يومـــاً بأي حال من الأحوال.

حين أنهيت دراستي الجامعية، بدأ حلمي الحقيقي يكبر وينمو، لم أجد باباً كي أطرقه، لا أقرأ الصحف المحلية، ولكن أتابع مع أبـــــي الصحف والمجلات العربية والعالمية التي كانت تصله عـــبر البريـــد، ثم برقت الفكرة في رأسي وكأنها كانت موجودة منذ الأزل. لمـــاذا لا أجرب مراسلة تلك الصحف، عسى ولعل. وبالفعل بدأت في مراسلة الحقيقة اللندنية والشرق العربـــي بالاسم الذي طالمـــا تمنيتـــه (لمـــى الوادي).

ما زلت أذكر تلك الأيام وأتنشق عطر الأحلام فيها، كنـــت أسلك الطريق نحو مكتب البريد وكأني في الطريق لملاقاة عشيق طال غيابه، يخفق قلبـــي وتحلق روحي، وأعود إلى البيـــت هائمـــة في أحلامي محتضنة سري الخفي، الصحفية المشهورة، صاحبة العمـــود الثابت في صحيفة الحقيقة اللندنية أو الشرق العربـــي ولِـــمَ لا مـــا الذي يمنع.

أرسلت ثلاث رسائل متفرقة لكل صحيفة من الصـــحيفتين ثم ظللت أتابع الإصدارتين باهتمام يفوق اهتمام أبـــي المعتاد مترقبـــة قراءة مقالاتي المختلفة في واحدة منهما، ثم بدأ اليـــأس يتســـلل إلى قلبـــي بعد مرور الشهر الأول دون أن أبصر كلماتي تتراقص أمـــام عيني بين دفتي إحدى الصحيفتين، وبدأ القلق يزعزع ثقتي في نفسي. لا بد أن المئات غيري يراسلون الصحف بل ربما الآلاف، هل هـــم متفرغون لقراءة هذا الكم الهائل من الرسائل؟ لا بد أن مقالاتي التي ظننت أنها ستخلق ضجيجاً في الوسط الثقافي العربـــي قد عانقـــت

مكب النفاية دون أن يُفك مظروفها، وبعد مرور الشهرين أضحيت لا أقترب من الصحف المتناثرة في الصالة الخارجية للبيت بعد فراغ أبـــي من الاطلاع عليها، وبعد الشهر الثالث قررت تناسي الأمـــر والتخلي عن حلم الصحافة بشكل نهائي، ثم انغمست في كم مـــن القراءات المختلفة والنشاطات المنزلية والالتزامات العائلية برفقة أختي نهال التي كانت خطبتها قد تمت وتم تحديد موعد الـــزواج بنهايـــة العام.

عندما فاجأني أبـــي ذات صباح خريفي السمات كنـــت قـــد تجاوزت الأمر تماماً، بل بدأت أحس بمدى سذاجة طموحي، وأحياناً أسأل نفسي في دهشة كيف فكرت في لحظة ما أن أمتهن الصحافة؟ كانت قد مرت ستة أشهر وثلاثة أيام بالضبط منـــذ ذهابـــــي إلى مكتب البريد عندما ناولني أبـــي الصحيفة في ذلك الصباح وهو يضع نظارة القراءة جانباً قائلاً:

- انظري إلى هذا المقال، كاتبته سودانية مثقفـــة مـــن هـــواة الصحافة، والله إني لأفخر حين أرى مثل هـــذه النمـــاذج السودانية المشرفة.

تناولت الصحيفة ونظرت إليها مجاملة له، خفق قلبـــي في عنف وارتعشت يداي وعيناي تتعلقان بالمقال الذي ذيـــل باســـم "لمـــى الوادي"، اسمي المستعار، أو هو اسمي الحقيقي في تلك اللحظة، لمحـــت عيني الصورة الموضوعة بصحبة المقال لأنامل أنثوية تمســـك بـــيراع وكأنها على وشك الكتابة، لم يكن هذا هو ما فاجـــأني فقـــط ولا العنوان الذي عنونت به المقالة "لمى الوادي،،، قلم يعد بالكثير" ولكن التعقيب الذي ذيل باسم رئيس التحرير والذي كان مضمونه الإشادة

بهذا القلم بل وذهب لأبعد من ذلك وهو يطلب منها إرسال عنوانها البريدي المفصل وذلك لإرسال عقد عمل مع صحيفة الحقيقة في حالة موافقتها ثم مبشراً القراء بوجود مقالتين أخـريين للكاتبـة بحـوزة الصحيفة ستنشرها تباعاً.

كتب زوجي خيري في واحدة من رواياته "الحياة عبارة عن نهر منحدر مهما طال مشواره من المنبع فمصيره إلى المصب، قد تقابلـه مرتفعات في طريقه فينثني ليتفاداها وسهول فينتشر ليغمرها، ولكنـه حتاماً عليه أن يكمل طريقه، في نهر الحياة الطويل الممتد هذا، تومض الحياة ومضات قليلة نادرة، بل أحياناً قد تكون ومضة واحدة لا تزيد" لو سئلت أنا كوثر عنها، لقلت إنها تلك اللحظة بالذات، المسـاحة الزمنية التي لا تتجاوز العشر ثوان إن طالت، النشوة التي اجتـاحتني كسيل جارف، الدماء التي اندفعت بحرارتها فغمرتني في دوامـة مـن المشاعر المختلطة التي لم أختبرها من قبل. كان كـل هـذا يحـدث ووجهي مدفون بين طيات الصحيفة فلم ينتبه أبـي إلى انفعـالي، للحظة أوشكت أن أخبره بأني كاتبة المقال، ثم أحجمـت، سـري الصغير يخصني وحدي، لا بد أن أعيد تذوقه على مهل واختبار مـا أشعر به مرة أخرى، نهضت من جلستي مخبرة أبـي أني سـأكمل قراءة المقال في غرفتي، وبخطوات مضطربة ابتعدت عن المكان، أغلقت باب غرفتي عليّ، ثم اندفعت أرقص في جنون مرح، كنـت أتقـافز بطول الغرفة محاولة تجنب الصراخ الذي يقاتل للفرار مـن صـدري كأني كنت أريد إخراج طوفان المشاعر الذي يجتاحني ليمثل أمـامي وأراه رأي العين، ثم جلست على طرف فراشي محاولة التقاط أنفاسي وأنا أقرأ المقال في متعة كاملة وكأني أراه للمرة الأولى، توقفت عنـد

مناشدة رئيس التحرير لي، لم يكن هناك مجال للتردد، سأكمل الطريق إلى آخره، بخطوات مرتعشة دنوت من مكتبي الصغير، تناولت ورقة وقلماً، وبيد مرتجفة كتبت خطاباً معنوناً لرئيس تحرير صحيفة الحقيقة اللندنية، وقلبي يخفق في عنف وكأني أخط رسالة لحبيب غائب.

عندما أعود بذاكرتي إلى تلك الأيام، أشعر بحنين دافق، أكاد أتنشق رائحة الأوراق البيض وأسمع خشخشة القلم وهو يهمس فوق السطور، كانت الأحلام في متناول اليد، حلمت بصاحبة الجلالة فخطوت في بلاطها خطوات، سعد أبي عندما علم بأني كاتبة المقالات لمى الوادي بل وشجعني على المضي قدماً بعكس ما كانت أتوقع.

الضوضاء الخافتة التي صنعها صوت باب الشقة وهو يفتح قطع عليّ حبل أفكاري. عندما خرجت كان متربا، لا بد أنه قد عرج لزيارة أمه كالمعتاد، أشك لو أنها كانت حية لما كان سيزورها بهذه الغزارة، وكالمعتاد كان ممرغاً في تراب قبرها، تصاعد الدم في رأسي، استعصى عليّ حل هذه المشكلة، ما يحيرني أن خيري غير ميال للنقاشات غير المجدية وغير متحجر في رأيه بل سلس جداً، ولكن حين يصل الأمر إلى هذه النقطة يستحيل شخصاً آخر، يتشبث بالصمت والابتسامة المحرجة ثم يعود لتكرارها المرة تلو المرة في إصرار عجيب.

(خيري)

(مسوّدة رواية طين لازب)

(الفصل الأول)

بعكس ما يظن الكثيرون، الفشل إنجاز صعب ويتطلب إصـــراراً ومجهوداً جباراً، هل حدث أن تابعت حياة سكير مدمن، أو مقـــامر خاسر، أو غيرهما من مدمني الفشل، ستجد إن اكتساب هذه الصفة يتطلب عملاً دؤوباً ومالاً مهدراً. هكذا كانت حياتي سلســـلة مـــن الفشل المتتابع المتعمد، كنت أتجنب طريق النجاح تجنب الأجـــرب، ملتزماً التزاماً كاملاً بكل مسببات الفشل وحريصاً عليها حتى أفضت بـــي إلى هنا.

تناولت حقيبتي، أخرجت منها ملاءة قديمة، ثم ضـــربتها عـــدة ضربات متتالية حتى تأكدت من استوائها لاســـتخدامها كوســـادة، حرصت على تغطية قدميّ بالملاءة جيداً، كل منغصات الحياة محتملة إلا لسع البعوض عند القدمين، عندما كنت أملك جـــوارب كـــان الوضع محتملاً، ولكن يوجد وغد ما عبث بحاجياتي عنـــدما ذهبـــت لأبول، ترك لي فردة واحدة من الجوارب، لا بد أنه كان مـــتعجلاً، أخذ قميصي الأحمر المقلم، ما زال يذكرني بأيام المرسم، عندما كـــان الرسم هواية وتزجية للوقت، أما الآن فقد تحـــول إلى أداة للتســـول، أحياناً أشعر برغبة في الضحك، ضحك مبكٍ، لم أكن أظن أن الأمور ستسوء لهذا الحد، هل يعقل أني مجرد متسول، ترى لو رأتـــني وأنـــا أفترش قارعة الطريق متابعاً الغزل بين القطط بجوار صندوق القمامـــة هل سيشفي ذلك غليلها؟ لا بد أنها تظنني الآن لاهياً في ليل بـــاريس

بعيداً عنها بعد السماء، ترى أين هي الآن؟ هل تزوجت وأنجبت ونسيتني، هل أحبت شخصاً آخر، هل آلف كفها كتفاً غير كتفي تتوكأ عليه في الأمسيات؟

لو أنني تخلصت من بقية العقل الذي يحول بيني وبينها وعلمت بمكانها لذهبت إليها الآن وجثوت عند قدميها كي تسامحني، لا أسعى للعودة إليها، ليس لدي طاقة للحلم ولا يسعها هذا الواقع، ولكني فقط أرغب في النوم دون أن تطاردني ضحكتها الصافية وعيناها الحالمتان وإيمانها العميق بي، أنا ابن الخيبات، لطالما أخبرتها بذلك ولكنها لم تكن تصدقني، كانت تصدق قلبها الأبيض النقي، القلوب البيضاء كذوبة بطبعها لا تورد صاحبها غير موارد الخذلان، وهي أدركت هذا جيداً، التجارب القاسية إن لم تقتل القلب ذهبت بنقائه، هي الآن لا تصدق قلبها رغم ثقتي بتوقفه عن إخبارها بالأكاذيب، أتمنى صادقاً أن أراها سعيدة، أدرك جيداً بأني لا أصلح لمنح السعادة ولكن بعض التمني قد يفيد، ابتسامتها قادرة أن تضيء في أشد الليالي عتمة، مهما أدلهم ليلها فموعد شروقها سيحين أو هكذا أتمنى، أو قد يكون هذا هو ما أخشاه، أن تتجاوزني كحكاية قديمة. فبعد كل ما فقدته في الحياة لا أملك الشجاعة كي أفقد حبها رغم أنه كان مبذولاً لي بلا مقابل، أنهل منه وقتما أشاء، ولكني هجرت هذا النبع وها أنا ذا الآن أقتات العطش والحسرة.

ملت القطط من الغزل، غادرتني وتركتني وحيداً مع صرير إطارات السيارات المزعجة، شارف وقت الفجر، لا بد من ذهابي إلى المسجد الكبير، أحياناً أسخر من نفسي، كيف لمتشرد مثلي أن يصر على الاستحمام رغم أني أتنفس القذارة طول اليوم، لا بد أنه

نوع من الحنين إلى أيام مضت، الإحساس المترف الذي أشعر به حين يغمرني الماء يذكرني بليال مضت في غياهب السنين، حتى حينما يكون البرد في عنفوانه لا أتنازل عن تلك المتعة الصغيرة، في الشتاء السابق أصابني التهاب الصدر الذي كاد أن يهلكني لولا أني أقنعت الصيدلي بأن يعطيني مضاداً حيوياً وشراباً للسعال مقابل أن أرسمه بقلم الرصاص، كان جشعاً وأصر على أن يختبر براعتي أولاً وسيقبل إن أعجبته اللوحة، وعندما علم بأني لا أملك قلماً ولا ورقة عرض عليّ أن يعطيني نصف الجرعة مقابل توفيره لأدوات الرسم. لا يملك الفقراء رفاهية الرفض خاصة إن كانوا مرضى، رسمته في إتقان حتى أضمن رضاه، ولكن أظهر تبرمه وهو يؤكد أنه يعطيني الدواء صدقة لوجه الله رغم رسمي له بإتقان كامل، حتى وضاعته وجشعه رسمتهما في براعة أُحسد عليها، كنت مجبراً على إظهار عميق شكري وامتناني على كريم عطفه وجزيل عطائه رغم أن الدواء لم يأت بمفعوله المرجو ولكن بعد عدة أيام وعند مروري بصيدليته وجدت لوحتي معلقة في صدر المكان وأنا ما زلت أسعل، على كل، أتى المرض وذهب بعد أن مل الإقامة في جسدي، قل السعال مخلفاً حرقاناً مؤلماً في الصدر ثم بعد عدة أيام ذهب الحرقان أيضاً كما يذهب كل شيء.

الآن وأنا أتمدد على قارعة الطريق لا أملك من الدنيا شروى نقير ما زلت أرى الجانب المشرق للفشل فأنا لم أعد أخشى أن أفقد شيئاً، سوى حقيبتي بأغراضها الرثة. لو أن ذكراها تفارقني وأجد جورباً جيداً يقيني من لسع البعوض سأكون سعيداً، حتى متع الحياة الصغيرة التي يتعامل معها الآخرون على أنها من المسلمات لم تعد تثير اهتمامي، أظن صادقاً أن الزمان لو عاد بي مرة أخرى فسأنتهي إلى

هذا المكان، ليست قدرية الأشياء هي ما أعنيه ولكن حتميتها، رغم حبي العظيم لها الذي لا جدال فيه ولكني سأتركها لو استدار الزمان وعدنا، وسأحول موهبة الرسم العظيمة عندي أداة للتسول، ما نحن عليه هو حقيقتنا، الحياة طريق في اتجاه واحد، نظن أننا نختاره ولكنه هو من يختارنا ويختار محطات التوقف ومنعرجات الطريق أيضاً، عندما أنظر إلى داخلي، أدرك أن كل أخطائي التي أفضت بي إلى هنا هي أخطاء ظرفية ولكنها صحيحة من واقع أنني كنت أقاتل من أجل الوصول إلى هنا و لم أعد أملك رغبة الوجود في مكان آخر.

(رونق)

تأكدت من حسن هندامي أمام المـــرآة، شـــددت بلـــوزتي وأهديت نفسي ابتسامة رضا قبل أن أغادر، كالمعتاد أبـــي غـــير موجود، ومن يهتم؟ لوحت بيدي للمقعد الخالي في الصالة وكأنه مستلق هناك، أبـــي المشغول دائماً بالتجارة بالرغم من أننا لســـنا أغنياء ولكنا لسنا فقراء أيضاً، أمتلك سيارة صغيرة أذهب بهـــا إلى الجامعة، ويترك لي أبـــي مصروفاً مرضياً يفيض عن حـــاجتي في كثير من الأحيان. حياته تزخر بالعمل والأصدقاء والشراب دائماً، هل هو سعيد؟ ومن يهتم؟ نحن نعيش في المنزل معاً وقد يمر أسبوع دون أن نلتقي، عندما أستيقظ في وقت متأخر أسمعهـــم يلعبـــون الورق، رائحة دخان السجائر تصلني داخل الغرفة، كانت تضايقني ثم اعتدت عليها ثم جربت التدخين وأعجبني الأمـــر، اعتـــدت أن أدخن في غرفتي التي لا يدخلها أبـــي مطلقاً، حـــتى وإن دخلـــها فرائحتها لا تختلف عن رائحة البيت التي تعبق بالدخان، ثم أنـــه لا يهتم، أنا الآن بالمستوى الرابع في الجامعة، العام السابق حين كنت ذاهبة إلى رحلة علمية في الدندر سألني عن الكلية التي أدرس فيها، لا مكان للدهشة في علاقتنا، أخبرته بأني أدرس في كلية العلوم، هز رأسه ومطّ شفتيه ولم يقل شيئاً.

الحرية المطلقة التي كنت أعيشها أشعرتني بالملل وعدم جدوى ما أفعله، يبدو كل فعل بلا قيمة ولا طعم، أذهب إلى المقاهي المخصصة لتدخين الشيشة، أسهر في شارع النيل لوقت متأخر، أحادث من أشاء بالهاتف، ولكن قلبي لا يفرح، كل فعل أقوم به من واقع العادة، أقابل صديقاتي كروتين لا فكاك منه، عشت علاقة حب وقاتلت من أجل استمرارها ليس لأني كنت أحب ولكن لأنه لا يوجد شيء آخر يمكنني فعله، ثم أنهيتها بدافع الملل، وهكذا تمضي الحياة، تحسدني صديقاتي على مساحة الحرية التي أمتلكها وأحسدهم على حزم الأب وقلق الأم وغيرة الأخ ولكن لا بأس فأنا ما زلت أمتلك ما يفتقدنه.

مقهى كوين بإضاءته الخافتة الملونة تتناثر جلساته المتباعدة في الأركان بعناية مدروسة، كم أحب كراسي الخيزران المريحة وأحب الموسيقى التي تنساب كرقراق الماء وسحب الدخان المتصاعدة مع الهمسات والضحكات الخافتة وأحياناً الآهات التي تذوب في فضاء المكان قبل أن تلتقطها أذن فضولية، السور المكون من أشجار قصيرة وكثيفة يوفر الخصوصية والانطلاق في نفس الوقت، عندما أكون جالسة أتابع حركة الشارع في يسر، رغم أرستقراطية المكان ولكن أحياناً يواتيني إحساس بأني أجلس على قارعة الطريق، نلتقي هنا أنا وصديقتي هبة كثيراً، أحياناً تتسع سهرتنا لعدة أشخاص ولكن غالباً ما نكون وحدنا، هي تركض طوال اليوم كصحفية تحت التمرين في صحيفة الأنباء، ثم نجتمع هنا مساءً لتشكي من التعب والإرهاق، بجسدها الممتلئ ووجهها الطفولي كانت تنضح بالطيبة، أحببتها ما أن التقينا، مرت الآن على صداقتنا أربعة أعوام، وقتها كنت أذهب إلى

حوض السباحة في الفندق الكبير لتزجية الوقت وهــي كالعــادة في واحدة من محاولاتها الفاشلة لإنقاص وزنها، هبة لديها القدرة علـى الضحك من كل شيء والضحك لأجل لا شيء، عندما نكون معـاً تنسحب هواجسي وتتحول نقطة سوداء صـغيرة يغرقهـا بيـاض ضحكاتها التي لا تنقطع، عندما أنظر إلى صـداقتنا أجـدها تفتقـد الخصوصية، لم نتناقش يوماً عن همومنا و لم نتحدث عن أحاسيسـنا، نحن نجتمع فندخن الشيشة ونحول كل ما يعتمـل في صـدورنا إلى سحب من الدخان وعبثاً لا قيمة له ولا وزن، ولهذا أنا أتشبث بهـا، معها يستحيل نهر الزمن إلى الآن فقط، فلا ماضي ولا مستقبل، تمتـد اللحظة حتى آخر الليل، معها كنت أهزم الضجر هزيمة تلو الأخـرى لهذا أنا ما زلت هنا وسأظل.

احتضنتها في شوق رغم أننا افترقنا عند ساعات الصباح الأولى، غمزت بعينها في مرح وهي تلمح نظراتي القلقة، ثم قالت:

- نعم لقد أحضرتها لا تقلقي، بالطبع لـن أسـألك فيمـا تحتاجينها ولكن فائدتها محدودة، مجرد صحفية تحت التمرين، سيتم إقصاؤك وتجاهلك كثيراً، وعندما يتم الاستخفاف بك تعاملي ببرود وثقالة دم وتظاهري بعدم الفهـم وواصـلي إلحاحك حتى تصلي إلى مبتغاك وبذلك تكونين صـحفية ناجحة.

نظرت إلى البطاقة ثم أدخلتها بعناية في حقيبتي، دخنّا الشيشة معاً وأنا أكمل تفاصيل ما سيحدث في مخيلتي، ينبغي أن أكـون جريئـة وواثقة وسأصل إليه، هذه البقعة المظلمة في حياتي آن لها أن تنقشـع، رغم تظاهري بأني لا أهتم ولكني ما زلت أذكر غضب عمتي فاطمة

وهي تتحدث عن أمي؛ زينب أمك مجرد فاجرة، قلت لأخي اذبحهـــا قبل أن تكللك بالعار ولكن كان يحبها المجنون، جعل الأفعى تتلوى في بيته حتى لدغته، لم نسمع بامرأة تهرب من بيت زوجها ولكن أمـــك فعلتها، لم أحببها يوماً، كنت أحذر أباك منها ولكن بلا فائدة، سحره دم الجني الذي يجري في عروقها حتى وقعت الواقعة، وأنا لا أحبـــك أنت أيضاً، فأنت صورة منها، لا بد أنك تعذبين أخي كلمـــا رآك، ولكن المسكين لا يملك أمره، أنا أعلم أنه ما زال يحن إليها رغم كل ما فعلته به، من كان يظن أنه سيعاقر الشراب يوماً، ولكن لعنة أمك هي من أوصلته إلى ذلك.

كانت عمتي بقامتها النحيلة وعينيها الجاحظتين ساخطة على الدنيا وعلى أمي بالذات، وحين تأتي من سواكن لتزورنا في فترات متباعدة، يعود أبـــي إلى رشده، يتظـــاهر بالاســـتقامة ويفـــارق الشراب حتى تنهي زيارتها وتعود إلى سواكن، لا أدري إن كـــان هذا خوفاً أم احتراماً لأخته الكبيرة، ولكن حالما تختفي يعـــود إلى حياته السابقة، عندما كنت صغيرة لم أكن أفهم كل هذا ولكـــني كلما كبرت اتضحت الرؤية، ذات ليلة عندما عدت من الخـــارج كان مستلقياً على الكنبة، ظننه نائماً، أغلقت التلفاز وأطفأت النور ثم فاجأني بقوله:

- أنت تشبهينها كثيراً.

خفق قلبـــي وباغتني صوته الخافت الذي ينبض بالحزن، قلت في ارتباك:

- ظننتك نائماً.

تجاهل عبارتي وهو يكمل:

- لك نفس عينيها وابتسامتها الحلوة، تذكرينني بها دائماً، كم كنت أحمق حين ظننت أن القيود هي ما سيبقيها معي، لو أني لم أحاول قص أجنحتها ربما ما كانت لتغادر.

لم أدرِ ماذا أقول، ألجمتني مفاجأة إتيانه ذكرها، أبي لا يتحدث عنها مطلقاً، طالما ظننت أنه يكرهها ولكن صوته الآن كان ينبئ عن شيء آخر، دنوت منه في تردد، وضع يده في كتفي، نظرته كانت مغموسة بالحزن وبدا منهكاً وهرماً، تنهد وهو ينظر إلى لوحة قماشية نُسج عليها طائران متعانقان ثم قال:

- جئت إلى الخرطوم بحثاً عنها، كنت ممتلئاً غضباً وقهراً، أريد أن أثأر لشرفي الجريح، ولكني لم أعثر عليها، قلبت كل حجر، سألت الناس في الشوارع، سلمت صورها للشرطة، ولكن بلا فائدة، عندما كنت أعود إلى سواكن كنت أراها في كل مكان، تحول الغضب إلى حنين وشوق، لم أستطع أن أسامحها على فعلتها ولم أستطع نسيانها، ثم في ليلة جمعت كل حاجياتها وأحرقتها ما عدا هذه اللوحة، ظلت تغزلها لشهور، كانت عروساً سعيدة، لم تلج المشاكل إلى عشنا الصغير، الطائرين أنا وهي، تخبرني أننا سنظل معاً على الدوام ولكنها لم تفِ بوعدها، تركتني وغادرت، لم أستطع البقاء في سواكن، نظرات الناس والأسئلة التي تفضحها أعينهم، ذكراها التي ينبض بها المكان حولت حياتي جحيماً، فهجرت المكان وتركت كل شيء وجئت إلى هنا، والآن بعد عشرين عاماً أقر بأني قد فشلت، لم أستطع نسيانها ولو

لليلة واحدة، ثم ها أنت ذا تجددين الذكرى وتنكئين الجرح بشدة التشابه بينكما.

هربت بعيني:

- الأمر ليس بيدي يا أبـــي.

هز رأسه متفهماً، توكأ عليّ ونهض مغادراً المكـــان بخطـــوات مترنحة، أعاد أبـــي بحديثه فتح الباب المغلق فانهالت الأســئلة الـــتي تبحث عن إجابات، سابقاً عندما كنت آتي على ذكر أمـــي كـــان يزجرني وكأني أتيت أمراً عظيماً فصمت. رحيل أبـــي المبكر مـــن سواكن أبعدني عن أهل أمي، فلا أعلم لي خالة أو خال، وهي أيضاً من الأسئلة التي لا إجابات لها، أراد أبـــي أن يقطع صلتي بهذا العالم وقد نجح، في الصباح عاد أبـــي الذي أعرف، قوياً ولامبالياً وعندما لمحت لليلة أمس أدعى بأنه لا يذكر شيئاً وعندما أتيت على ذكر أمي ألقى عليّ ذات النظرة الزاجرة ثم غادر، تلك الليلة الـــتي لامســـت الماضي أرتني وجهاً مغايراً لأبـــي وصورة مختلفة عن أمي غير الـــتي تعكسها عمتي بسخطها الدائم، عندما قلت لأبـــي بعد ذلك بفتـــرة أنني أرغب في السفر إلى سواكن، لم يسألني عن السبب فقد كـــان يعلم كما أعلم ولكنه بدلاً عن ذلك ثار وأرغى وتوعدني، لم أخـــشَ أبـــي وكان يمكنني أن أتحداه وأذهب ولكني خفت مما قـــد ألقـــاه. حياتي رغم كل شيء مستقرة وهادئة، مالي ولأم تركتني وفرت مـــع عشيقها، فصرفت النظر، وتظاهرت بتجاوز الأمر حتى أتت روايـــة إيلات لتقلب حياتي رأساً على عقب، كانت تحكي قصة أمي، ما في ذلك شك، حتى المدينة التي اختارها لفضاء الأحداث كانت سواكن،

حتى البطلة اسمها إيلات[1] لا بد أنه اجتمع بأمي في مكان ما، بل ربما هو على صلة بها حتى الآن، من يدري، عندما أتحدث إليه سأعلم، وسيجيب على كثير من الأسئلة التي تؤرقني، بل وربما أكون محظوظة بمقابلة أمي ورؤيتها ولو لمرة واحدة. تقول عمتي إذا رغبت في رؤيتها فانظري إلى نفسك في المرآة، ولكن عمتي تبالغ كثيراً، أنا قادمة إليك يا إيلات.

(سليم الصوفي)

كالعادة دفعني غضبي للتفريط في فرصة ذهبية لتحسين أوضاعي هنا، ربما عاقبني المدير بنظافة دورات المياه طوال الأعوام العشرة القادمة، ولكن ألم يجد هذا المرتشي سوى خيري، هل ضاقت الدنيا حتى لا يكتب قصتي أحد غير وجه الضفدع، من كان يظن عندما كنا طلاباً في الجامعة أن مثل خيري يمكن أن يكون كاتباً، وأن مثلي يمكن أن يكون سجيناً. ما زلت أذكره بمشيته المتعثرة، هو وصديقته الغامضة الجميلة، الوحيدة التي استعصت عليّ في الجامعة، هل كان اسمها زينب؟ كانت بثوبها الأبيض وصوتها الخافت وجمالها المتوحش قد اجتاحتني في يسر، ظننتها ستكون غزوة سريعة أؤوب منها بنصر سهل أتباهى به في وسط زملائي المحرومين، ولكن الغزوة طالت، تكسرت نصالي عند درعها المنيع، مرارة الهزيمة التي تجرعتها بسبب رفضها جعلتني أخترع الكثير من القصص حولها، رفضها

(1) يُطلق على كل من اسمها زينب اسم إيلات في شرق السودان ولكن القرينة بين الاسمين لم أُحط بها علماً.

أحال أجيج رغبتي إلى رماد الكره، فلم أتوانَ عن التصريح والقـــول، ولكن نكتة الخذلان السوداء طبعت في قلبـــي و لم تغادره.

عندما وصلها رشاش حديثي أتتني في جمع عند شـــجرة اللـــبخ العجوز، وقفت قبالتي بسمرتها الفاضحة ولمى شفتيها المكتنزتين الذي يطعنني فارتجف، بحثت عن ريقي ولكن حلقي يباب، لم يعلُ صوتها، كانت تتحدث في هدوء، ولكن حديثها كان كنصل بارد حاد، مـــا زالت عباراتها تدوي في داخلي وكأنها نطقت بهـــا الآن (فلتمـــارس مراهقتك المتأخرة بعيداً عني، فجرذ مثلك لا يثير انتباهي إلا بقدر ما أبعده عن طريقي) ابتسامتها الساخرة التي كانت تتلاعب على شفتيها القرمزيتين جعلتني أطأطئ رأسي كتلميذ مذنب، عندما جمعت شتات نفسي حاولت أن أرد لها الصاع صاعين، ولكني فشـــلت، فاجـــأتني اللعينة وعندما ابتعدت عني تركتني ملحاً للحديث الذي عم الجامعـــة من أقصاها إلى أقصاها، ما حدث جعل ناري تستعر أكثر.

لهثت خلفها حتى تقطعت أنفاسي، وصل بـــي الأمر أن جثوت على ركبتي أمامها وهي خارجة من المكتبة كي ترضى عني، ولكنـــها عندما قالت لا كانت تعنيها، حاولت نسيانها بالانغماس في ملـــذات وقتية ما بين الجامعة والحي، ولكن جميع الشفاه استحالت مطاطـــاً، يتسلل طيفها حين تتأوه أنثى في أذني فتفقد اللحظة معناها، وكأنها لم تكتف بهذا كله، ولكنها لم تجد أحداً تصادقه في الجامعة غير وجـــه الضفدع غريب الأطوار، الذي يعبر المكان كالظل لا يلفـــت انتبـــاه أحد، الوحيد، المنطوي على الدوام، لا تزال لديّ قناعة كاملة بأنها ما فعلت ذلك إعجاباً به ولكن نكاية فيّ، أرادت بإذلالي أن يصـــل إلى مداه فتخيرت خيري، حثالة الجامعة ونكرتها كي ترافقـــه، وجـــدت

طاقة كرهي تتحول برمتها نحوه، سلّطت عليه طول لساني وسخريتي، وسطوتي التي اكتسبتها في الجامعة بوسامتي وشهرتي فأحلت حياتــه جحيماً، ولكن كل ذلك لم يجعلها تلتفت إليّ.

منذ تخرجنا من الجامعة لم أرها مرة أخرى، ترى أي أرض تقلها الآن وأي سماء تطويها، وجه الضفدع نال فوق ما يستحق في هــذه الدنيا، رفقة زينب، ثم تصدى ليروي قصتي، لا بد أن حظ الأغبيــاء هو الذي يقوده، الآن هو كاتب مشهور رغم ضحالة تفكيره وغرابة أطواره، تكتب عنه الصحف ويقف له الناس احتراماً وأنا ملقى هنــا في هذه المزبلة لا أملك سوى تقليب ذاكرتي التي يحتلــها هــو الآن أيضاً.

- ماذا كان يريد منك مدير السجن؟

نظرت إلى وجه دريابــي المسحوب، وعينيه الغــائرتين، قــد يكون مفيداً فقد قضى فترة كافية في السجن.

- دريابــي أريد زجاجة من الويسكي، كيف أتحصل عليها؟

فغر فاه في دهشة، ثم ضحك ظاناً أنني أمزح، ولكن عندما رأى الجدية ترتسم في وجهي، تلفت حوله في حذر ثم قال:

- مصباح.

ملامحي التي دلت على عدم الفهم دفعته للتململ في جلســته ثم دنا مني ووجهه ينطق بخطورة ما سيقوله:

- الرقيب مصباح يمكن أن يوفر لك ما ترغب فيه حــتى لــو كان سلاحاً ولكن لكل شيء ثمنه.

هذه هي المصيبة، وئام اللعينة تصر على حرماني من النقود، ماذا سأفعل بزيارتها المتكررة إن كنت لا أســتطيع أن أطــول صــدرها

الرجراج أو محفظتها المتضخمة، ثم ها أنا بحماقتي فرطـت في وجـه الضفدع أيضاً. لو أن الزمن يعود مرة أخرى فأرضيه، اللعنة، تباً للدنيا التي تجعلني أرجو خيراً من هذا النكرة.

صباحاً، دنوت من مصباح بشاربه الضخم ووجهه المتجهم، لا مناص من التجربة، حييته في ود ولكنه شملني بنظرة متعالية ثم انصرف بنظره عني دون أن يكلف نفسه مشقة الرد. تنحنحت وأنا أدنو منـه راسماً على وجهي ابتسامة ودوداً.

– كنت أرغب في خدمة من جنابك.

لم يوجه نظره نحوي وهو يرد:

– ماذا تريد، مطواة أم حشيش أم ماذا؟

ضحكت ضحكة صغيرة ثم قلت:

– ويسكي.

نظر إليّ في استنكار ثم قال في دهشة:

– تريدني أن أجلب لك خمراً؟ الحرام، هل ستغادر من أمـام وجهي أم تريدني أن أخسف بك الأرض.

– وهل الحشيش حلال؟ دعنا من هذه المسميات البالية وأنجز الأمر.

حك رأسه في حيرة، ثم هز رأسه في عنف دلالة على الـرفض ونهرني.

– قلت لك ابتعد من هنا قبل أن أخسف بك الأرض.

بدا هذا الثور الغبـي جـاداً، آثـرت السـلامة. في كـل الأحوال أنا لا أملك مالاً فلا أدري ما الجنـون الـذي دفعـني لكل هذا.

في الليل أبصرت وجهه الضخم يطل من وراء شباك الزنزانة، نادى عليّ بصوته القوي، دنوت من الشباك فقال متعجلاً:

- سيكلفك الأمر ألف جنيه وثمن الزجاجة ألف أخرى، سأوفرها لك غداً مساءً، من الأفضل لنا الاثنين أن يكون المبلغ جاهزاً عندما آتيك.

غادر مبتعداً قبل أن أشرح له أنني لا أملك مبلغاً مثل هذا، من أين لي بألفي جنيه، ثم أن ثمن الزجاجة لا يتجاوز الأربعمائة جنيه، هذا اللص ابن الكلب، كيف سأتصرف الآن، غضب ثور مثل هذا عليّ سيحيل حياتي جحيماً في هذا المكان بلا شك، لقد ورطت نفسي، نظرت إلى دريابي الذي يغط في نوم عميق، هززته في عنف فاستيقظ مذعوراً وهو ينظر إليّ.

- أحتاج لألفي جنيه الآن يا دريابي.

نظر إليّ دلالة على عدم الفهم، ثم ضحك قائلاً:

- لو بعتني فلن توفر هذا المبلغ.
- من سيشتري ثرثاراً مثلك.

قلتها في غضب وأنا أحكي له ما حدث بالتفصيل. ظهر الهم على وجهه، هذا العجوز الخرف ينام على تل من المال ويبخل عليّ بألفي جنيه فقط، حك لحيته ثم قال:

- لا أدري من أين ستوفر هذا المبلغ ولكن كما قال مصباح، من الأفضل لكليكما توفيره غداً فهو لا يمزح في مثل هذه الأمور.
- ما الذي تقصده يا دريابي.

- مصباح يعتبر رئيس عصابة داخل السجن، لديه شبكة كاملة من صغار السجناء تعمل تحت إمرته مقابل توفير احتياجاهم المتعددة، لو غضب منك فأنت معرض لكل أنواع المخاطر التي قد تدور في مخيلتك.
- هذا الثور الغبي؟

قلت مستنكراً، فأومأ برأسه مؤكداً على كلامه، نهضت من مكاني وأنا أذرع الزنزانة بخطواتي القلقة، ترى ما الحل، ليس أمامي سوى وئام، سأحاول الاتصال بها صباحاً وإن كان هذا يبدو صعباً أيضاً ولكن لا سبيل سواه، كانت ليلة طويلة وأنا أنتظر انبلاج الصبح، خرجت للفناء بحثاً عن مصباح، ربما كان الاعتذار عن الطلب أجدى، ما أن رأيته حتى هرولت نحوه، لم يمهلني وهو يبتدرني قائلاً:

- طلبك جاهز، سأسلمك له اليوم مساءً، هل جهزت النقود.

ابتلعت ريقي في صعوبة، لقد أطبق الشرك ثم قلت بعد تردد:

- كنت أرغب في إجراء مكالمة هاتفية مهمة.
- لا بأس ستكلفك الدقيقة عشرين جنيهاً، متى تود الاتصال.
- الآن لو أمكن ولكن المبلغ ليس بحوزتي، سأتصل بزوجتي لتأتي بالنقود.

شملني بنظرة كادت أن تزهق روحي ثم قال:

- الدقيقة تكلفك عشرين جنيهاً وستدفع قبل أن تضع السماعة في أذنك.
- ولكني أود الاتصال لتوفير المبلغ الذي سأدفعه لك مقابل الطلب.

- هذا ليس شأني، في الليل سأسلمك طلبك وأستلم النقـــود. هيا اغرب عن وجهي.

أي مصيبة هذه التي وقعت فيها، تباً لوئام، قد أفقد حياتي بسبب عنادها، الملايين التي بحوزتها لا أستطيع أن أطول منها الآن ألفي جنيه كي أعتق رقبتي من هذا المجنون، لا بأس سأطلب من مدير الســـجن منحي دقيقتين للاتصال، ولكن لا بد من انتظار الساعة التاسعة موعد قدومه للسجن، هي محاولة يائسة فمما حكاه لي دريابـــي في واحدة من ثرثراته التي لا تنتهي أن هاتف مدير السجن محرم على الســـجناء، ولكن لا مفر من المحاولة، في تمام التاسعة نهضت من مكاني مقترباً من مكتب المدير، وقبل وصولي للمكتب وضع أحد العساكر يده الثقيلة على كتفي ثم قال:

- مسجون سليم الصوفي.

اللعنة ماذا يريد هذا الآن، أومأت برأسي موافقاً وأنا أنظر إليه.

- يرغب مدير السجن في رؤيتك.

قالها في حزم وهو يقتادني نحو المكتب، لا بأس من بلوغ الهدف حتى ولو على رأس قذيفة الآن.

بوغت بمدير السجن وهو يقف مصافحاً إياي في ترحاب، حتى العسكري لم يستطع إخفاء نظرة الدهشة، أمـــره عـــوض باشـــري بالمغادرة ثم أشار إليّ بالجلوس قائلاً:

- الأستاذ خيري عبد العزيز صديق عزيز، لم أكن أعلم أنـــه دفعتك في الجامعة يا رجل.

أومأت برأسي موافقاً، وأنا أرسم على وجهي ابتســـامة بلـــهاء والهاتف يقبع صامتاً بجواره في المكتب.

- قال إنه سعيد جداً بالحديث الذي دار بينكما ويعتـــذر إن كان قد سبب لك إزعاجاً.

مط شفتيه وهو يهز رأسه ثم قال:

- بالله انظر لتواضع هذا الرجل، كاتب كبير ومشهور يعتذر لمذنب مثلك.

أليس هذا أمراً عجيباً، كما أنه قد أوصاني بك كثيراً، في كـــل حال اعتبر أن نظافة دورة المياه لم تعد من مسؤولياتك.

لم يسعني سوى التمتمة بكلمات الشكر وأنا أنظر إلى الهاتف في قلق.

- يرغب خيري في مقابلتك ثانية لو سمحت له، يا للتواضـــع، ينبغي لك أن تفخر بأن رجلاً في قامة الأستاذ يرغـــب في مقابلة مذنب مثلك بدلاً من استئذانك في ذلك.

تمتمت دون وعي.

- بالطبع يشرفني في أي وقت أنا تحت أمرك وأمره، كنـــت أرغب...

قاطعني قبل أن أكمل حديثي مشيراً بيده.

- كدت أنسى وصيته الأهم.

ناولني مظروفاً ضخماً قائلاً:

- أوصاني أن أسلمك هذا المبلغ أيضاً.

أمسكت بالظرف في لهفة، وأنا أحاول تخمـــين المبلـــغ الـــذي بداخله، يبدو كبيراً.

- ما الذي كنت تود أن تقوله؟

تنحنحت ثم قلت:

- لا شيء كنت أود لو توصل تحياتي له وتبلغه عميق شكري وامتناني، وبأني أتشرف بزيارته في أي وقت يريده.

كان الوقت مناسباً للاستئذان في استخدام الهاتف، ولكن لا حاجة لذلك الآن، لست مفتقداً لعويلها الشبيه بثغاء معزة عجوز، غير اكتفائي من شكواها المتكررة لشوقها العظيم لي، طالما هذا القبر لا يمنحني الفرصة للانفراد بها فجميع ما تردده مجرد غثاء لا يذهب ظمأً ولا يروي عطشاً. لست مؤمناً بما يدعى الرومانسية، هذا حديث مراهقة ليس إلا، إضفاء الصفات الملائكية على الأنثى عمل عبثي لا طائل من ورائه، طالما هي تذهب إلى الخلاء وتتناول الطعام وتصاب بالزكام فلا ملائكية ولا من يحزنون، النساء مجرد وجبة تقدم في الوقت المناسب، افتقادهن قد يسبب الجنون، كما أن وفرهن تسبب الملل، الآن أنا في طريقي نحو الجنون ولكن وفرة وئام دون أن أطولها يبدو مثل عرض الطعام على الجائع دون أن يتذوقه، مالي ولهذه الابتلاءات، بحوزتي الآن زجاجة ويسكي ومبلغ جيد من المال، لقد حان وقت الاحتفال.

(كوثر)

قناة المقرن كانت مجتمعاً صغيراً مترابطاً ونماماً كالمعتاد، أمضيت هنا ما يفوق العشرة أعوام. مدير القناة، الأستاذ محجوب، له باع طويل في العمل الإعلامي، وديكتاتور لا يطاق بمعاييري التي وضعتها في الحياة. في بداية عملي في القناة كان الصدام بيننا لا يتوقف، يتدخل في تفاصيل العمل، فلا يفلت منه المخرج ولا المنتج ولا معد البرامج أو

مقدمها، ولولا عشقي الدائم للتحديات وتمسك رجل الأعمال محـــي الدين مالك القناة بـــي ربما قدمت استقالتي منذ اليـــوم الأول، ثم إن مقالاتي الصحفية والتي تنشر دورياً في الشرق العربـــي مزامنـــة مـــع صحيفة الرأي المحلية جعلت مني واجهة إعلامية يحرص محجوب رغم ديكتاتوريته على الحفاظ عليها، لمست هذا كثيراً في تعامله معي، رغم أن كبرياءه يمنعه من إظهار ذلك صراحة، فالتنازلات التي يقدمها من أجل إرضائي تأتي مغلفة بالتفهم وإتاحة الفرصة للتعبير عن الأفكـــار من أجل قناة أكثر نجاحاً، رغم أن هذا الفضاء غير متاح لبقية طـــاقم القناة.

روتين العمل اليومي خلق نوعاً من المودة المتحفظة بيننا، علاقـــة يغلفها الاحترام ويشوبها التحفظ والحرص على التعامل الرسمي تقليلاً للصدامات بيننا، صلتي مع بقية الطاقم كانت ودية للغاية، رغـــم أن طبيعتي أميل للعزلة فلم تكن لي صديقة مقربة في يوم مـــن الأيـــام، وعنادي الذي خبرته في نفسي وحب الاستقلالية عندي جعل كـــل من تعاملت معهم يقفون على بعد خطوة مني لا يجسر أحدهم علـــى تعديها، ولكن الطاقم هنا كسر هذا الحاجز إلى حد ما، عم زمراوي مدير التصوير بقبعته المائلة وشاربه الضخم كان أباً للكل، وقريباً مـــن الجميع، رغم سخريته اللاذعة التي جعلتني أتعامل معه بحذر في بدايـــة التحاقي بالقناة، ثم بتوالي الأيام ظهرت لي شخصيته الحقيقية، فهـــو الملاذ الآمن للطاقم، يستشيره الكل في مشاكلهم، بل ويعمل علـــى مساعدتهم ما وسعه ذلك، ثم إنه لسانهم الذي يخاطب محجـــوب في حالة احتياجهم لذلك، وكثيراً ما نجح في إسقاط عقوبة على أحدهم تم فرضها بواسطة محجوب نفسه وذلك لمكانة عم زمراوي الكـــبيرة

لديه. مضي الأيام جعله أقرب أفراد الطاقم إليّ، علاقته الأبوية واهتمامه الدافئ، ومزاحه اللطيف، حتى سخريته اللاذعة صرت أكثر تقبلاً لها وتجاوباً معها.

ثم تأتي من بعد ذلك سوسن، وهي التحقت بالقناة متدربة منذ تخرجها من كلية الإعلام قبل اثني عشر عاماً، والآن تعمل كمعدة برامج. سوسن ثرثارة بطبعها، لا تستطيع أن تصمت لثانيتين متتاليتين، وكالة الأنباء المتنقلة داخل مقر القناة، غير أن مشاكلها في البيت والعمل هي مواضيع عامة للنقاش، لا توجد لديها أسرار كما لا تحدها حدود لمعرفة أدق تفاصيل حياة من يحيطون بها، ومنها سمعت للمرة الأولى عن الجانب الآخر لمحجوب.

محجوب العازب الأبدي المضرب عن الزواج، رغم أني عندما أتيت للقناة كان هو في منتصف الأربعينات ولكن قامته المعتدلة وجسده الرياضي جعلاه يبدو أصغر سناً، الكاريزمية التي يتمتع بها تجعل من يحيطون به يخشونه ويحبونه في نفس الوقت، رغم دكتاتوريته المطلقة ولكن هذا لا يمنعني من الإقرار بتفكيره الإبداعي الخلاق والمبتكر في حل المشكلات التي تواجهنا أثناء العمل، غير أنه كان من النوع الذي يعتمد عليه بشكل كامل، فمحي الدين لم يترك له حبل القناة على الغارب لو لم يكن واثقاً من حسن إدارته وتدبيره لأمورها. الجانب الآخر من شخصيته التي يدور الحديث عنه همساً في كثير من الأحيان كان مزدحماً بنساء الطبقة الراقية، فهو دائماً على علاقة بفنانة مشهورة أو مذيعة جميلة أو سيدة أعمال غنية، كما أنه مشهور بعلاقات عابرة بفتيات ربما لو كان متزوجاً لكن في عمر بناته. حياته الأخرى التي كانت مناقضة تماماً للشخصية الجادة المدققة في كل

تفاصيل العمل كانت تثير فضولي، رغم تحفظي المعتاد على النميمة ولكن كنت أجد نفسي مهتمة بأي معلومة أو خبر يتحدث عن الشط الآخر من حياته. لمحجوب شخصية ساحرة، وفي الأوقات المتباعدة التي يجتمع فيها الطاقم يتحول شخصاً آخر، ضحكاته المرحة ومزاحه الذي لا ينتهي.

كثيراً ما كنت أقع في فخ المقارنة بينه وبين خيري، خيري الهادئ، الذي لا يجيد سوى الكتابة والقراءة، والتأمل، الذي لا يحب المسؤولية ولا روتين الحياة اليومي. ألقى هذا على كاهلي مسؤوليات إضافية غير مسؤولية العمل، فتربية الأبناء والاهتمام بدروسهم ومراجعة المدرسة وقت الضرورة، متطلبات المنزل التي لا تنتهي، ولكن في المقابل يدعم كل خياراتي الحياتية والعملية بشكل غير محدود وهذا ما افتقدته في بيت أبي، ربما كان هذا هو الدافع الحقيقي لارتباطي به منذ البداية، المساحة اللامحدودة لحرية الحركة والانطلاق، أذكر جيداً لقاءنا الحقيقي الأول وملابساته كأنه حدث بالأمس.

الحوار الذي دار بيني وبين عم عبد العزيز وأبي في تلك الأمسية، كان يشبه حديث الأمسيات المعتاد لعجوزين متقاعدين وشابة جميلة، حديث قد يبدو مملاً ولكنه دافئاً في ذات الوقت، مشبع بالحنين والذكريات الموغلة في القدم، تحدث عم عبد العزيز عن مكتبته التي أعاد خيري إحياءها بعد أن كان يفكر في إهدائها للجامعة، عبر طيف خيري في ذاكرتي بشكل ضبابي، ذلك المراهق الصامت بالنمش الذي يغطي وجهه وشعره المرجل على الدوام وملابسه قاتمة اللون الرسمية وكأنه على وشك استقبال ضيف مهم، كانت ملابسه مهندمة ولكن ليست أنيقة في حال من الأحوال.

ما زلت أذكر أول مرة رأيته فيها بعد استقرار عم عبد العزيز في السودان، أضحينا نقضي معظم زياراتنا للسودان في بيتهم بحديقته الواسعة، أشجار المانجو الظليلة وأشجار اللبخ التي تقتسم أوراقها مع الممرات المغطاة ببلاط الإسمنت العريض، صانعة فراشاً ذهبياً بطول الممر، وعندما أركض بخطواتي الصغيرة تتكسر الأوراق الجافة تحت قدمي مصدرة قرقعة خافتة كنت أحبها، كائنات الحديقة التي لم أعتد عليها تجعلني أشعر بأني أليس في بلاد العجائب، الأرانب البيض بعيونها الواسعة ستقودني إلى المدخل السحري، الببغاوات التي تقطن في أعلى أشجار المهوقني بألوانها الزاهية، القرود بصرخاتها المفاجئة، وخيري الجالس دوماً في عريشة العنب مكتفياً بمتابعتنا ونحن نلهو حوله.

وقتها لم أكن قد تجاوزت العاشرة من العمر، وخيري الذي يكبرني بعشرة أعوام كان يبدو في عيني لا يقل غرابة عن كائنات الحديقة بصمته وشروده. لم يكن صديقاً لناصر رغم تقاربهما في العمر، ناصر كان منطلقاً بطبعه، ومناكفاً لي ولنهال، في حين يكتفي هو بالمراقبة من بعيد أو التجاهل في معظم الأحيان، هل كنت أخشاه؟ لست متأكدة ولكن ما أذكره جيداً أني لم أكن أحبه، أتجنب المرور من أمام العريشة حال وجوده، ويصفو المكان حين يكون غائباً.

طوال الخمسة أعوام الأخيرة التي قضيتها في السودان لم أقابله، لم يأتِ ولو لمرة برفقة أبيه وزوجته لزيارتنا، حتى في أوقات ذهابي النادرة برفقة أبي إلى بيتهم لم نتقابل، دائماً كان مشغولاً بقراءة كتاب ما، أو خارج البيت لقضاء أمر ضروري، ذلك الإحساس اللطيف الذي ينتابك لإفلاتك من العقاب، هو ما كنت أحسه حينما لا أجده في البيت، لذلك عندما اقترح عليّ عم عبد العزيز الاطلاع

على الكتب التي بمكتبته والاستعانة بخيري كـــدليل ممتـــاز بوغـــتّ وفكرت في الرفض خاصة عندما أنبأني إحساســـي أن العجـــوزين الماكرين يدبران أمراً ما، ولكن بدا لي رفض المقترح اللطيف فجـــاً، فتظاهرت بالموافقة مع إرجاء الأمر لوقت آخر وقد عقدت النية على تجاهل الأمر خاصة بعد أن لمحت الابتسامات الماكرة الـــتي لمعـــت ثم خبت بينهما، وبالفعل تناسيت الأمر وتجاهلته و لم يأتِ عم عبد العزيز على ذكره مرة أخرى.

ما زلت أذكر بحثي المحموم عن كتـــاب (الأصـــل الأفريقـــي للحضارة وهم أم حقيقة) للكاتب السنغالي (الشيخ أنتا ديوب) كنت بحاجة إلى بعض متونه في مقال يتعلق بأصل الحضـــارة الإنســـانية، وعندما شارفت على اليأس وفي جلسة مسائية أخرى مع العجـــوزين الماكرين، شكوت لأبـــي من صعوبة الحصول على الكتـــاب، وأني بحثت عنه في الدار السودانية للكتب ودار عزة ومكتبة جامعة الخرطوم ولكن بلا جدوى، أظهرت تبرمي من تجاهل سفر هام مثـــل هـــذا الكتاب بواسطة النخبة السودانية المثقفة، عندما قال عم عبد العزيز أن الكتاب متوفر لديه بنسختيه الفرنسية والإنجليزية في مكتبته شـــعرت بسرور بالغ، ولكن عندما اقترح عليّ التواصل مع خـــيري خبـــت فرحتي كمصباح احترق، ظللت ليومين أقلب الفكرة في رأســـي، لا يوجد سبب مقنع لتجنب ملاقاة خيري، فانطباعي عنه هو انطبـــاع طفلة لم تتجاوز العاشرة، وأنا الآن صحفية يشار إليها بالبنان رغم أني لم أصل منتصف العشرينات بعد، غير أن ما يدبره العجوزان في الخفاء لا يهمني كثيراً، فأنا قادرة على حسم الأمر في أي وقت فليس مثلي من تتزوج زواج الصالونات هذا وإن كنت كثيراً ما أســـأل نفســـي

كيف سأتزوج، فقلبـــي لم يخفق لأحد من قبل، قصص زمـــيلاتي في الجامعة وتعلقهن بزملائهم كانت تشـــعرني بالســـذاجة، وبعـــد أن تخرجت انشغلت بالكتابة، ولكني كنت مدركة بأن زواجـــي أمـــر قدري كالموت وإن كنت لا أدري متى وكيفية حدوثه.

بعد أن أقنعت نفسي بأن خيري ليس وحشاً سيلتهمني حـــال مقابلتي له، اتصلت بعم عبد العزيز لأخبره برغبتي في زيارة مكتبتـــه، تذمر من استئذاني ورسميتي في التعامل، أخبرني أنه يعدني كابنته، وأن منزله مفتوح لي في أي وقت.

كان خيري ودوداً عندما تقابلنا، طاف بـــي في المكتبة وكأنـــه دليل سياحي، أدهشني تبويب الكتب وترتيبـــها وضـــخامة المكتبـــة وجمالها، للحظة تمنيت لو يغلق علي بابها لأظل برفقة هـــذه الكتـــب دهراً، وعندما وضع خيري الكتاب بنسختيه الإنجليزية والفرنسية على الطاولة، استفاض في الحديث عن أصل الإنسان، وحركـــة الهجـــرة البشرية بطول النيل، وتأثير النيل نفسه في تشكيل أول حضارة إنسانية عرفها التأريخ، ثم ناقشني في ما ورد في الكتاب حسب رؤية الكاتب وعن تداخل شعب كوش مـــع الحضـــارات المحيطـــة، الإغريقيـــة والفرعونية، حدثني عن بعانخي وتهارقا وعن القائد المبجـــل ميمـــون، تحدث عن ورود شعب كوش في التوراة، واستفاض في ذلك حـــتى ظننت أنني أتحدث إلى عالم متخصص في الأنثروبولوجي، ثم تشـــعب بنا الحديث في مجالات شتى، وكلما اســـتفاض في النقـــاش ينـــهض فيتناول كتاباً ما ويضعه على الطاولة أمامي حتى ازدحمت بالكتـــب، عندما وقع نظري على الساعة الحائطية فوجئت بمرور أكثـــر مـــن ساعتين دون أن أنتبه.

كانت فترة من الزمن شبيهة بالأحلام، لم أظـــن أن خـــيري حقيقي وموجود على وجه الأرض بدماثته وثقافته المتشعبة، ورؤيته المختلفة للأمور، اعتدت أن أتصل به هاتفياً، مكالمات قد تطول أو تقصر، ونلتقي في المكتبة في فترات متباعدة، النقاشات بيننا الـــتي تتشعب في شتى المجالات لم تكن تنقطع، أدهشتني موافقته الكاملة لرؤيتي المقاتلة ولدوري في الحياة، دعمه اللامتناهي لي للعمـــل في مجال الصحافة، تقبله الدائم لشطحاتي وخيالاتي التي تتـــداخل في عملية النقاشات التي تدور بيننا، ابتسامته المهذبة وهو يستمع إليّ في أناة وصبر، بل لو اعترفت بيني وبين نفسي بالحقيقة الكاملة فـــإن أكثر ما أعجبني فيه أنه لم يكن يعترض، كل ما أقولـــه أو أراه في نقاشاتنا يميل إليه بشكل سلس ويدعمه بالرؤى العميقة، فتضـــحي شطحاتي منطقية وخيالاتي واقعية، لكأن خيري وناصر لا يوجدان في العالم نفسه، كان يعزز من ثقتي في نفسي بشكل كبير، رغـــم درايتي الكاملة بأنه يفوقني ثقافة وذكاءً، ولكني أدركت أيضاً مدى هشاشة رؤيته للحياة.

خيري في كل أمر يعرض للنقاش كان يطرح رؤيته من خـــلال رؤية كاتب ما، أو عالم اجتماع ما، أو فيلسوف ما، أما خيري نفسه ورؤيته الخاصة فلم تكن موجودة، أحياناً كان ينتابني الإحساس بأنـــه مكتبة ناطقة، حتى عندما يعرج بنا الحديث عن هامش حياته الخاصة كنت لا أجد شيئاً مما اعتاد أن يعيشه الشباب، مشاعره كانت بتولاً بشكل كامل، لا يسافر خارج البلاد إلا للضرورة، لا ينام خـــارج المنزل بشكل مطلق، والأعجب من هذا أنه يعيش بلا أصدقاء، بالمعنى الحرفي للكلمة.

خيري توقفت حياته في الثامنة، بعد وفاة أمه مباشـــرة، كـــل حدث في حياته بعد ذلك كان مرتبطاً بشكل ما بوالدتـــه، يرتبـــك عندما يتطرق الحديث لسيرتها، بل قد يتعرق ويتأتئ أيضاً، حتى عندما طرح عليّ أمر الزواج طرحه بصورة مختلفة، رغم قناعتي بخطل الحب وسذاجة المشاعر إضافة لشخصية خيري الخجولة وطبيعته المترددة لم أكن أنتظر منه أن يظهر حبه لي بشكل رومانسي أو غير رومانســـي حتى، بل ربما لم أكن أنتظر أن يفكر فيّ كزوجة، بدا خيري زاهـــداً لأي تغيير في حياته، لا لاكتفائه ولكن تجنباً للمخاطرة، أو فلنقل أنـــه كان يرفض دخول أي شخص في حياته، يقيس كل أمر بمقياس الخطأ والصواب، يكره المغامرة لأنها قد تفضي للمجهول والمجهول يســـلمه للخطأ، والخطأ عنده لا يغتفر، ولأن رؤيتي للحياة مختلفـــة، فالحيـــاة وجدت لنخوضها لا لنعيش في هامشها، نقاتل من أجل أن ننجح ولا نستسلم، وهذا يبدو معاكساً لقناعاته التي تميل للأمان والبعـــد عـــن المغامرة، فلم يخطر ببالي أن يفكر في كأكثر من طارئ في حياتـــه وإن أفسح لي قليلاً فأنا لا أعدو أن أكون ابنة صديق أبيه، لذا فالأمر كان مفاجئاً لي، كما أحسست بالمهانة من الطريقة التي طرح بها الأمـــر، طرحه ببساطة كما يطرح أي موضوع للنقاش، كما أدهشتني أكثـــر طريقة التعبير التي استخدمها، نظر إليّ ثم ابتسم وقال بنبرته المعتادة:

- كوثر ما رأيك أن نتزوج؟ أظن أمي كانت سترضى عـــن زواجنا كثيراً، كما أن أبـــي معجب بك ويشجعني علـــى الارتباط بك دائماً.

صمت لوهلة ثم واصل نقاشه المعتاد، إحساس المهانة الذي انتابني تحول لبؤرة من الغضب بدأت في الاتساع حتى غطت ملامح وجهي،

ثم لم أستطع الاحتمال، فنهضت مستأذنة في الانصراف، كلما فكرت في طريقة طرحه للأمر كان إحساسي بالمهانة والخزي يكبر، وماذا لو لم أعجب عم عبد العزيز، وهب أن أمه كانت على قيد الحيـــاة و لم أرق لها، ما أغضبني أكثر هو عدم رفضي لعرضه المخزي مباشرة حين طرحه بتلك الصورة المهينة، ثم بررت ذلك بأني قد بوغت و لم أكـــن مهيأة لسماعه، وعندما مر أسبوع و لم أتصل به، اتصل بـــي بغـــرض الاطمئنان كما قال، ثم باغتني بالاعتذار عما قاله في حالة أنه قد سبب لي ضيقاً، وطالبني بأن أتناساه، هكذا ببساطة تنازل عني، في الحقيقـــة زاد غضبـــي وكدت أنفجر في وجهه ولكن بدلاً من ذلك اكتفيت بإنهاء المكالمة دون أن أستأذنه، وقررت قطع صلتي به نهائياً، ثم قمـــت بتنفيذ الفكرة في الأيام التالية.

ظننت أن الأمر سيكون سهلاً، ولكن كان ينتابني شعور بـــأن هنالك شيء ناقص، ربما بعض النقاشات التي لم نكملـــها، بعـــض متعلقاته من الكتب التي بحوزتي والتي تذكرني دائماً باتفاقنـــا علـــى الحديث حولها بعد فراغي من قراءتها، الصلة بين الناس لا تنشأ مـــن العدم ولا تنتهي بهذه البساطة، لم يبد في لحظة واحدة إصراره علـــيّ، دخلت عالمه ففتح لي الباب وعندما خرجت واربه خلفي في هـــدوء وتركني فريسة للاستنتاجات اللا متناهية عـــن الجـــدوى الحقيقيـــة للصلات الإنسانية، عندما أتذكر تلك الفترة وأربطها بدرايتي الكاملة لما يعتمل الآن داخل عقل خيري وطريقة تفكيره وتفنيده للأمور أشعر بمدى سذاجتي وقتها، بل في أوقات ضحكت من طريقـــة تفكـــيري المباشرة، التي لا تجيد وضع الاحتمالات.

استمرت القطيعة بيننا لما يزيد عن الشهر، لم يعـــاود الاتصـــال

بـــي، و لم يحاول مراجعتي في ما فعلته، ظننته غاضـــباً لأني قطعـــت الاتصال به بصورة غير مهذبة، ثم أقنعت نفســـي بتجـــاوز الأمـــر والوقوف عند هذا الحد، رغم تهذيبه الجم وثقافته الواسعة، ولكـــن لم تقابلني شخصية بغرابته، يعيش الحياة بشكل رسمي للغاية، لا يلطـــخ يديه بالطعام وهو يأكل، الشوكة والسكين بين أصابعه دائماً، وأنـــا مقتنعة تماماً أن مذاق الطعام يكون أجمل عندما نلعق أصابعنا، ربما لأن الأصابع أيضاً تتذوق ونحن لا ندري.

نبهتني سوسن أن المتبقي خمس دقائق لبدء البث، تأكدت مـــن هندامي وتبرجي، راجعت الأوراق للمرة الأخيرة وأنا ألمح محجوبـــاً يقف عند زاوية بعيدة من الاستديو متابعاً لكل ما يحدث في اهتمام.

(خيري)

(مسوّدة رواية طين لازب)

(الفصل الثاني)

قدري أن أظل وحيداً، أنا الآن في السابعة والثلاثين والأعـــوام الأخيرة أضافت إلى عمري أعواماً أخرى، من يـــراني يحســـبني في منتصف الأربعينات بحسبان أن أحدهم ينظر إليّ كإنسان، الجميـــع ينظرون إليّ كقمامة متحركة؛ الأسمال التي أرتديها، واللحية الكثـــة غير المهذبة وعيني المحمرتين على الدوام من قلة النوم. أولاد الشمس الذين يشاهونني في الأسمال والقذارة يتعاملون معي بعدائية، بـــالطبع العمر له دور كبير في هذا فأعمارهم تتأرجح بين الخامسة والخمسة

عشرة، كنت بالنسبة إليهم حالة غريبة كمتشرد في مثل هذا العمــــر فتعاملوا معي بفضول وحذر وكان هـــذا مرضـــياً بالنســـبة إليّ، الاستئناس بالناس في حده الأدنى، تحيتهم الفاترة، ضحكهم وغناؤهم في آخر الليل قبل أن أذهب في النوم، بل أحياناً حـــتى ســـخريتهم المبطنة مني كمتشرد في مثل هذا العمر كنت أتقبلها كنـــوع مـــن الأنس، حالة لا سلم ولا حرب استمرت بيننا لفترة طويلـــة حـــتى حدث ما يستدعي إشهارهم العداء تجاهي بشكل صريح. استيقظت ليلاً بغرض التبول، كانت ليلة صيفية حارة كالزيت، أولاد الشمس تناثرت أجسادهم بطول شط النيل بحثاً عن هبة نسيم تكسر حـــدة الحر، تجاوزت أجسادهم في يسر بحثاً عن مكان خـــالي لأبـــول، ثم ولجت بين أشجار الصفصاف والعشر التي تناثرت بطول الشـــط، فاجأني الصوت الصادر من ذات المكان، أعرف هذا الصوت جيداً، خفق قلبـــي وأنا أدنو من مصدره في بطء، أزحت أفرع الصفصاف التي تحول بيني وبينه ورأيت المشهد كاملاً، كانا صبيين لم يتجـــاوز أحدهما السابعة والآخر الخمسة عشرة عاماً، فار الدم في رأسي وأنا أشاهدهما معاً، انقضضت على أكبرهما بجسده النحيـــف وأشـــبعته ضرباً، كان يصرخ من وطء صفعاتي المتتالية في حين وقف الآخـــر ينظر إلينا في هلع، لم أعِ بنفسي إلا بعد أن أحاط بـــي عدد منـــهم محاولاً إيقافي عن ضرب أخيهم ولكني كنت أبعثـــرهم بغضبـــــي فتكاثروا عليّ حتى غلبوا غضبـــي، ما حيرني. حقاً هو دفاعهم عنه رغم علمهم بكل ما دار، لم أستوعب الأمر، ناقشتهم في انتـــهاك حقوق الطفل ثم انتبهت إلى خطل كلامي، فطفولتهم المنتهكة طوال حياتهم لن تساعدهم في استيعاب ما أقول، لهم قوانينهم الخاصة التي

ارتضوها لحياتهم والتي حاكمتني كمذنب وقضت بإبعادي عنهم.

فكرت وقتها في طين الجسد وطغيانه واستسلامهم لندائـــه، أرواحهم التي غطاها الطين فاختنقت ولكني صمت فاعوجاج هذه الدنيا لا يقيمه مشرد مثلي تغطيه أسمال باليه، لا يرى فيه الآخرون سوى الفشل والبؤس ولهم في ذلك كل الحق، ولكنهم لا يدركون حقاً أن القاع هو سقف السعادة، ومن أين لهم أن يدركوا هـــذا وهم يتشبثون بالجدران هروباً من الهاوية، يهتمـــون للأصـــدقاء، ويغرقون في تفاصيل الحياة الزوجية، يقلقون على مسار الوظيفـــة وتعليم الأولاد وقسط السيارة، يقتلهم طغيان الطين، وأنا تخلصت من كل هذا، أستيقظ صباحاً عندما تعلو ضجة الطريق، وعنـــدما أنام بعيداً داخل الحي لا توقظني إلا أشعة الشمس وهي تـــداعب وجهي.

أقلق من الحملات المكثفة التي تشنها الشرطة في الفترة الأخيرة. لم يقبضوا عليّ حتى الآن لحسن الحظ، ولا يعود الأمـــر لـــبراعتي أو يقظتي ولكن أظن أن وحدتي المجبر عليها تلعب دوراً في ذلك، مـــن متابعتي لتلك الحملات لاحظت أنهم يقصدون أماكن معينة، يكثـــر تجمع أولاد الشمس فيها، بنايات لم تكتمل بعد، مجـــاري الأمطـــار المكشوفة التي اتخذوها سكناً، كما أن بعضهم ينام عند منحدر الشط المائل بالقرب من النيل خاصة في ليالي الصيف التي يصبح الجو فيهـــا خانقاً، وأنا مقصياً من هذه المناطق بحكمهم النافذ فاتخذت من الفراغ بين صناديق القمامة وحافة الطريق مسكناً ولحسن حظي فإن الشرطة لا تأتي إلى هنا، ولكن الخطر ما زال قائماً في أي وقت وأي لحظة، قد يكون الآن وقد يحدث بعد عام، لا بأس هو قلق محتمل مقارنة بحياتي

الأولى، لو أعطيت الخيار بأن أرجع إليها مرة أخـــرى لاختـــرت ألا نلتقي وإن كان لا بد من اللقاء فلا جروح ولا ذكريات مرة، ليـــتني خرجت من الحب لا لي ولا عليّ ولكن هيهات.

دوامة التفكير تفضي بـــي إلى الأرق، نهضت من مكاني، ربمـــا أحتاج إلى بعض الإثارة، فتحت حقيبتي، أخرجت قطعة الفحم مـــن وسط عدة أشياء لا أدري لماذا أجمعها، ملمسها الناعم ورأسها المحدب الذي نحته في عناية يشعرني بالراحة، علقت الحقيبة علـــى كتفـــي، ومضيت قاطعاً الطريق على مهل، ما زالت بعض المحلات مفتوحـــة، وحركة السيارات لم تنقطع بعد من الطريق، شارع البلدية بأشـــجار اللبخ الكثيفة يكون أكثر هدوءاً في هذا الوقت من الليـــل، تناولـــت قطعة القماش الملقاة بجانب الطريق، تفوح منها رائحة البنزين، لا بـــد أن أحد أولاد الشمس قد استنشقها وألقاها، لا بـــأس ســـتفيدني في الرسم، فتحت حقيبتي ووضعتها في الجيب العلوي بعد أن طويتها في عناية، السوق العربـــي بسيارات الأمجاد المتناثرة هنا وهناك، أرجـــع أصحابها المقاعد للخلف قليلاً وذهبوا في غفوة قد تطول في انتظـــار راكب ما، بعضهم يجلس بجوار عمود الإنارة قاطعاً الليل بـــالأنس، وصلت إلى مطعم المتوكل، الوقت متأخر الآن، من الصعب الحصول على عشاء ولكن لا بأس من المحاولة، وقفت بالجانب الأيمـــن مـــن الباب، ينساب صوت محمد الأمين من المـــذياع العتيـــق، شـــعرت بقلبـــي يتسع كشراع يملأه الهواء، تلك الأمسيات التي تظل عالقـــة بالذاكرة فلا تفارقها، كان محمد الأمين يصدح بـــذات الشـــجون وتتمايل هي برأسها مع الإيقاع وأنا غارق في الرسم، بين يديها رواية لدستفوسكي تقرأ فيها أحياناً وتســـتخدمها كمروحـــة في أحـــايين

أخرى، الحديث بيننا كان متقطعاً ولكن بـــراح الصـــمت مـــزدحم بالحكايات، تلقي بعبارات وأحياناً كلمات مبتورة، وأنـــا غـــارق في الرسم فأرد بهمهمات مبهمة كانت تكتفي بها، محمد الأمين وقتـــها كان في تمام اللحن:

ادعينا وقلنا تاني ما حنشتاق في عمرنا...
وقبل ما تمر ليلة واحدة بحرارة الشوق غمرنا...
كم لهينا وقلنا ندفن الحب في سهرنا
الحياة صعبت علينا وبـــي أثر فقدك شعرنا
شفت كيف حبك حياتنا
إنت يا الحبك حياتنا
شفت كيف حبك بيعمل
يشغل الوجدان يعذب
وبرضو بتقول عني ظالمك
واني بتلاعب وبكذب

وضعت الرواية جانباً ثم دنت مني واحتوتني عاقدة يديها علـــى صدري ثم رددت مدندنة بشدو خافت:

- إنت يا الحبك حياتنا.

تمايلت معها ونحن نردد المقطع مع محمد الأمين، ثم أمســـكت بساعدي مديرة إياي كي أواجهها، رفعت رأسها كي تنظر في عيني، قرأت الخوف في عينيها، القلق الذي يحيل كل حلو علقمـــاً، قالـــت بصوت فيه الرجاء أكثر من التهديد.

- لو تركتني سأموت.

احتويتها بين ذراعي، وقلت هامساً:

- وهل أملك أن أفارقك، الحياة عندي أنت، سبب بهجتها وسعادها، حتى في أوقات انشغالي الكثيرة يكون وجودك معي سبباً في إعادة الاتزان لهذا العالم المجنون، لا تقلقي فأنا أحرص عليك أضعاف حرصك عليّ.

أذكر أنني كنت صادقاً وقتها كدعوات الطيبين وهي ترفع يديها للسماء، كالتفاؤل بالغد، كضحكة طفل غرير، صادقاً مثل كل الأشياء النقية الطاهرة التي لم يدنسها غبار الحياة، ولكن الدعوات قد تخيب والغد قد لا يأتي والطفل سيكبر وربما يصبح مجرماً، وكذلك كان حديثي معها ليلتها، رغم أنها ابتسمت في سعادة وهي تضع رأسها على صدري، العصفور لم يحلق في لوحتي ذاك المساء وإن كانت هنالك عصافير كثيرة قد حلقت في فضاء المرسم وأضاءت الليل بأجنحتها المضيئة.

قطع عليّ عم صالح حبل الذكريات وهو يمد إليّ كيساً ممتلئاً بالطعام، ابتسمت وأنا أشكره بصوت مهذب، عقد حاجبيه كالعادة وهو ينظر نحوي في تعجب، تدهشه طريقتي في الشكر، في أول الأمر كان يتعامل معي في شك وريبة، ثم قالها صراحة عندما تكرر قدومي له:

- إن كنت مضطراً لارتداء تلك الملابس لأداء عمل ما فلا بأس ولكني أوزع هذا الطعام للمحتاجين فقط.

لم أملك إلا أن ابتسم، شكرته مرة أخرى وأكدت له بأني لا أتبع إلى أي جهة أمنية، تظاهر بتصديقي وإن كان الشك لا يزال يبدو واضحاً عليه، نشأت بيننا صداقة حذرة، وبعد فترة اقترحت عليه تجديد لافتة المطعم، كنت أود أن أرد له جميل صنعه بأي طريقة،

طمأنته بأني أجيد الخط العربـــي وتصميم اللافتات، وأخبرته بـــالمواد التي أحتاجها، ثم أمضيت يومين كاملين في تصميها، زينتها بمختلـــف أنواع الأطباق الشهية وكتبت الاسم مستخدماً الخط الكـــوفي مـــع الكثير من الزخرفة، وعندما انتهيت كانت آية في الجمال، صفق بيديه مرحاً، واقترح عليّ أن نفتح معاً مكاناً لتصميم اللوحات وســـيتكفل هو بكل النفقات، ولكني رفضت، لم يستوعب رفضي، هل هنـــاك عاقل يفضل حياة التشرد على العمل والمال، ولكني لست عاقلاً يا عم صالح، لو كنته لما فرطت فيها.

تحسنت علاقتنا بعد ذلك، وفي ليال كنت أجلس معه لوقـــت متأخر وهو يجهز الطعام ليوم الغد، أحياناً أظل معه حـــتى يشقشـــق الصباح، حكى لي عن ابنته التي رحلت بسبب السرطان اللعين لاحقة بأمها التي سبقتها بعام واحد، حكى عن السكر الذي ينخر جســـده الممتلئ، كان مهموماً ولكنه كان مؤمناً بالله إيماناً عميقـــاً وصـــادقاً، يصلي كل ليلة حتى يشعر بالطمأنينة، يغيث الملهوف ويساعد المحتاج، كان العم صالح رجل صالحاً، وكان ثرثاراً وأنا كنت أستمع إليه وهو يتحدث لساعات، وكثيراً ما كان يسألني عن حياتي وعن الماضـــي، رغم صمتي الدائم فقد كان ينعتني بالأستاذ. عم صالح رجل بسيط لا يجيد القراءة والكتابة ولكنه اختصر فلسفة الحياة في العطـــاء فوجـــد نفسه، متيقناً بأنه بقدر ما سيعطي سيجد، وكان لسانه يلهج بالذكر ويديه تفيضان بالكرم وكان سعيداً.

استدرت منصرفاً فدعاني إلى الجلوس قليلاً ولكني اعتـــذرت، لم يلح عليّ، اعتاد على تقلباتي غير المفهومة، كنت أمسد قطعة الفحـــم بيدي وأنا أقطع شارع القصر مقترباً من سينما كلوزيوم، وصـــلتها،

أصحاب سيارات الأجرة كانوا يتجمعون في الشـــارع الجانبـــــي المجاور لشارع القصر، قطعته ثم استدرت لآتي من الخلــف، كـــان الشارع هنا هادئاً ومظلماً، فتحت كيس الطعام، تناولت قطعة الخبز وقضمت منها قضمة صغيرة ثم أعدتها لمكانها، أخرجت قطعة القماش ومسحت بها الجدار في رفق، تلمست الرأس المحدب لقطعة الفحـــم وتلفت حولي لأتأكد من خلو المكان، تدفقت الدماء في عروقي تنبض بالإثارة، الظلام كان دامساً ولكن من يهتم فالذاكرة مضيئة، وضعت قطعة الفحم على الجدار ثم شرعت في رسم المنقار، استدارة الـــرأس، العينان الصغيرتان، الجناحان المشرعان للفضاء، الأرض المتشققة، القط الذي يتربص خلف الشجرة قد أوشك على القفز، شجرة المانجو التي تنوء أغصانها بالثمار، أنياب القط الصغيرة الحادة وزغب العصـــفور الناعم الدقيق، انحرفت سيارة من الطريق الرئيسي باتجاهي، وضـــعت قطعة الفحم في جيبـــي، جلست على الأرض وكأنني أبول، توقفت السيارة، أنوارها القوية أغشت بصري للحظة، وصـــلني ضـــجيجهم وهم يقتربون مني، لم يكن هناك منفذ للهرب، نظرت للعصـــفور في حسرة، كان على وشك التحليق، نكست رأسي، توقعت أن تـــأتيني الصفعة في أي وقت فأغمضت عيني في انتظارها، اقتربت خطواتهم ثم علا صوت أحدهم وهو يخاطبني:

– ماذا تفعل هنا؟ هل تبول يا حمار.

يده كانت ثقيلة وهو يلكمني على ظهري، أمسك بيدي، آثـــار الفحم كانت بادية عليها، توقف للحظة وهو يتأملها ثم نظر للوحة في الجدار، لكمة أخرى بيده جعلتني أئن من ثقلها.

– مخرب ها أنت مخرب، شيوعي أليس كذلك؟

نظرت للعصفور في يأس ثم همست:

- حلق أيها العصفور، القط يتأهب لالتهامك.

انهالت علي الضربات من كل مكان، خبأت رأسي بين ساعدي، ثم رفعوني من الأرض وألقوا بي في مؤخرة السيارة.

قسم الشرطة في الليل لا يختلف عنه في النهار، بغيض في الحالين، دفعوني من مؤخرة السيارة في عنف، ثم أخذوني لداخل القسم، كانت المرة الأولى التي أدخل إلى هناك، لم أبالِ بالضجة ولكني وقفت ساكناً حيث أمرني العسكري، ابتعد عني ووقف يتحدث إلى آخر يفوقه رتبة، أصخت السمع ولكن لم أستطع سماعهم، ثم رجع إليّ يحمل ورقة ويطويها في شكل بوق.

- قل آه.

ظهرت عليّ علامات عدم الفهم، ولكنه كررها بصوت حازم وهو يشير لفوهة البوق، قلتها ثم وقفت أنتظر، شمها في سرعة ثم التفت للآخر هاتفاً:

- لا سكر.

حدق إليّ ملياً، ثم تناول الحقيبة التي ما زالت معلقة في كتفي رغم كل ما حدث، فتحها في إهمال، تناثرت أغراضي أمام عيني، قميصي الأبيض المشرب بالعرق، فرشاة الأسنان، قلم الرصاص، قطعة الفحم، قطعة صابون صغيرة، ملابس داخلية قديمة، فردة جورب واحدة، قصاصات ورقية مختلفة الأحجام، ملاءتي المثقوبة، ولكنه ما زال يعبث داخل الحقيبة، فتح جيب الحقيبة العلوي فسقطت قطعة القماش المشبعة بالبنزين والفحم فعبقت رائحتها في الفضاء، تناولها ثم أشار إلى العسكري الآخر هاتفاً:

- يبدو أنه مشرد فعلاً.

ثم عاد للنظر إليّ في دهشة ثم التفت إليه مرة أخرى مضيفاً:

- ولكنه لا يبدو من أولاد الشمس أظنه أبو الشمس.

انفجرا ضاحكين ثم التفت إليّ قائلاً:

- هيا يا أبو الشمس، ينتظرنا الكثير من العمل.

ناولني مكنسة ثم أخذني لفناء القسم، أشار بلامبالاة إلى الفناء الواسع قائلاً:

- نظفه جيداً.

تركني وانصرف، تناثرت الأوراق الجافة لأشجار النيم مع بذورها الصفراء بطول الفناء، كان يحتاج إلى عمل شاق، بدأت من حيث الإضاءة الخافتة عند آخر القسم، السور الحديدي القصير وبعدي عن العساكر أغراني بالهروب، قفزة واحدة وسأكون خارج القسم دون أن ينتبه إليّ أحدهم، نظرت إلى العساكر الممددين في أسرتهم عند منتصف الفناء وعلى الأرض يزدحم عدد من أولاد الشمس يصفقون وهم يرددون واحدة من الأغاني الهندية في حين وقف اثنان يرقصان في براعة، وضعت المكنسة جانباً، نظرت إلى السور وأنا أقيس المسافة التي تفصلني عنه ثم عدت أنظر إلى الحلقة التي تمور بالغناء والرقص، أعدت قياس المسافة التي تفصلني عن السور ثم اتخذت قراري.

الفصل الثالث

(رونق)

الاثنين الأول/سبتمبر/2013

التغيير الذي حدث في حياتي نفخ فيها روحاً جديدة، قد يكون الفضول هو دافعي الأول ولكن ما يدفعني الآن ليس الفضول فقط، خيري شخصية مختلفة عن جميع من عرفتهم، لا يمكن أن يوجد شخص بهذا القدر من التهذيب والأدب والحلم، العالم أكثر قبحاً ليسمح لمثل هؤلاء بأن يكونوا حقيقيين، العالم يشبه قسوة أبي وأنانية أمي وكره عمتي، أين الوجه المظلم لخيري؟ الكاتب الناجح، ذو الأخلاق العالية، الزوجة الجميلة الناجحة، أمثال خيري يخلون بالتوازن الذي خبرته للحياة، لا استثناءات في الواقع، لكل منا وجه مظلم، خيري فقط أجاد إخفاءه عني وعن الجميع، عندما أجده سيعود الاتزان لحياتي، أما أمي، فتأتي ثانية، بعد أن أضحيت ثالثة أو رابعة أو ربما أخيرة في حياتها، الفضول اتجاه ما فعلته يتضاءل أمام حيرتي اتجاه خيري كلما علمت عنه شيئاً. نعم الصحف لا تنشر سوى الأخبار الجيدة، ولكن السيئ نفّاذ الرائحة أيضاً، لا حديث حوله عن سرقات أدبية أو غرور بسبب النجاح أو حتى علاقات نسائية، نعم زوجته فاتنة ولكن الاعتياد يجرف الفتنة كأن لم تكن، الرجال بطبعهم ميالون إلى المغامرة والبحث عن الأخرى، الإحساس

بأنهم مازالوا مرغوبين يعزز من ثقتهم اتجاه نفسهم، وخيري ليس استثناء بالتأكيد.

قلبت البطاقة التي منحتني إياها هبة بين يدي، نظرت إلى الساعة في يدي للمرة العاشرة، تبقى على مغادرتها أقل من عشر دقائق، ستخرج برفقة الولدين لإيصالهما للمدرسة ولكنه عادة لا يخرج برفقتهم إلا في يومي الأحد والأربعاء لإلقاء محاضراته الجامعية ثم يعود باكراً قبل عودتها بما يفوق الساعتين.

لا يوجد مجال للفشل، التردد الذي أشعر به لا بد أنه بسبب الإثارة، فأنا مستثارة بشكل كامل، لا يشبه الأمر انتظاري للنتيجة في الجامعة سابقاً ولا حتى لهفتي العجولة لمعرفة مصير علاقة ناشئة كنت أقر دائماً بيني وبين نفسي بأنها آيلة للفشل، الأمر يبدو جدياً، أنا الآن على وشك الدخول في حياة شخص ناضج، عرك الحياة وعركته، لو أن الدنيا كانت أكثر كرماً لربما كان أبي فهو يكبرني بما لا يقل عن خمسة وعشرين عاماً، كما أنه التقى بأمي في منعرج من منعرجات حياته وحكت له قصتها، لماذا هو بالذات؟ هل أخبرته بقصتها كي يكتبها، هل كانت تريد أن تدافع عن نفسها بإشهار حكايتها، تريد من الآخرين إيجاد عذر لما فعلته، هل كان دافعها هو البحث عن التعاطف؟ أم أنهما كانا صديقين، بل ربما عشيقين فمن يدري، بل ربما كان هو العشيق الفار معها نفسه فهذه الدنيا عجيبة وأحوالها أغرب من الخيال.

تأكدت من وجود الكتاب في حقيبتي، أحكمت وضع النظارة الشمسية في وجهي وكأني أحتمي بها، البوابة الخارجية كانت مواربة، دفعتها في حرص، رصفت الأرضية بالبلاط الأبيض

والأسود فبدت كرقعة شطرنج عملاقة، للحظة انتابني الإحســـاس بأنني بيدق يرتدي ثوب الوزير، الممر المتفرع من الأرضية الخارجية كان لامعاً ونظيفاً والأبواب الخشبية بلونها البني المحروق اصـــطفت بطول الممر موحية بالفخامة، عبرت الممر في مهـــل وأنـــا أقـــرأ اللافتات النحاسية المذهبة التي وضعت على الأبواب في حـــرص، خلعت النظارة وأنا أدنو بوجهي من اللافتة الصغيرة، أ/خيري عبد العزيز، جذبت نفساً عميقاً، مسحت بيدي على صدري لأتأكـــد من هندامي، رسمت ابتسامة ودودة على وجهي، ثم قرعت الجرس الذي تسلل صوته الموسيقي من وراء الباب المغلق خارقـــاً هـــدوء المكان، وقفت مترقبة، مرت نصف دقيقة و لم يفتح الباب، قرعت الجرس مرة أخرى ثم وقفت أنتظر، كفاي المتشـــابكتان ونظـــري المعلق بالباب وابتسامتي المعلقة في شفتي، كل هذا يؤكد عزمي على المواصلة حتى النهاية، نصف دقيقة أخرى مرت في بطء، قرعـــت الجرس في إلحاح، ثم رجعت خطوة للخلف، لم آت لأرجع خاوية الوفاض، مرت نصف دقيقة أخرى، شعرت بالإنهاك من ابتسامتي، فتركتها تذبل وما زالت عيناي معلقتان بالباب، ثم دنـــوت مـــرة أخرى وقرعت الجرس عدة مرات متتالية وكأنني طفـــل عابـــث، تداعت ابتسامتي كرسم آيل للسقوط، تراجعت خطوتين للخلف ثم تنهدت في يأس وتعلقت عيناي بالباب للمرة الأخيرة ثم ابتعدت بخطوات بطيئة وأنا أطوي الممر اللامع مغلفة بالإحباط، وعنـــدما وصلت لحافة رقعة الشطرنج العملاقة سمعت الباب يفتح فالتفت في لهفة، كان خيري يمد عنقه من هناك متسائلاً تسبقه نظارته الطبيـــة التي تغطي عينيه الطيبتين.

بخطوات متعثرة توجهت نحوه تسبقني كلمات الاعتذار وأنا أمد يدي مصافحة إياه محاولة التهرب من عينيه المتسائلتين، تخطيطي المسبق ذهب أدراج الرياح وأنا منكبة أبحث في ارتباك عن البطاقة التي أخذتها من هبة، لا بد أن ساعديه معقودان أمام صدره ويحاول مداراة مللـه وفضوله بابتسامته المهذبة، أخيراً عثرت عليها فرفعتها أمـام وجهـه ولكن عندما رفعت نظري نحوه لم يكن ينظر إلى البطاقـة، عينـاه المختبئتان خلف الإطار الزجاجي كانتا تحدقان إليّ، تخترقاني، تعبثـان داخلي في يسر، العينان اللتان كانتا تجوسان تحـت جلـدي كانتـا توخزان بلا ريب، العينان الجريئتان تسببتا في خفقان قلبـي وجفاف حلقي وارتباكي المتزايد، أنا رونق اللامبالية، المستهترة الباردة كمـا يقول الجميع، كانت عينا هذا الكهل الطيبتان تشـعرانني بالـدفء، حرارة الحياة التي تسري في جسدي سريان الكهرباء، عينـاه اللتـان تداعبان وجهي في رفق، تمسحان على جبيني وتربتان على خـدي، وتمسان شفتي فتنبتان أزهاراً وسنابل، انتفضت محاولـة الاسـتيقاظ، تنحنحت في حرج ثم قلت:

- معك الصحفية هبة الطيب.

أشرت للبطاقة الممدودة أمام وجهه وأنا أحاول الابتسام.

ارتد إلى الخلف وكأنه قد تفاجأ، عدل من نظارتـه في ارتبـاك ظاهر، عادت عيناه طيبتان خجولتين ومرتبكتين، مـد يـده وهـو يصافحني في حرج، كان رجلاً عادياً، كما ينبغي لرجل في الخمسين أن يكونه، بجلبابه المنزلي، ونظارته السميكة وشعره الذي يتقاتل الصلع والشيب عليه في ضراوة، كأن الثواني الماضية لم تكن ولم توجد، عاد لتعديل نظارته تارة أخرى قائلاً:

- مرحباً بك، كيف أستطيع أن أخدمك.

وجدت نفسي أشير مرة أخرى إلى البطاقة المشرعة أمامه وكأني أحتمي بها.

- كنا نود أن نعد ملفاً خاصاً عنك يمتد لعدة حلقات مفصلاً تجربتك الروائية الثرية.

ظهر عليه التردد وهو ينظر إلى الداخل في قلق، ثم بدا عليه أنه قد حسم أمره فأشار إليّ بالدخول مشرعاً يده ومفسحاً لي الطريق، كنت أعلم أن الشقة خالية إلا منه ولكن مما سأخشى، مرحباً بالشيطان ليكون ثالثنا ويزيد من جلستنا إثارة وحياة.

الصالة الواسعة بطلائها الأزرق الهادئ كانت تبدو كبحيرة صغيرة وقد تناثرت قطع الأثاث وكأنها تطفو على سطحها، تقدمني وهو يشير إلى الصالون فتبعته وما زالت عيناي معلقتين بالصالة، الصالون بأثاثه المتزمت بدا وكأنه في مكان آخر لا علاقة له بالأزرق المنساب في الخارج، الأثاث بألوانه الغامقة وفخامته الواضحة، السجاد الفارسي الفاخر الذي فرش في الأرضية، ثم مكتبه محتلاً ركناً يطل على النافذة المشرعة مغرقة إياه في الضوء فبدا غير حقيقي أو مضاف إلى المشهد ككل وليس جزءاً منه، جلست على حافة الكرسي بجوار الباب، غاب لفترة بسيطة ثم عاد وقد انزاح عنه ثوب النعاس وبدا أكثر انتعاشاً وأصغر سناً، جلس مواجهاً لي، ابتسامته الرصينة تحاصرني كابتسامة مصلح ديني.

اعتدلت في جلستي، كنت مثل قربة منتفخة، لو وخزني لانفجرت، حاولت أن أجعل نبرة صوتي طبيعية.

- خيري عبد العزيز، روائي ومحاضر في الجامعة، هل الكتابة قدرك أم اختيار.
- لطالما تعاملت مع الكتابة على أنها أمر قدري لا فرار منه...

صوته العميق المطمئن مثل مراكب شراعية تتهادى في صباح صيفي دافئ، نبرته الهادئة نورس أبيض ينشر جناحيه في فضائي فيشعرني بالأمان.

- ليس هناك مناص من الإقرار بأن الاختيار لم يكن عبثياً...

المكتب المنحاز للضوء دُلقت بقايا الكتابة كالقهوة عليه، الأوراق الصغيرة المتناثرة، جهاز الحاسوب المائل إلى اليمين قليلاً، الكرسي المستند إلى الجدار، ربما لم يكن نائماً، ما زال يحلب من حكايات الناس حبراً يسكبه على الورق.

- أستاذة هبة أستاذة هبة، أين المسجل؟ كما أنك لا تدونين على الورق.

يا لغبائي، لم أحضر مسجلاً حتى، أي صحفية ساذجة أنا، اندفعت كالمجنونة أبحث داخل حقيبتي عن قلم وورقة منسيتان، أحمر الشفاه، قلم الكحل، رواية إيلات تحتل نصف مساحة الحقيبة، أخرجتها ملقية بها على الطاولة ومواصلة بحثي اليائس، تجمد للحظة، ثم مد يداً مرتعدة متناولاً إياها، عادت نفس النظرة الملتاعة لتلمع في عينيه، لم يفتني ارتعاش أصابعه وهي تمر على الغلاف في رقة، تقليبه لصفحاتها دون أن يقرأ، ثم أخيراً استكان في الغلاف الأخير، الغلاف الذي تناثرت فيه خصل من الشعر الحريري متسللة من الغلاف

الرئيسي مالئة المساحة الفارغة تحت نبذة التعريف الخاصة بالكاتـــب، تطايرت الخصل من الغلاف وكادت تعبر لما بين رموشه، خُيل لي أن عينيه طرفتا طرفات عديدة متتابعة وسريعة، بدا لي وكأنـــه يقـــاوم دمعتين تقاتلان للفرار بلا هوادة، ثم بعد برهة من الصمت الموشـــح بالكلام وضع الرواية على المنضدة أمامـــه بعنايـــة أم رؤوم، راودني إحساس حقيقي بأني في خضم معركة محتدمة.

- من أنت؟

باغتتني عبارته كطلقة طائشة، تلك الأسئلة التي تحتمـــل معـــاني شتى، كل معنى سيحملني لطريق جديد واحتمال نهاية مختلفة، بحثـــت عن كلمات مناسبة لأنطق بها، التساؤل الصارخ في عينيـــه، الشـــك الذي لا يجتهد في مواراته ينبئني بفشلي، لملمت أغراضـــي المبعثـــرة وخطفت الرواية عن الطاولة ثم نهضت في ارتباك متعللـــة بنســـياني للمسجل، اكتفى بالصمت وتركني أشق طريقي نحو بحيرته الزرقاء ثم لوحة الشطرنج وأنا لا أكاد أبصر أمامي، وعندما خرجت إلى الطريق كان نبض قلبـــي يدوي كطبل ضخم، لماذا هربت كتلميذة ساذجة، قد يكون نسيان صحفية لمسجلتها أمر غريب ولكن هل يســـتدعي ذلك فراري من أمامه، حرير روايته قيدني كدودة قز عمياء وبدلاً من أن أدنو منه خطوة بعدت عنه لألف ميل أو يزيد، إيـــلات الســـؤال الذي أجهض جنين إجابته قبل أن يولد، وخيري الذي فقدته قبل أن أجده، إحساس قاتل بالوحدة يخنقني، حتى هبة صديقتي ليست صدراً يصلح للبوح، غرفتي العابقة برائحة الدخان أتخيلها تضيق بـــــي الآن ولا تصلح كملجأ وملاذ.

(سليم الصوفي)

يردد دريابـــي دائماً أن المال هو سراب الحياة الـــذي ســـنظل نركض خلفه حتى آخر العمر ثم لا نجني منه ســـوى ظمـــأ الخيبـــة والحسرة، يرتدي هذا العجوز الخرف ثوب الحكمة رغـــم حماقتـــه الظاهرة، فهو لم يسجن إلا بسبب المال، سألته ساخراً هل ارتكـــب جريمة السرقة بغرض التسلية أم ماذا، تظاهر بالضيق واتهمـــني بقلـــة الذوق والفظاظة، آخر ما ينقصني مدع للحكمة في زنزانتي، لولا المال لافترسني مصباح مثل بيضة مسلوقة دون أن يتجشـــأ، حمـــداً لله أن الدنيا ما زال بها أغبياء مثل وجه الضفدع ينفقون المال على حماقاتهم، والحمد لله أنني كنت واحداً من هذه الحماقات التي يظن أنها تستحق الإنفاق، سأنتظر زيارته القادمة وأحاول أن أستزيد منه فهذه الحفـــرة تستنفذ المال كعاهرة متمرسة، لم يبق في جيبـــي سوى جنيهات لن تفي بحاجتي حتى صباح الغد على الأكثر. على العموم الســـجن الآن أفضل من السابق بعد أن أعفاني المدير من تنظيف دورات المياه، كما أنني أحظى بتحية صباحية خاصة من مصباح دوناً عن بقيـــة هـــذه البهائم التي تشاركني المكان، أنا أعلم أن رضا مصباح عني مرهون بما يناله مقابل أي خدمة تافهة يقوم بها وأحياناً بدون أي خدمة بل لمجرد تجنب غضبه واكتساب رضاه الغالي.

- مسجون سليم الصوفي لديك زيارة.

تأكدت من نعومة خدي، أحاول أن أكون مهندماً وأنا ذاهـــب لمقابلتها، أدرك أن محاولتي بائسة ولكنها تكره اللحية بشكل خـــاص لذا حرصت على حلاقتها اليوم صباحاً، كنت مضـــطراً لاســـتخدام

دريابـــي كمرآة بعد أن تسبب في تحطم مرآتنا الصغيرة قبل ليلـــتين محاولاً إقناعها بأنه ما زال شاباً و لم تنل منه سنوات السجن إلا قليلاً.

نظرة اللهفة التي استقبلتني بها وهي تقف منتصبة قبل وصولي لها تنبئني بثبات حبها وعظم اشتياقها، وئام فرس جموح لا تكـــف عـــن الصهيل، صدرها يعلو ويهبط كما في الأيام الخوالي، حالتـــها هـــذه كانت تفضي بنا للحظات لا تطال في مثل هـــذا المكـــان المـــزدحم بالأوباش الذين لا يعبرون عن اشتياقهم إلا بالصياح واللعاب المتطاير.

- يا ربـــي لقد نحفت كثيراً.

تباً لك و كيف لا أنحف وأنت تحرميني حتى من مصروف تلميذ صغير.

- أنا بخير لا تقلقي.

- لست بخير، لا بد أن الطعام سيء يا صغيري.

لا بالعكس هنا الطعام يقدم بمستوى فنـــدقي، بوفيـــه مفتـــوح يا عزيزتي.

- ليس الطعام ولكنه الندم على ما حدث وبعدك الذي تعلمين أثره عليه.

تفاديت كفيها اللتين تسعيان لاحتضان وجهي في صعوبة، هذه المجنونة تظننا في غرفة النوم.

- ليس الذنب ذنبك كي تندم عليه، كل من يعرف أمك كان يعلم أن هذا سيكون مصيرها في كل حال.

تنهدت بعمق.

- ولكنها تظل أمي يا وئام وليست أم أحد آخـــر، أخـــذني شيطان الغضب والغبن، لو أنك لم تعاندي وتمنحـــيني مـــا

أريده ما حدث كل هذا.

لا تتوقفي عن فرك يديك وتلفتك القلق، هل تظنين أني سأعاني وحدي.

- ألا تمل من تكرار هذا الكلام، ما أن تملك مالاً بين يـــديك حتى تأتي بمصيبة، كنت أحاول أن أحافظ عليك بحرمانـــك من المال.
- لا بأس يا وئام لا بأس، لا فائدة من كل هذا الآن.
- كيف هو الحال في السجن؟
- وكيف سيكون الحال، قذارة وضعة وسوء حال.

يدك التي تتسلل إلى يدي هذا ليس وقتها، سحبت يدي بهدوء.

- وجودي هنا بدون نقود يجعل من حياتي أكثر صعوبة، بـــل مستحيلة.
- سليم لقد حسمنا هذه النقطة مسبقاً، لا أحب أن أخـــوض فيها مرة أخرى.
- ولكن هنا لا توجد نساء، لا داعي لخوفك المعتاد.
- ولو.
- ولو ماذا؟ لا أستطيع الذهاب إلى دورة المياه من دون نقود، ألا تفهمين.
- لا ترفع صوتك هل نسيت أين نحن.
- ألا يكفيك ما ألاقيه من عقاب هنا، حرمانك لي من المـــال يحيل المكان إلى جحيم.

نعم نظرة التردد هذه هي ما أبحث عنه.

- لا لا، أعلم أني سأندم لو أعطيتك مالاً.

- هل ستغادرين من دون أن تعطيني مالاً حقاً.

يا لصمتك وعنادك الغبـــي، وقفت مكرهاً كي أودعها.

- وهل أنتظر من قاسية مثلك سوى هذا، فلتحترقـــي أنـــت ومالك لست بحاجة إليكما.

تباً لغضبـــي الذي لا أملك أن أتحكم فيه.

- لو كنت قاسية ما كنت هنا الآن.

وماذا سيفيدني قدومك إن كنت محروماً منك ومن مالك اللعين.

لا تبكي الآن، بدلاً من ذلك أعطني ولو القليـــل مـــن المـــال وسيكون كلانا سعيداً.

حسناً الصراع الذي يحتدم في داخلها إن لم يفدني فما جـــدواه، ظللت منتصباً في ترقب وهي غارقة بين خيارين ولم تلبث أن انتصبت واقفة.

- كلما أعطيتك فرصة ندمت عليها بعد ذلك، تستطيع تدبر أمرك أنا أثق في ذلك.

تناولت حقيبتها من الطاولة، ثم أدبرت وأنا أصب عليها اللعنات في سري، تعثرت بجوار الباب حتى كادت أن تنكفئ على وجههـــا، ولكن استعادت توازنها في صعوبة ثم التفتت نحـــوي وبـــدا وكأنهـــا تذكرت شيئاً كان غائباً عنها، عادت بخطوات مضطربة، اختلســـت النظر إليّ من جانب وجهها ثم تلعثمت قائلة:

- لقد عينت حاتم مكانك.

لوحت بيديها في وجهي حتى تمنعني من الحديث.

- لا تنفعل أنت تدرك أنه يجيد عمله جيداً، لا تدع خيالـــك يذهب بك بعيداً كالمعتاد.

- هو من نصحك بمنع النقود عني.

خرج صوتي هادئاً بعكس المعتاد.

نكست رأسها دلالة على صحة كلامي ثم قالت بصوتها الحاد:

- أنت تعلم أن هذا هو رأيي منذ البداية، ليس لحاتم دخل في الأمر، كلما حصلت على نقود تحدث مصيبة.
- لا أريد حاتم في الشركة.
- وهل ستديرها أنت من السجن؟ ها أجبني، أنت تعلم كرهي العمل، ثم أنك تدرك الوضع السيئ للشركة بعد صفقتنا الأخيرة التي ما زلنا نعاني من آثارها، صدقني حاتم هو الشخص المناسب من سيديرها.
- عم عبد الكريم.
- عم عبد الكريم يصلح لإدارتها إن غبت أسبوعاً أو شهراً على الأكثر، يسير الأعمال الضرورية ولكنها عشرة أعوام.

وهذا ما أخشاه، حاتم لن يكتفي بوراثة منصبي، بل سيرث الجمل بما حمل، أنوثتها التي تتفجر من تحت ثيابها، الفيلا الجميلة، والمال، طالما ظننت أنه يتحين الفرصة، لم ييأس مطلقاً، وها أنا ذا أقدمها له على طبق من ذهب.

تحركت مبتعداً في صمت و لم ألتفت لندائها الطفولي اللحوح.

عندما تبدأ في تقديم التنازلات فلن تستطيع رفع صوتك بالمطالب، تلك صحراء يفيض رملها على رملها، حين يأكل العطش قلبك فإن ماء البحر لا يرويك، يجتاحك ملحه فيزيدك ظمأً، وإلا

فاض ماؤه فأغرقك وعطشك ولا يبالي، العلاقات المعطوبة هي وحل الرمل وملح البحر أو هي كلاهما بل أشد قسوة، عندما تصر وئـــام على استمرار صلتها بصديق طفولتها وأغض أنا الطرف فماذا تبقـــى بعد ذلك، تقول إن صلتها به تربطها بالماضي، بأمها وأبيهـــا اللـــذين رحلا باكراً، وأنا ابن لعنة الماضي، أندفع إلى الأمام هروباً منه وهـــي تتشبث به متعللة بصديق طفولتها.

حاتم كان اليد المعطوبة في علاقتي بوئام، أو الرجل المعطوبـــة أو العين المعطوبة، حاتم أو ما تراه وئام في حاتم هو الذي جعل حياتنـــا تحجل بساق واحدة، اعتدت على غض الطرف والتظـــاهر بعـــدم الملاحظة وهو ثالثنا في أوقات السعادة والحزن، النجاح والانكســـار، موجود دائماً حتى أنني في مرة قلت ساخراً، أخشـــى أن أجـــده في خزانة الملابس ولكن لم تعجبها دعابتي، تصر وئام أن حاتم هو أخوها ولكن الأخ لا ينظر إلى أخته بتلك الطريقة، الاشتهاء المدفون في عينيه يصر على الوثوب من مدفنه بين الفينة والأخـــرى فيفضـــح غطـــاء الأخوية ويترك ما دونه عارياً كشمس الظهيرة. عندما ألمح تتجاهل، وعندما أصرح تغضب، وعندما أثور تقاطع، فامتثلـــت وغضضـــت الطرف دافناً نفسي في العمل وقناني الخمر وأحضان النساء، كنت قد عاهدتها بأن أكون مستقيماً بعد زواجنا ولكني لم أحسب حســـاب صديقها الذي سيقطن في تفاصيل حياتنا مثل العمل الرضي، عنـــدما عرفتني به أول مرة في بداية علاقتنا ظننته طارئاً، ثم اكتشفت لاحقـــاً أنه سرطان تغلغل في جسد حياتنا عميقاً وها هو الآن يطعنها بسكين صدئة دون رحمة، وداعاً طويلاً يا وئام.

(كوثر)

حينما طلب الأستاذ محي الدين الاجتماع بـــي في مكتبه كنت خالية الذهن عن سبب استدعائه، كان نادراً ما يرى في أروقة القنـــاة ومكتبه مغلق معظم أيام السنة، حتى في أوقات وجوده المتباعدة كان يكتفي بالتقارير التي يسلمها له محجوب، لذلك كان طلبـــه مقـــابلتي بشكل منفرد مثيراً للتساؤل، المرة الوحيدة التي تم فيها استدعاء أحـــد إلى مقابلته كان العم زمراوي، وقتها كان قد مضى عامـــان علـــى التحاقي بالقناة، الحدث كان عظيماً ومفاجئاً، أشعل نار الفضول بين الطاقم وخرجت عشرات التخمينات محاولة استنتاج ســـبب هـــذا الاستدعاء ولكن وحتى هذه اللحظة لم يعلم أحد مـــا دار في هـــذه المقابلة. التزم عم زمراوي الصمت وضرب حولها ستاراً من الســـرية زادت من فضول الطاقم وخلقت مناخاً أدى لتفـــريخ كـــم مـــن الإشاعات حول الأمر ولكن إصرار عم زمـــراوي علـــى الصـــمت ومقابلته لكل هذه الإشاعات بابتسامة ساخرة من دون تعليق جعلها تموت في مهدها.

كانت مقابلة مالك القناة حدث لا يحدث كل يـــوم لـــذلك وُضعت في بؤرة الضوء نفسها التي عانى منها عم زمـــراوي، عنـــدما كنت أنظر إلى محجوب كنت أدرك أنه ملم بسبب هذا الاســـتدعاء رغم تظاهره بعكس ذلك، العلاقة بينهما عميقة ومتجذرة وضاربة في القدم، وسمعت أنهما أصدقاء منذ عهد الطفولة جمعهمـــا ذات الحـــي والمدرسة والشارع وان كان الناظر إليهما يرى الفرق الشاسع بـــين محي الدين برأسه الأصلع وكرشه المتدلية ولهاثه الذي يســـبقه علـــى

الدوام واتفاق جميع طاقم القناة على طيبته وحسن تعامله رغـــم قلـــة احتكاكه بهم وبين محجوب بقوامه الممشـــوق ووســـامته الظـــاهرة وكاريزميته القوية وإجماع الطاقم على خشيته واحترامـــه في نفـــس الوقت، بل حقيقة كان محجوب يبدو أصغر سناً منه وأكثر حيوية.

قلت إن محجوب كان مدركاً للسبب الذي يدفع أ/محي الدين لطلب مقابلتي، قرأت هذا في نظراته المختلسة إليّ أوقات انشـــغالي، الكلام المسجون وراء شفتيه المزمومتين على الدوام، ولكني لم أجرؤ على سؤاله، طوال تلك السنوات وأنا أحاول تجنبه، في البداية كنت أبرر فعلي بتجنب الصدام، محجوب دكتاتور بطبعه وأنـــا معتـــدة برأيي، بالطبع هو مديري في القناة ولكني اكتسبت مساحتي الخاصة رغماً عن سلطته اللامحدودة، معظم النجاحات هنا مرتبطة بـــــي، برنامج (ضيف المساء) الحواري الناجح الذي قدمتـــه يعتـــبر مـــن كلاسيكيات القناة، طوال تلك السنوات استضفت كماً هائلاً مـــن الأدباء والشعراء والصحفيين المخضرمين والفنـــانين وزمـــرة مـــن السياسيين ورئيس جمهورية سابق، بل وحتى الرئيس الحالي. تم تحقيق نسب مشاهدة عالية في أوقات بث الحلقات، أدركت جيـــداً أننـــا الهرمان في القناة والأهرام لا تلتقي أو تدنو بعضها من بعض. بمرور الزمن أضحيت أكثر حكمة في إدارة الحرب الباردة بيننـــا دون أن يشكل ذلك ضغطاً إضافياً عليّ، كانت تكفيني معاناتي الصـــامتة في البيت، إدراكي لها أيضاً جعلني أدرك كيفية التعامل معها، لســـت مؤمنة بمبدأ التنازل عن حق من أجل الحصول علـــى آخـــر لكـــن الاهتراء الذي يبطن علاقتي بخيري رسم خطوطه منذ ليلتنا الأولى ثم مازال ينخر فيها إلى الآن ولكن صمتي المكين جعلني أصل إلى ما أنا

عليه حالياً وإن كانت الأسئلة تؤرقني دائماً، لماذا حدث كل هــذا ولماذا أنا بالذات؟ ما زلت أذكر كل حرف دار بيننا في تلك الليلة، ذلك الحب الذي يتوكأ على ساقين اثنين سليمتين، لم يكــن حبــاً أعرج أو كسيحاً فماذا حدث؟

عندما فاجأني خيري بزيارته المفاجئة في البيت بعــد مُضــي شهرين دون أن نلتقي، أتت نهال لتخبرني بأن عم عبد العزيز يسأل عني وهو في الحديقة بصحبة أبــي، وقتها لم يــدر في خلــدي أن خيري برفقتهم، كنت أرتدي تنوره منزلية بسيطة وشعري مبعثــر، عم عبد العزيز في مقام والدي ومعتاد على رؤيتي دون حاجــة إلى التزويق لمقابلته، ولو أني أستطيع رؤيتهم من بعيد لما ذهبت، لــيس بسبب مظهري فقط ولكني كنت قد سلمت أيضاً بأنه لا يناســبني كزوج، كما أن إصرار أبــي على استقبال ضــيوفه في المعشــبة الصغيرة التي تحفها أشجار الجهنمية خالقةً حاجزاً يمنعني من رؤيــة ضيوفه إلا حين أقتحم عزلتهم جعلني أتفاجأ بنفسي وجهاً لوجه مع خيري، ارتبكت من وقع المفاجأة وأنا لا أحب أن أبدو كصــغيرة ساذجة، ولكن سرعان ما تمالكت نفسي وقررت تجاهل وجــوده وتعمدت أن أغرق عم عبد العزيز في المزاح والضحك، ولكن هذا لم يستمر طويلاً فقد استأذن هو وأبــي بحجة الذهاب إلى المسجد وغادرا المكان، شعرت بالدم يتصاعد إلى رأسي، لا بــد وأن كــل شيء قد تم طبخه على نار هادئة وأنا لا أحب ذلك، لا أحــب أن أُقاد دون مشورة ولكن لا بأس ما زال الأمر في يــدي، ابتســامته الخجولة وارتباكه الظاهر لم يشفعا له عندي لــذا فقــد تحفــزت للانقضاض عليه حالما يبدأ أي تلميح حول الأمر.

– هل تظنينه أحمق؟

أشار بيده إلى أحد فروع الجهنمية، كان زوج منهما يتحاوران هناك، أو هكذا بدا لي، أحدهما حط على أحد فروع الجهنمية فيما ظل الآخر يرفرف حوله في حلقات متتابعة، خالقاً دوائر لامتناهية من الألوان حوله وعاكسة الأضواء بطريقة ساحرة، رددت عليه في عناد:

– لِمَ لا تكون حمقاء وليس أحمق.

– لأن ذكر الداردوف[1] يظل يدور حول أنثاه طوال حياته القصيرة خالقاً هذا العالم الساحر حولها حتى تعتاده ولا تستطيع الاستغناء عنه.

البؤرة الصغيرة المضيئة حولها كانت معزولة عن المكان بحلقة خفية، عالم معزول داخل العالم الكبير، وكانت تبدو مكتفية وراضية بالفعل.

– أنا مثل الداردوف بل وأكثر.

عندما نظرت إلى عينيه شعرت بالصدق، أو ربما كنت أرغب في تصديقه، لست متأكدة الآن ولكني وجدت دفاعاتي تنهار واحدة تلو الأخرى، كانت أمسية لا تتكرر، خيري كان ساحراً ولطيفاً مثل حلم جميل، لم أنتبه إلى عدم عودة أبي وعم عبد العزيز، وعندما انقضت تلك الأمسية حمدت تواطؤهما الصامت، كان خيري يمثل الرجل الذي كنت أبحث عنه بكل تفاصيله الصغيرة.

---

(1) الداردوف حشرة تنتشر في السودان تشتهر بظهرها الصلب المغطى بكل ألوان الطيف.

الاجتماع كان صباحاً، كنت متوترة قليلاً، للحظة فكرت في الذهاب إلى محجوب وسؤاله ولكن القليل من الرزانة لن يضر، لا توجد احتمالات سيئة هنا، أنا ناجحة في عملي ولـدي رصـيد ضخم في القناة وخارجها، قطعت الوقت في الاستماع إلى ثرثـرة سوسن عن موجز الإشاعات التي دارت حولي بسبب اسـتدعائي وكان أشدها قوة هو رغبة محجوب القوية في استبدالي بوجه أكثر شباباً ليكون الوجه الأول للقناة، رندة الماحي التي التحقت بنا في العام الأخير كانت هي المرشح الأقوى حظاً بحسب مـا تقـول سوسن، بالطبع كانت جميلة بقوامها الممشوق وعينيها الواسـعتين ولكنها ما زالت تفتقد الكثير لتكون الوجه الأول للقناة، هل أنـا مستعدة لخوض حرب مع فتاة تصغرني بما يقارب العشرين عامـاً؟ أخرجت مرآة صغيرة من حقيبتي، ما زلت جميلة بل ساحرة، الزمن ما زال رفيقاً بملامحي، حتى الخطوط الصغيرة حول عيني وبجانـب شفتي جعلتني كثمرة مكتملة النضج، أسلحتي مشرعة للقتـال لا شيء يخيفني على الإطلاق، حان الوقت، استأذنت مـن سوسـن وعيناها تتضرعان كي أكون أول من أقابله بعد انتهاء الاجتماع، كلما دنوت من المكتب زادت ثقتي بنفسي، هم مـن يحتـاجونني وليس العكس

دفعت الباب بعد أن طرقته، فاجأني وجود محجوب برفقة أ/محي الدين، حييتهما وأنا أداري وقع المفاجأة، مصافحتهما كانت ودودة، جلست في مواجهة محجوب الذي كان يتطلع إليّ بنظـرة مبهمـة، تنحنح محي الدين ثم نظر إليّ بابتسامة واسعة، شعرت بالتواء في بطني، لا بد أني متوترة حتى ولو أنكرت ذلك بيني وبين نفسي.

- أنا شاكر لدورك العظيم في نجاح القناة فلولاك ما وصلنا لما وصلنا إليه الآن.

المقدمات الجميلة يتبعها اغتيال أجمل عادة، بحثت في عينيه عما سيأتي ولكن وجهه كان كصفحة البحر، نظرت إلى محجوب ولكنه كان يتشاغل بسلسلة مفاتيح في يده.

- لولا بيئة العمل المحفزة للنجاح لما حققنا كل هذا، طاقم القناة هو أسرتي الثانية.

صمت برهة ثم تنحنح وقال:

- بالطبع لا بد من تغيير جلد القناة من أجل التجديد من فترة لأخرى، دائماً نحتاج إلى دماء جديدة تضخ في القناة من أجل تطويرها.

بتر كلامه وهو ينظر إليّ في ترقب، لا بأس عليّ المحافظة على كبريائي، شرع الرجل في الذبح سريعاً، أومأت برأسي في صمت موافقة إياه.

أشار إلى محجوب كي يكمل الحديث، اعتدل الأخير في جلسته وظهر مرتبكاً قليلاً وكأنه يبحث عن بداية مناسبة، شعرت بالدم يتصاعد إلى رأسي، كنت لأحتمل كل هذا لو لم يكن حاضراً فكيف إن كان مشاركاً، لم أع بنفسي وأنا أقف في وجههما، شعرت بأنفاسي تتلاحق، ربما لو بقيت قليلاً سأنهار باكية.

- لا داعي لكل هذا الإحراج، رندة مناسبة جداً حسبما ترون، أنا أيضاً قد أنهكت وأفكر في التفرغ لمقالي الأسبوعي وإعطاء المزيد من الوقت لعائلتي.

هم أ/محي الدين بالحديث فرفعت يدي دلالة على عدم رغبتي في الاستماع له.

- ستجد استقالتي على مكتبك في أقرب وقت.

خرجت كعاصفة هوجاء مخلفة خلفي أفواههم المشرعة وأعينهم الجاحظة. الأحمقان ينتظران أن أتوسل إليهما كي أظل في القناة، لا بد أن محجوب قد مل من تلك الحرب الباردة بيننا ورغب في إنهائها، لم يستطع تفويت المشهد الختامي فأصر على أن يكون موجوداً، تجاهلت الأعين التي كانت تحدق إليّ، لا بد أن وجهي كان يقصي كل من يحاول الاقتراب مني، تناولت حقيبتي من على المكتب وأنا أتجاهل الفضول الذي يفيض من عيني سوسن، عندما صادفت عم زمراوي وأنا في طريقي للخروج كدت أن أنهار ولكني تماسكت وتجاهلت التساؤل في عينيه. أغلقت باب سيارتي خلفي ثم أطلقت لدموعي العنان، عشرة أعوام تتداعى الآن نحو العدم، نظرت إلى المبنى الذي انتقلنا إليه منذ عامين، منتصباً وجاحداً كأنه لا يعرفني، حركة الاستقبال التي لم تتوقف لمغادرتي المكان، حارس الأمن الذي يشرع ابتسامته للجميع وهو يقف بجانب المدخل الصغير، رجل الاستقبال الذي يقلب صحيفته الرياضية في ملل، لم يتغير شيء لأني رحلت من المكان، طالما ظننت أن للمكان ذاكرة، ولكن نحن ذاكرة المكان، ينسانا فاتحاً ذراعيه لقادمين جدد ويورثنا ذاكرة متقدة بالحكايات.

(خيري)

(مسودة رواية طين لازب)

(الفصل الثاني... تكملة)

يبدو الفرار من القسم خياراً غبياً، ما الذي ينتظرني في الخارج، لا شيء سوى الخواء، حتى العشاء الملقى على قارعة الطريق لو لم ينفض القط الفحم عن فرائه ويخرج من الجدار لالتهامه تاركاً عصفوري الغافل لقدر آخر لم أعد أشتهيه. وضعت المكنسة جانباً ودنوت من حلقتهم، الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة والرابعة عشرة برؤوسهم الحليقة وملابسهم الرثة كانوا يتراقصون غير عابئين بالمكان أو بجوف الليل الذي يبتلع الحياة، دنوت وجلست عند حافة الحلقة كأني معهم ولست معهم، حصيلة الليلة من الطواف الليلي كانت جيدة، انتظروهم مع نهاية العرض الأول لسينما الوطنية ثم جمعوهم في سيارتي الشرطة المكشوفتين مثل أسماك باغتتها شبكة الصياد وأتوا بهم إلى هنا ليقطعوا بهم ملل الليل الطويل. أقعى بعضهم على ركبهم وهم يتراقصون بمناكبهم الرقيقة مثل بطلات الأفلام الهندية، وبعضهم انتصب واقفاً محلقاً بيديه منتحلاً صفة الحبيب، كانوا يتقنون الغناء والرقص كما يتقنون المشي والركض كأنهم وُلدوا في أزقة نيودلهي ورضعوا من ثدي بوليود، وعندما انتهى الرقص صفقوا وتعالت صرخات الاستحسان بينهم وهو يهنئون أنفسهم على إبداعهم الخاص، ثم ساد الحلقة نوع من الهدوء قبل أن ينهض أحد العساكر من رقدته متسائلاً عن راستا، ردد الجميع الاسم باحتفالية عظيمة، ثم دفعته الأيدي الصغيرة المغبرة ليتوسط الحلقة، لم يتعد الثانية

عشرة من عمره، لا أدري لماذا خيل لي أنه كان يعاني من الخجـــل، وتحت إلحاح البقية بدأ في الغناء، صوته كان متعثراً كطفل لا يــتقن المشي، و لم يلبث إلا قليلاً ثم انطلق.

أمسكت بالريشة وبين عينيها تتراقص ضحكة عابثة.

- ألا تمل من رسمي؟
- حتى أمل الحياة.
- وهل ستتوقف عن رسمي وقتها.
- لا سأتوقف عن الحياة.

تكاد عيناها تضيئان المكان، ترنـــو إليّ وهـــي دوني في القامـــة وتفوقني في مقامات العشق، العيون لا تكذب عندما تحب.

- سأتلفها.

عادت نفس النظرة المحتشدة بالعبث تتراقص في عينيها.

- هي أنت.
- ليست أنا.

أحب عنادها الطفولي.

- هل تغارين منها؟
- وأغار حتى مني حين أشغلك عني.

قلبـــي يذوب كقطعة سكر في كوب شاي ساخن.

- وهل أنشغل عنك إلا بك؟
- نعم تلك اللوحات ليست أنا، سأتلفها.
- أتلفيها.

هزت كتفي باستهانة، طعنت اللون بالريشـــة وعالجـــت بـــه حاجبيها، طعنت لوناً آخر ثم غرست الريشة على خدها، بدت مثل

محاربـــي الهنود الحمر والألوان تغطي ملامحها، طعنات أخرى وتختفي الشفتان تحت غابة البنفسج الساحر.

- ما هذا الجنون، ما الذي تفعلينه.

يتمدد البنفسج متداخلاً مع أزرق الخدين مثل مد يغرق شـــط جزيرة نائية، وضعت الريشة جانباً.

- لقد أتلفتها.
- ولكنك لست اللوحة.
- دعني أكن لوحتك للساعة القادمة.
- لم أفهم.
- أعدني سيرتي الأولى.

مددت يدي نحو الريشة، اعترضتني يدها وهي تنظر إليّ ونظرتها العابثة تفيض فتغرق مهرجان الألوان الذي يغطي ملامحها.

- هل الألوان سامة.
- لا ليست كذلك.

عاد البنفسج يغازل أزرق الخدين ثم قالت:

- إذن أنت ممنوع من استخدام الريشة.

ضحكت من المفاجأة، يا للمهمة الشاقة الجميلة، وضعت الريشة جانباً، ثم انهمكت في معالجة اللوحة بأكثر الطرق بدائية.

غرقنا في الضحك ونحن نحاول إزالة الألوان عن وجهينا.

- مجنونة أنت.
- بك.

ذهبت تلك النظرة العابثة عن عينيها، ما تنطقان به الآن كـــان عميقاً، حقيقياً، خفق قلبـــي والصمت يتصدر الحوار، انهمكـــت في

تنظيف وجهي هارباً من عينيها، ثم فررت إلى المرسم وأنــا أحــاول ترتيب الألوان والريش المتناثرة، أحاول ترتيب ما لا يمكن ترتيبه.

تعالت صيحاهم وهم يطالبون راستا بالمزيد، لم يكن بحاجة إلى إلحاحهم، ولكنه وقف يستمع إليهم في كل حال، راســتا لا يشــعر بإنسانيته إلا هنا، ما أن يغادر القسم حتى يعود مشرداً يؤذي منظــره العيون ويضيف لقذارة الطريق قذارة جديدة، هنا يطلبونه ويرغبون فيه وهناك يقصونه، يختبئ في مجاري الأمطار الغارقة في القــذارة، أو في زوايا الشوارع المنسية، ولكن وفي تلك الأوقات القصيرة، يســتحيل ملكاً للمكان، حتى العساكر بشوارهم الضخمة وملامحهم القاســية يستزيدون من صوته الجميل.

تسلل الصباح على استحياء من بين فــروع أشــجار النــيم، العساكر بملامحهم الغليظة وأعينهم المنتفخة من السهر أبعــدونا مــن القسم في ضجر وكأننا جئنا برغبتنا، ما زال الشــارع خاليــاً مــن السيارات والمارة، ابتعدت بخطوات سريعة، تلك اللهفة المجنونة لمعرفة مصير العصفور البائس، وقفت قبالة اللوحة المرسومة بنور الــذاكرة، كانت كاملة الإتقان، ضوء الشمس يتســلل إلى أطرافهــا ككــف تداعب خصلات اللوحة المتطايرة، ما زال العصفور يوشــك علــى الطيران والقط يوشك على الوثوب، مددت يدي لأزيل القط مــن اللوحة ولكنها تجمدت في الهواء، ألقيت عليها نظرة أخيرة ثم ابتعدت قاطعاً الطريق نحو السوق العربــي. وانحرفت بعدها يميناً نحو شــارع البلدية ثم تجاوزت صناديق القمامة الأربعة.

الحافلة التي تتهادى على حافة الإسفلت توقفت علــى جانــب الطريق، أطلقت بوقها مرتين متتابعتين، تعالت صرخات الأطفال من

جوفها، خط على جانبها روضة الإيمان العالمية، قطعت الطريق ثم توقفت على مقربة من الحافلة وأنا أتابع في صمت، ألقيت نظرة على أشجار البرازيليا واللبخ التي تسللت فروعها خارج السور، كانت الحافلة تقف أمام بوابة مغلقة، طغيان الفضول مدني بشجاعة الانتظار والترقب، كنت أهرب من السؤال العالق فيما بيننا، ترى ما الذي حدث بعد أن تجرعت خذلاني وابتعدت ململمة أشلاء كبريائها في صمت، غيبوبة الاكتفاء أسكرتني ولكن متى تكتفي الأشجار من الماء، الثقة الزائدة في عودها مرة أخرى أعمتني عن إدراك أن رحيلها هذه المرة كان بلا عودة.

أطلق بوق الحافلة لمرتين متتاليتين، السائق الذي يبدو متعجلاً كان ينظر إلى البوابة المغلقة بوجه مستاء، لم أكن مدركاً ما الذي أنتظره على وجه الدقة، ولكني وقفت بجوار البوابة أنتظر في قلق مماثل لسائق الحافلة، فتحت البوابة وانسلت من الداخل طفلة صغيرة ترتدي زياً مشابهاً لزي الأطفال في الحافلة، كانت جميلة كحلم صغير، لم أملك إلا أن أدقق في ملامحها، تحمل نفس العينين اللتين تضجان بالحديث وطريقة المشية نفسها بالكتف المائل قليلاً إلى اليمين وكأنها همت بالتقاط شيء ما ثم عدلت عن ذلك، ولكن كل الأطفال يشبهونها بأعينهم الواسعة وضحكاتهم المنطلقة وعبثهم البريء، قد تكون هذه ابنتها وقد تكون في الحافلة وربما أخرى ما زالوا في الطريق إليها. ابتلعتها الحافلة ثم تمادت مبتعدة عن المكان. تلك القطرة الصغيرة من بحر الحياة أشعرتني بالارتواء، ابتعدت عن المكان بخطوات بطيئة، ربما حياتها لم تتوقف بعدي، هذا أمر جيد ولكن هناك في داخلي تمنيت ألا يحدث ذلك، تمنيت أن أكون عائقاً لا تستطيع

تجاوزه، علامة فارقة في حياتها لا يمكن تجاهلها، أن افعل بها ما فعلتـــه بـــي، لا أريدها متشردة مثلي بالطبع ولكن كنت أتمنى ألا تعـــرف طعماً للسعادة بعيداً عني، رغم تشردي ما زلت إنساناً متحضراً أتمني الخير للآخر ولكنها هي وليس الآخر، كم أشعر بالأسف.

الفصل الرابع

(رونق)

الأربعاء الأول/سبتمبر/2013

المقهى كان مزدحماً، مر يومان وما زلت أهرب مـــن نفســـي، عندما أكون وحيدة تجتاحني الأسئلة التي لا أملك لها إجابات، كنت مجرد حمقاء وساذجة عندما ظننت أني حاذقة ومدركة لما أفعله، لا بد أنه قد اكتشف ادعائي من أول وهلة ولكن تهذيبه منعه من إظهـــار ذلك، حجر الشيشة الثاني و لم تحضر هبة حتى الآن، من المدعي الذي قال إن التوتر يذهب مع أنفاس الدخان؟ أنا مشدودة مثـــل نشـــابة محارب عتيد، وتري يوشك على الانقطاع، ولكن كلما اســـترجعت لقائي به أيقنت بصحة ما أعتقد، عندما رأى الرواية علـــى المنضـــدة أمامه كانت عيناه عيني عاشق وليس كاتب، وعندما أمسكها بـــين يديه كان يصافحها ويطمئن عليها كحبيب طالت غيبته، لا بـــد أن للكاتب علاقة قوية برواياته ولكن هذا كان شيئاً مختلفاً، أنا متيقنة من أنني فتحت نافذة تطل على ذكرياته، ربما عندما كتب تلك الروايـــة أزاح عبئاً يثقل ضميره، ظن أن البوح للورق سيريحه، فأتيـــت أنـــا وطرقت على بابها بقوة، لست متيقنة من شيء ولست مدركة إلى ما سيفضي بـــي كل هذا.

أتت هبة بضجيجها المعتاد وهي تتحدث عن أشياء عديـــدة في وقت واحد، اختطفت مبسم الشيشة من يـــدي دون أن تســـتأذن وجذبت عدة أنفاس عميقة متسارعة جعلت الشيشة تكركـــر بـــلا انقطاع، ناولتني المبسم وهي تسعل، تناولت كوب المـــاء، تجرعـــت جرعتين صغيرتين، ثم نظرت إليّ بعين دامعة من أثر السعال.

- ماذا فعلت بالبطاقة التي أعطيتك إياها.

نبرتها كانت تشي بالجدية.

- لا شيء مهم، كنت أرغب في مقابلـــة شـــخص عـــن طريقها.
- هل يبدو هذا الشخص مثل خيري عبد العزيز.

جاء دوري أنا للسعال مختنقة بالدخان في رئتي ومداريـــة وقـــع المفاجأة.

- ماذا تريدين منه؟ لا يبدو من النوع الذي قد يروقك.
- ليس الأمر كما تعتقدين ولكن كيف أدركت الأمر.
- جاء إلى مقر الصحيفة باحثاً عنك.
- وماذا حدث؟

لا بد أن اللهفة التي نطقت بها العبارة كانت واضحة ولكن ربما أوّلتها هبة للفضول فلم تنتبه.

- أصررت على أني هبة الطيب الصحفية وهو كان يصر على أن من قابلته هبة أخرى تعمل في ذات الصحيفة، ثم أبـــرز البطاقة التي أعطيتك إياها وعندها اكتملـــت الصـــورة في خيالي.
- وماذا حدث بعد ذلك؟

- لا شيء عندما رأى إصراري على كلامي رضخ ولكنه ألقى عبارة قد تهمك.

اللعينة صمتت الآن وهي تتفحصني بنظراتها.

- ماذا قال؟ لماذا تصمتين الآن؟
- أحاول أن أقولها كما قالها تماماً، نهض مودعاً إياي ومعتذراً عن إزعاجي ثم ابتعد وعاد مرة أخرى يبدو عليه التردد ثم ألقى عبارته.

نظرت بعيداً وكأنها تبحث عن كلمات مناسبة ثم أكملت:

- نعم، قال إن كان من الممكن أن تصادفي هبة الأخرى فأخبريها أن أبواب الأسئلة تشرع للإجابة عليها لا لتركها نهباً لاحتمالات الإجابات الخاطئة، ثم انصرف مودعاً.

رددت العبارة في سري، لم تكن هناك شفرة لأبحث عنها، من الجيد أني أثرت فضوله كما أثار فضولي، لا أدري كيف سنجتمع ثانية وما هي الطريقة الأكثر صواباً للتعامل معه، ولكن طالما هنالك أبواب مشرعة فلا بد أن هناك ماضياً يجمعنا، ماضياً تقطن بين تلافيفه زينب وكثير من الحديث الذي سيجمع بيننا، سأقرؤك رواية أخرى لم تكتب يا خيري ولن أدعك تتخفى خلف غلاف كتاب لامع، ومنك سأعرف حكاية أمي التي لم تروَ لي إلا بألسنة تمقتها وربما تشوه حقيقتها. من يعلم؟

- ما الذي تريدينه من رجل مثل خيري؟ لماذا هو في دائرة اهتمامك؟ هل أصبحت فجأة مهتمة بالروايات والكتاب؟

أحياناً أسأل نفسي هل أبحث عن حقيقة أمي أم أبحث عن ذاتي؟ لا أدري لماذا تغلغل خيري عميقاً في داخلي، هذه الأبوة التي تنبض من عينيه وكأني ابنته، ثم تلك النظرة العميقة التي نفذت إلى أعماقي لم تكن نظرة أب ولكن نظرة رجل، داعبت بركة الأنوثة الراكدة ثم استحالت صنارة تصطاد أسماك القلب وتتركها معلقة على أشرعة التناقض في انتظار الريح لتجيب عن أسئلتها المشرعة.

تناولت حقيبتي التي تستلقي بجواري ثم انتصبت واقفة، لم أبالِ بنظرة الحيرة التي رمقتني بها هبة.

- لست رفيقة جيدة للسهر اليوم سأغادر.
- انتظري كي أفهم فقط.

هززت رأسي رافضة، أشعلت سيجارة ثم أدرت سيارتي الصغيرة. الشوارع بإضاءتها المتقطعة وبقعها المظلمة تعكس حقيقة الحياة بشكل عبثي ولكن واقعي حتى الثمالة، تلك الأشباح التي تصنع مطبات الطريق وتساعد في طفح المجاري برائحتها العطنة، يجعلون القيادة أكثر صعوبة، كأنهم وجدوا ليثيروا سخطك، والآخرون الذين لا يخطر في بالهم أن يهدئوا من سرعتهم إلا حين يتخطوك، أولئك الذين يحيونك في جنبات الطريق وأنت لا تعرفهم، ثم هذه البقع المظلمة التي لو دلقت أنوار الكون فيها لامتصتها كثقب أسود هائل محتجزة الإجابات خلف ظلالها القاتمة، أوقفت سيارتي جانباً. البيت محتشد بشلة الأنس التي تستنشق الدخان وتقتات الضحك، لم أحييهم ولم يبالوا، هربت إلى غرفتي كملاذ أخير، رفعت الوسادة وأخرجت الرواية من تحتها، قلبت صفحاتها عشوائياً ثم وجدت نظري يتعلق بصفحة بين ثناياها.

"عندما غادرت إيلات، لم تلتفت خلفها، أدركت أن مراكبـــها المشرعة للعودة أحرقها جند الخيانة و لم يخلفوا سوى رماداً مختلطاً بماء البحر، لذلك غادرت لا تلوي على شيء، مر شهران وستة أيام وثماني ساعات وأنا ما زلت أبحث عنها بين الطرقات، أمـــاكن اجتماعنــــا، شارع النيل، تحت لبخ الجامعة، مطعم كوستا، كل الأماكن تنكرت لرسم خطواتنا عليها كأننا لم نتشارك معها أنفاسنا وأحلامنا، إيلات التي احتجبت شمسها الآن أرهقها هروبـــي منها بحثاً عن الظل فآثرت الكسوف ولكنه كان كسوفاً لا رجعة فيه، عندما وقفـــت منتصـــبة أمامي، مشدودة وعيناها كبؤرتي زجاج آثرت حسن الظن ومزجتـــه بدلال النساء طالما أن دموعها لم تهطل في فضاء حديثنا ولكني كنت واهماً، بحماقاتي المتكررة جففت نبع الدموع في قاع عينيها، كان قلبها هو الذي يبكي ولكني كنت غراً ساذجاً، ستغضب يوماً أو يـــومين وتعود، كثيراً ما أكدت لي أنها تقتات أنفاسي لتحيا، لا بأس فالقليل من الغضب يزيد من دفق الحياة في أوردة علاقتنا التي مالت للدعـــة والملل، لم أنتظر هذا الانفجار العظيم، إيلات تلاشت من العالم كأنها لم تكن جوهره قبل أيام قليلة.

آلمني أن أكتشف أنني نصف إنسان أحمل عاهة فقـــدانها بـــين جنبـــي، آلمني أن أدرك قيمتها عندما فقدتها، آلمني أن يتلاشى السلام الذي بثته في مسام الروح طوال العامين الأخيرين ثم انتزعته انتـــزاع المسمار من لحم الخشب، تركت جرحاً غائراً يفور دماً وقيحاً، يهتف باسمها صباح مساء ليكون بلسماً وشفاء، كثيراً ما هددتني في أوقات غضبها أنها ستذهب ولن تعود ولكنها كانت تغضب وتعود حـــتى لم أعد أبالي بتهديدها، ثم فعلتها حين سلمت بعجزها. طرقات سواكن

ببيوتها الهادئة وحكاياتها الموصدة خلف الأبواب لم تبح بأسرار إيلات وتركتني نهباً للحيرة، كانت تردد دائماً في أوقات صفائها أنها من جنيات سواكن، لو ضاقت بها هذه الأرض فستفر إلى القلزم لتسكن بين مرجانه فتهدأ روحها، ها أنا ذا أقف كالمجنون الآن عند ضفة الأحمر أهتف باسمها لعلها تجيب، أنا حطام إنسان يا إيلات لِمَ لا تعودين لترممي حياتي كما اعتدت دائماً، سأكون مرجاناً بألف لون كي تخبئي فيّ حزنك وخوفك ولكن أرجوك عودي الآن وليس غداً".

رواية إيلات ص (184)

أغلقت الكتاب ووضعته جانباً ما قرأته الآن أكثر صدقاً من خيال راو مهما أجاد، هذا رجل كبده تحترق من الوجد، ينفث ناراً في الورق وليس حروفاً وكلمات منمقة يجيد نظمها كالعقد، خيري كان يتحدث عن معاناته الشخصية، يبث شكواه إلى العالم مختبئاً خلف قناع الروائي، وإيلات التي فرت من بين صفحات الكتاب كطائر أفلت من الشرك، ترى أي أرض تقلها وأي سماء تظلها. التنازل عن حب دافق يقتضي جرحاً يوازيه أو يزيد عليه، ترى أي الجروح أصابك بها خيري ففررت منه تاركاً إياه نهباً للحسرة والندم.

(سليم الصوفي)

- لم أكن أعلم أنك من سأقابله، عندما أتيت في المرة الأولى كانت مجاملة لصديقي الرائد باشري الذي يصر على أن السجن محتشد بقصص تستحق أن تُحكى.

لا فرق طالما أن لديك ما تدفعه، يضيق السجن كحلقة الخاتم بدون نقود، لقد تأخرت كثيراً كان ينبغي أن تأتي قبل ذلك.

- لو علمت أنه أنت لربما جنبتك مشقة هذا الحرج، لست مؤذيا بأي حال من الأحوال.

حمداً لله أنك لم تكن تعلم وإلا ترى ماذا كنت سأفعل الآن دونك يا وجه الضفدع.

- أنت لا تصدقني لذلك تتشبث بالصمت، لا بأس جئت اليوم كي أوضح اللبس الذي حدث، أنا لا أقرأ الملفات التي يجلبها لي باشري بين الفينة والأخرى كي أستعين بها في الكتابة، لم يستطع أن يستوعب أن الرواية عمل أكثر تعقيداً من ذلك، عندما أتيت هنا ظننتها مقابلة لن تزيد عن الساعة ثم أعتذر لباشري بأن قصتك لا تصلح كعمل روائي، بالطبع لم أكن أحتاج لقراءة الملف أو هكذا ظننت، في كل حال أنا أعتذر مرة أخرى، وأعتذر عن فظاظتي في التعامل معك عندما التقينا في المرة الأولى، ربما أخذتني المفاجأة فلم أتعامل بالشكل اللائق.
- لا بأس لا بأس كنت مجروحاً فقط ولكنك لم تخطئ.
- بعد أن عرفتك كان ينبغي أن أكون أكثر كياسة، لا بد أن سؤالك عن أسرتي وحياتي كان بدافع الصداقة الحقة النقية وليس بدافع آخر.

ما الذي تردده يا وجه الضفدع؟ عن أي صداقة تتحدث؟ أنا لم أكن أضعك في مكانة الإنسان، دعك من الصداقة.

- لم يكن ينبغي عليّ سؤالك عن أسرتك، هذه خصوصية لا يحق لي حشر أنفي فيها، أنا مجرد مذنب وأنت كاتب، الدنيا لم تعد تضعنا في مقام واحد ينبغي عليّ احترام مقامك وتقديره.

سأقول كل ما يرضيك ولكن لو لم تصطحب معك ظرفاً منتفخاً قد أحطم عنقك بنهاية هذه الجلسة المملة.

- إذا وددت أن تحكي عن حياتك فستجد آذاناً صاغية ولكن ليس هذا هو المقصد، أردت أن تعرف أنني هنا لإيضاح الالتباس الذي حصل فقط.

تريد أن تفلت مني بعد أن فقدت وئام لا مفر من الحديث والاستزادة منه يا وجه الضفدع.

- سابق معرفتنا يقيل عثراتنا يا صديقي، دعك من هذا التهذيب الجم واجلس كي نتسامر كما ينبغي لصديقين طالت شقة البعاد بينهما وجمعتهما صدفة جميلة.

أخيراً، ابتسمت يا وجه الضفدع، هذه أول خطوة نحو جيبك المنتفخ بالأموال.

- كنت منطوياً في الجامعة لا تخالط الناس. صدقني لم أتخيل أن تصبح روائياً في يوم من الأيام، بل كاتب روايات عالمي، حقاً لم أقدرك قدرك في وقتها.
- أليست روايات تافهة كما قلت في لقائنا الأول؟
- ههههه تلك كانت سخرية جريح، شعرت بالمهانة وقتها يا صديقي، دعنا من العتاب، نحن الآن معاً، لا ضغائن ولا أحقاد أليس كذلك، ولكن قل لي، في الجامعة كانت هناك

فتاة سمراء لا أذكر اسمها الآن كانت لا تُرى إلا برفقتك، ههه، كانت جميلة بلا شك، غير أنها امتلكت من الفراسة ما لا نملكه فاكتشفت عمقك الذي غاب عنا، لا بد أنك تذكرها، لقد كانت ساحرة، أنت محظوظ في صنف النساء، محظوظ جداً، تلك الفاتنة في الجامعة ثم تلك المذيعة، أنت محظوظ فعلاً، ههه، ما هو اسمها لم تقل لي.

- زينب.

يبدو أنني قد أكثرت من الثرثرة، إجابة مقتضبة لا تبشر بخير.

- أتمنى أني لم أضايقك، كنت أريد أن ابسط الحديث بيننا لا أكثر.

ما معنى هذه التنهيدة هل هي ملل أم حسرة، ما زلت لا أفهم تلك التعقيدات التي يسميها البشر مشاعر وأحاسيس، المشاعر عندي حب وكره، فرح وغضب، أربعة لا لبس بينها ولا تداخل، عندما أكرهك فأنا غاضب منك وعندما أغضب منك فأنا أكرهك، هل يوجد التباس هنا؟ لا التباس بالطبع ولكن هذا التداخل العجيب؛ حزن، تعاطف، ود، احتقار، كرامة، أمثال هذا الخيري يظنون أنهم يلونون الكون بكلماتهم ولكنهم في الحقيقة يحولونه طلاسم تستحيل قراءتها، لا بأس، لا بأس، سألتزم الصمت حتى تتضح الرؤية.

- لم أرسل لك المال مع باشري كي أدفعك إلى الحديث دفعاً، أنا أرسلته لأنك تحتاجه، الحياة في السجن صعبة بدون مال، هكذا أخبرني باشري.

لو لم أتحدث لن يكون هناك مال، لماذا ستأتي إلى زيارتي لو أنني أطبقت شفتي، على كل أنت خير من أولئك الصحفيين الفضوليين

المفلسين على الدوام، يعتصرونني اعتصاراً بحثاً عن الإثارة التي تزيد مبيعات صحفهم، ثم يودعونني بلا كلمة شكر واحدة دعك من المال.

- دعنا نتحدث كصديقين سيكون هذا أسهل، أليس كذلك، هؤلاء الصحفيون يسألون عن سبب قتلي لأمي، جميعهم يسألون ذات الأسئلة ويبحثون عن الأجوبة نفسها، أنا مريض في نظرهم قبل أن أتحدث، أنت لن تتعجل في الحكم عليّ بالطبع أليس كذلك؟
- لا بالطبع، لست هنا بغرض إصدار أحكام عليك سابقة أو لاحقة، أنا هنا الآن لأننا متشابهان، كلانا قاتل بشكل أو بآخر.
- قاتل؟ أنت لا تستطيع أن تقتل ذبابة، لا بد أنك لا تعني ما تقول.
- لا يا صديقي، صدقني أنا قاتل، وأنا مقتنع تماماً أن هذا الضمير الزاعق هو جزاء لما اقترفته يداي.
- دعنا من الضمير وهذه الفلسفات التي لا معنى لها واحكِ لي ما حدث بالتفصيل.
- ربما أحكي لاحقاً، لست مستعداً للكلام الآن كما لم أكن مستعداً من قبل، دعني الآن، لو أنك لا ترغب في الحديث الآن فسآتي في وقت آخر ولو كنت لا ترغب في الحديث إطلاقاً فلن أزعجك ولكن أظن أن حديثنا لن يفهمه ويحسه غيرنا.
- حسناً تريد أن تعرف كيف ولماذا قتلت أمي مثلهم جميعاً، قتلتها لأنها لا تستحق الحياة، وجودها كان منغصاً لحياتي،

مصدر إزعاج وأرق لا ينتهي، كان هناك خياران، هـــي أو أختي ولكن موت أختي لم يكن مفيداً فستجد ثقباً آخر تنفذ منه كي تنغص عليّ الحياة.

- ولِمَ كل هذا؟

يبدو الكلام صعباً، ما سأقوله الآن لم أقله لأولئك الصـــحفيين ولكن وجه الضفدع ليس مثلهم بالتأكيد.

- أمي تذكرني بسيرة أختي كلما أتتني.

- أختك؟

هل عليّ الخوض في هذا الحديث الشائك حقاً.

- نعم أختي التي تربت في حوش الصوفي، هل تنتظر أن تصبح راهبة، هي مثلها مثل غيرها في ذاك الماخور.

- حسناً لقد فهمت، لا بأس.

- أنا لا يهمني أمر أختي أو أمرها هي، حاولت إقصاءهما مـــن حياتي مبكراً ولكنها كانت تصر على البقاء، لم تكن تهـــتم لسيرة أختي فالشرف هو آخر ما يهمها، ما كان يغضـــبها حقاً هو تمردها عليها، غلة المال التي قلت عندما أمســـكت أختي يدها عنها، ذلك وسط لن تفهمه ما لم تعـــش فيــه، وسط مقزّز مثل قيء السكارى.

- هل ما تقوله الآن حقيقي ويحدث في حياتنا الـــتي نعيشـــها هذه.

- ما يهم في الأمر أنها أرادتني سلاحاً كي تلجم به تمردهـــا، كانت تأتي إلى البيت وتفرغ سمها أمام وئام، دهشة وئام مما تحكيه أمي كانت تقتلني في اليوم آلاف المـــرات حرجـــاً

وخجلاً، حاولت إسكاتها بالمال ولكنها مثل جهنم لا تشبع حتى بدأت وئام في التذمر من طلباتها التي لا تنتهي، والنتيجة أنني هنا الآن لأني لم أستطع الإفلات من براثنها إلا بقتلها.

شعرت بالنار تستعر في صدري، إطراقه وصمته كانا محيرين، لست بارعاً في الكلام أو كسب تعاطف الآخرين وربما كان كلامي مفككاً وغير مرتب ولكنه حقيقي.

- أنت تخلصت من لعنتك بقتلها ولكني حملت لعنتي في صدري وكبرت بها، سأذهب الآن ولكني سأعود إليك وسنتحدث كثيراً.
- مثل لعنتي لا يمكن التخلص منها يا خيري، فأنا أدفع الثمن الآن وسأظل أدفعه بقية عمري.
- لو عاد الزمن للخلف هل ستفعل ما فعلته؟
- تقصد أن أقتلها؟
- نعم.
- سؤالك مربك، ما يحدث الآن مقيت جداً ولكن وجودها كان أكثر مقتاً.

(كوثر)

المرآة لا تكذب، يكاد زجاجها يتفطر من فتنتي، مررت على الخطوط الدقيقة التي لا تكاد تُرى بأطراف أناملي، لم أنجح لأني جميلة ولكن لثقافتي وقوة شخصيتي، نعم أنا لم أعانِ كي أصل بعكس الكثيرين من حولي ولكني نلت ما أستحق من نجاح بجهدي ومثابرتي

وثقافتي، وسأقاتل للمحافظة عليه. لم تكن حياتي سهلة على الـــدوام، عندما كان الجميع ينتظر أن أنزل من القمة كنت أتطلـــع إلى قمـــة أعلى، قاتلت لأكون صحفية مميزة، وثابرت كي أظل مقدمة برنامج مختلفة، حتى في حياتي مع خيري، رغم أنها لم تكن سهلة على الدوام وقدمت كثيراً من التنازلات، وتحملت تقلباته الكثيرة وبروده القاتـــل وغموضه الذي لا أفهمه أحياناً وتشبثه الغريب بأمه فقد حافظت على صورة الزواج الناجح والمثالي بين الروائي والصحفية، لم أترك ثغـــرة للفضول، كنا الثنائي المثالي في أعين الجميع رغم أن ذلـــك لم يكـــن صحيحاً على الدوام، وماذا جنيت في الآخـــر؟ تم الاســـتغناء عـــني ببساطة، هل كل ما بنيته طوال تلك السنين ســـينهار ويتحـــول إلى ركام؟ لماذا تبدو التجاعيد الآن أكثر عمقاً في وجهي، هل خســـرت معركتي بسببها يا ترى، لست عجوزاً ولكن ربما كانت رندة أكثـــر شباباً، وأكثر إغراءً وأكثر عطاءً.

كان محجوب مدركاً كل ما سيحدث وصمت، بل لا بد أنـــه هو من أشار إلى محي الدين بذلك فهو لا يقضي أمراً بدون مشورته، طالما ظننته دكتاتوراً ولكني لم أتوقع أن يكون خبيثاً أيضاً، لم يســـعد يوماً بوجودي في القناة، لأنه لم يستطع أن يفرض طغيانه عليّ، الأمر كان بالنسبة إليه معركة رجل هزمته امرأة، معركة يجوز فيها استخدام جميع الأسلحة، والضرب تحت الحزام، ولكنه كسب جولة والمعركة ما زالت مستمرة.

قطع رنين الجوال حبل أفكاري، يا للسخرية، ماذا يريـــد مـــني الآن، لم يكتفِ بكل الذي حدث فهل يرغب في المزيد من المتعـــة، لست ملزمة بالرد عليه، ألقيت الهاتف مـــن يـــدي، وخرجـــت إلى

الصالة، كنت أشعر بالاختناق، خيري تأخر على غير المعتاد، قلبت قنوات التلفزيون وتوقفت عند قناة المقرن، ما زالت تعمل و لم تتوقف، لا بد أن عم حجازي يقف خلف الكاميرا وهو يبحث عن سيجارة منسية في جيوبه، دائماً هو في حالة بحث عن سيجارة، وسوسن لديها الآن ذخيرة من الثرثرة تكفيها لعام كامل، يكفي أن تأتي سيرتي لتمتلئ بالإثارة والرغبة في الكلام، أما محجوب فهو منتصب عند باب الاستديو يقوم بوظيفة المخرج والمقدم في آن، لا أحد يتنفس في المكان من دون إذنه، الآن بسط سطوته كما يتمنى لها أن تكون، كم كنت غبية، هذه كانت معركة خاسرة منذ قررت أن خوضها.

- مساء الخير.

ركزت عيني على وجهه فهرب بعينيه نحو السجاد الناعم الداكن اللون.

- ألم أقل لك مائة مرة دعك من عادة النوم عند أمك كلما عنّ لك ذلك، لماذا لا تفعل كما يفعل الآخرون وتكتفي بزيارتها من حين لآخر أو حتى الدعاء لها من أي مكان فالدعاء سيصلها في أي حال.
- يا ربي ماذا أفعل مع هذا الرجل.

تركته واقفاً في مكانه محرجاً تلفه الحيرة ما بين دخوله أو وقوفه في مكانه بملابسه الرثة المتربة ونزيف قدمه وذهبت إلى غرفة النوم.

- انتبه لا تلوث السجاد بالدم.

تحيرني العلاقة الغريبة التي تربطه بأمه، لا يأتي على ذكرها إلا نادراً ولكن لا ينقطع عن زيارتها بين الفينة والأخرى، بل وأحياناً يأتي متربا ومضطرباً كحالته الآن، لقد مللت، تعبت من كل هذا، لا

يكون عنيداً إلا حين نتحدث في هذا الأمر، نعم إن فقد الأم مؤلم ولا شك ولكنه ليس الأول ولن يكون الأخير بالتأكيد، الحياة تستمر، مر أكثر من أربعين عاماً على وفاتها، هذا نوع غريب من الارتباط، ليس لي قدرة على استيعابه، لم أتعلق بأحد إلى هذه الدرجة في حياتي، حتى ذكرياته المتناثرة عنها ليست بالجمال الذي يجعله لا يستطيع تجاوزها، لا أفهم وبقدر ما سعيت لم أستطع.

- لقد اغتسلت.

تطلعت إليه دون أن أرد، استلقى بجواري، تنهد دون أن يتحدث.

- ألن ينتهي كل هذا.

رد متجاهلاً سؤالي قائلاً:

- كنت في جلسة غريبة مع رجل غريب، كان دفعتي في الجامعة يدعى سليم الصوفي.
- هل هو صديقك؟ لم أسمعك تذكره من قبل.
- كنا زملاء فقط، جمعني به باشري، بعد مقابلته شعرت بحاجتي للذهاب إلى أمي.

صمت قليلاً وكأنه متردد في أن يكمل.

- لقد قتل أمه.

أضاء الجوال دلالة على قدوم رسالة.

"لقد فهمت الأمر بشكل خاطئ، أنا في انتظارك غداً في القناة. محجوب".

- ها من الذي قتله؟
- قلت لك لقد قتل أمه، لا بأس يبدو أنك مشغولة قليلاً.

أخذت الجوال وخرجت من الغرفة، لا أستطيع الانتظار إلى الغد، اتصلت به على الفور:

- لم أفهمك.
- وعليكم السلام مساء الخير.

استدركت:

- السلام عليكم مساء الخير، ما الذي تعنيه؟

عبرت ضحكته إلى أذني منطلقة.

- فهمت حديث محي الدين أمس بشكل خاطئ، لم يكن يتحدث عنك كان يتحدث عني أنا.
- ماذا؟
- أنا من سأترك القناة، تعالي غداً صباحاً وسأشرح لك بالتفصيل، تصبحين على خير.
- ما الذي...

لم يمهلني وأنهى المحادثة. حسناً سأحاول ترتيب أفكاري قليلاً، محجوب سيترك القناة حسب قوله، ما علاقتي أنا بالأمر حتى يستدعيني أ/ محي الدين ليخبرني بقراره أو قرار محجوب؟ هذا الحديث يُحمل على وجه واحد، وجودي في منتصفه يعني أني سأكون بديلة محجوب، رأسي يدور يا لها من ليلة طويلة حتى الغد، نهضت من مكاني وعدت إلى غرفة النوم.

- محجوب سيترك القناة.
- محجوب من.

رددت عليه متعجبة:

- محجوب مدير القناة.

ثم استدركت قائلة:

- قلت لي من قتل من؟

صمت قليلاً ثم قال:

- لا عليك انسي الأمر، تصبحين على خير.

هززت كتفي في تعجب ثم رددت عليه:

- تصبح على خير.

(خيري)
(مسودة رواية طين لازب)
(الفصل الثالث)

الإنسان كائن ثرثار، لا يملك أن يصمت للأبد، قد يحتشد الكلام في حلقه مما يتسبب في خنقه فيموت، والموت هنا له أعراض مميزة وغريبة غير التي نعرفها، هؤلاء الموتى تجدهم هادئين ساهمين، يقابلونك في الطريق فيتجاهلونك، أو يعيرونك اهتماماً أسوأ من التجاهل، يتميزون بتلك النظرة العميقة الحزينة والملامح الكئيبة، قد يثيرون غضبك ثم استياءك ثم شفقتك، هؤلاء هم الموتى الأحياء كما أصنفهم، يعيش أحدهم بين الناس ويذهب إلى العمل ويقوم بواجباته الاجتماعية اتجاه الآخر ولكنه فقد الإحساس بطعم الحياة، فهو يعيش في انتظار موت الجسد، مثل هذا قتلته الخيبات، خيبة الوطن أو خيبة الحبيبة، الخذلان هو من يسبب هذا الموت ويتميز هؤلاء الموتى الأحياء بالشفافية وشدة التفاؤل والنظرة المشرقة للغد لذا فعندما تصيبهم ضربات القدر تقصم ظهورهم فلا تعود للانتصاب مرة أخرى.

هناك نوع آخر تجده يصر على توضيح أنه قوي ولم يتأثر، وأن الضربة التي لم تقصم ظهره قوته، فتجده يصر على أنه بخير ويردد تلك العبارة أمامك بمناسبة أو بدونها، يضحك بقهقهات عالية ويرقص بانفعال زائد ويتناول الطعام في شراهة، فإن خذله حبيب يسعى للبحث عن حبيب جديد ويدخل في علاقات سريعة وفاشلة في زمن متقارب وقصير، وإن خذلته القضية يشرع في البحث عن إيمان جديد ويجهد في تبرير اعتقاده. فإن كان يسارياً تجده انتقل إلى المعسكر اليميني بكل تطرفه والعكس صحيح، وأولئك عادة ما ينتكسون ويدخلون في النفق المظلم الذي دخله رصفاؤهم من النوع الأول أو يمنعهم الكبرياء فتختلف أعراضهم ولكن النتيجة واحدة تموت أرواحهم ويعيشون الحياة لا يتذوقونها وفي أوقات خلواتهم تسقط تلك الأقنعة فيغرقون في سوداوية عميقة ثم يعودون لارتدائها بابتساماتها المصطنعة ليواجهوا بها الناس. أولئك من يظنون أنهم أقوى من القدر فيدخلون في حرب خاسرة تنتهي بهزيمة ماحقة، طال الزمن أم قصر.

ألقى ما في يده وهرول اتجاهي وهو يمسح يديه بالفوطة التي يرتديها طوال اليوم، دنا مني بجسده الممتلئ وهو يهتز كقربة منتفخة، تناول يدي وقادني للداخل، أجلسني على كرسي بجوار القدور التي تغلي في النار.

- ما الذي حل بك، ماذا حدث؟

كانت أسئلته تنهمر كأم رؤوم قلقة على صغيرها.

- لا شيء مجرد ليلة في القسم.

نفض يديه وهو يبتعد عني، ثم عاد وهو يحمل صحن حساء تتصاعد هبّات الدخان منه وضعه أمامي قائلاً باستياء ظاهر.

- أخبرتك يا أستاذ أن هذه الحياة لا تشبهك، ما لك وتلك الحياة، هيا اشربه ساخناً كي ينفعك.

رشفت منه رشفات سريعة، نزل على بطني الخاوية كالحميم فانثنيت دون أن أنتبه، ابتعد عني ثم عاد يحمل صحناً آخر وضعه أمامي وهو يعزم عليّ ويؤكد بالرغم من أنني التهمت نصف الصحن في أقل من دقيقة، لمحته وهو ينادي أحد العمال في المطعم، فتح درج النقود وناوله عدة ورقات وهو يشير إليّ، كنت ألتهم الطعام بنهم كامل، أسندت ظهري إلى المقعد وأنا أشعر بالامتلاء، لم يمهلني، ناولني قطعة من الصابون تفوح رائحتها الطيبة في المكان، أشار بيده قائلا بلهجة صارمة:

- ستجد الحمام في الخلف.

اعتاد أن يراني رث الثياب ولكني كنت نظيفاً على الدوام، ليلة الأمس كانت قاسية، أوراق الشجر الجافة التي تعلقت بشعري، جانبي الأيمن الذي غطاه التراب، وبقع الزيت التي رسمت دوائرها على قميصي المهترئ القديم، ولجت إلى زقاق ضيق يقع خلف المطبخ مباشرة قادني إليه الباب الخشبي الموارب، كان الحمام في آخره، رطباً وضيقاً ولكن يعبق بالنظافة، عندما أغرقني الدش بمائه البارد شعرت بالترف والراحة، تمنيت لو أستطيع أن أغسل أدران روحي أيضاً، طرق الباب طرقة خافتة.

- من هناك.
- ستجدها بالخارج.

لم يكن صوت عم صالح، غسلت وجهي بسرعة ثم فتحت الباب في حذر، وجدت ملابس جديدة موضوعة بجانب الباب،

امتلأت عيني بالدموع، هذه الدنيا عجيبة، بعضهم وجد قاتلاً لجمالها بعضهم وجد كي يزرعه، اجتاحني إحساس بالعرفان أغرقني، عندما يتمرد الإنسان على المجتمع معانداً بفرضية استغنائه عنه ولكن تثبت له الحياة خطل رأيه وعبثيته، قرأت مرة أن أحدهم وُجد منتحراً بعد أن قطع جسراً للمشاة ثم وجدوه قد وضع رسالة في أول الجسر كتب فيها، لو ابتسم لي أحد قبل أن أقطع هذا الجسر فلن أنتحر.

ما فعله عم صالح كان ابتسامة بسعة الجسر والبحر، ذلك صنف ثالث لم أتحدث عنه، يقع ضحية الخسائر النبيلة مثل موت الحبيبة أو الولد، أو غيره من الأعزاء الذين يعتقد أن الحياة لن تمضي بدونهم، فإما كَفَر بالحياة والحب وواجه الأمر بعين السخط وعدم الرضا ففقدت رونقها وصار جميلها قبيحاً وعدلها ظلماً وطيبها خبيثاً وأضحت واجباً ثقيلاً يقضيه بين التبرم والسخط فهو ميت حي لحين رحيل الجسد، وإلا فهو يجتهد لتحويل ذلك الحزن النبيل والفقد الجليل إلى طاقة عطاء لا تفنى، يبحث عن السعادة في عيون الآخرين وهو يجتهد في صنعها لهم، لمسة العزاء الحانية التي تربت على قلبه المكلوم تدفعه للمزيد من العطاء فيندفع في ذلك الطريق ولكن العادة تقتل ذلك الإحساس الدافئ فيستميت في البحث عنه ويجاهد في العثور عليه فيزيد من طاقة عطائه، بل ربما يفني ماله دون أن يستشعر تلك اللحظة مرة أخرى فهو ميت حي لحين عثوره على ما يبتغي وإن جهد الطالب وعز المطلوب. عم صالح بعد رحيل ابنته الوحيدة أضحى من هذا الصنف، أحياناً تراودني الرغبة في نصحه ولكن لو كان الميت يُنصح لنصحت نفسي قبله.

ابتسامته الواسعة وهو أول ما استقبلني عندما عدت للمطعم، كان يعد شيئاً على النار، قال بصوت يملأه الرضا:

- الآن يمكنني أن أناديك بالأستاذ وأنا مطمئن.

القميص الرمادي بمربعاته الدقيقة السوداء والسروال الأسود جعلاني أبدو أنيقاً رغم أنها كانت أوسع مني قليلاً وجسدي يسبح داخلها في حرية وراحة، للحظة فكرت في عدم ارتدائها، أنا متسول ولكن في حدود احتياجاتي الضرورية، الملابس ليست من بينها بالتأكيد ما دمت أمتلك ما يغطي جسدي الضامر النحيل ولكني تفكرت في أثر ذلك على عم صالح فأحجمت.

- لو تركت عبثك هذا وشاركتني في المحل فقد أزوجك ليلى.

كان صوته مرحاً وهو يلقي عبارته، ثم تغيرت ملامحه مثل العجينة التي بين يديه، ذاب المرح في دفق الحزن الذي فاض من عينيه، حل الصمت كضيف ثقيل الظل برهة من الزمن ثم جاء صوته منكسراً وعميقاً.

- كثيراً ما أنسى أنها ماتت، أهتف باسمها عندما تعوزني حاجة في البيت ثم استدرك الأمر فيغمني الحزن كأنها ماتت الآن وليس قبل ذلك، كانت تضج بالحياة ويبدو موتها بعيداً، أولادنا عادة هم من يودعوننا وليس العكس.

نظرت إليه ببلاهة، لم أكن يوماً ممن يجيدون المواساة ولكنه دنا مني واحتضنني بقوة، عندما رجع للخلف ممسكاً بكتفي كان يبدو هشاً، لو زفرت عليه بقوة لطار وتبعثر. دعك أنفه بظهر يده ثم قال بتأثر:

- ليتها كانت حية، لزوجتها لك بلا تردد، لست أدري لماذا تفعل كل هذا، ولكني متأكد أنك أكثر اتزاناً من كثيرين أعرفهم.

لو تحدث الجدار لتحدثت، هنالك صنف أخير لا أستطيع إخبارك به يا عم صالح، ذلك الذي ينسحب من الحياة بقضّها وقضيضها، لا يبالي بما يظنه الناس فيه، فيخلق فلسفته الخاصة التي تخول له الهروب وعدم جدوى القتال والتشبث بالحياة فيغادرها في صمت. قد يغير الوسط الذي يعيش فيه وينتقل إلى العيش في مكان آخر وقد يفر من الحياة نفسها فيعيش على هامشها، لا يهتم لمظهر اجتماعي أو غيره، يختار اعتزال الحياة وهو فيها ويقع ضحية للضمير الحي، يظل يصرخ داخله لفعلة ارتكبها أو لشخص تأذى أذية عظيمة بسببه، يقنعه الضمير أنه بذلك يكفّر عن سوء فعله، فيظل أسير فعلته ونباح ضميره فيدخل في دائرة مفرغة لا يستطيع الخروج منها بل ربما لا يرغب في ذلك لو شئت الدقة. تجده يستشعر لذة في الألم ومبرراً لهجران الحياة، قد أكون أنا واحداً من هؤلاء، لا أرغب في العودة إلى الحياة مرة أخرى، بل لا أستحقها بعد فعلتي التي فعلت، التشبث بالفلسفات الفارغة والشعارات الجوفاء هو ما جنته هي من علاقتها بي، كنت أظن أن روح الفنان طليقة ومتمردة بطبعها على كل عرف أو تقليد وكانت هي مؤمنة ببيت صغير وطفل جميل وأنس دافئ بعد العشاء، خطان متوازيان لا يلتقيان ولكني بأنانيتي لم أكن مبالياً فأورثتها جروحاً لا تبرأ وأنا أتشدق بقناعاتي في وجه انكسارها بدلاً من مسح دموعها التي بللت خديها.

فتح درج النقود، أخرج سلسلة من المفاتيح، أشـــار إليّ وهـــو يلوح بها، تناولتها في حيرة.

- ما هذه؟

- هذا مفتاح الباب الخلفي، استخدم الحمام عندما تحتاجـــه، وفي الليالي الباردة أو الممطرة يمكنك أن تنام في المطبخ بدلاً من الشارع.

ابتسمت بحيرة، لقد ذهب بعيداً هذه المرة. لا أســـتطيع قبـــول عرضه وإن كان مغرياً، وضعت المفتاح على المكتب الصغير أمامه.

- آسف، لن أستطيع قبول سخائك الكبير هذا.

لمحت خيبة الأمل ترتسم على وجهه فسارعت مضيفاً:

- أنا لا أقيم في الشارع مكرهاً يا عم صالح، هذا خياري، قد لا تفهم ما أعنيه حرفياً، هل أنت مشغول الآن أم يمكـــنني اصطحابك في مشوار صغير؟

ظهر على وجهه التساؤل، تناول السلسلة وألقاهـــا في غيابـــة الدرج ثم قال:

- لست مشغولاً بشكل كبير، قد أفرغ لك بعد قليـــل إذا لم تكن متعجلاً.

هززت رأسي نافياً، ثم تركته منغمساً في العمل وجلست علـــى درجات الباب الخارجي للمطعم، الخرطوم وقتـــها كانـــت في أول الصباح، مزعجة كرضيع خلا بطنه من الحليب وامتلأ حفاضه بالبول، تزعق أبواق الحافلات والتكاسي كأنها في زفة عظيمة وشرطي المرور ينفخ في صفارته بلا جدوى سوى زيادة الضجيج. وجه الخرطـــوم الكالح الذي يباغتك في الصباح لا تجمله كل جداريات العالم ولـــو

وقف على رأسها دافنشي وبيكاسو، نظـــرت إلى أكـــوام القمامـــة المسترخية على جانبـــي الشارع وكأنها ذاهبة في قيلولة بعد امـــتلاء بطنها بالأوساخ، تلك العيون الساهمة للموتى الأحياء التي تعبر مـــن أمامي في غيبوبتها الأزلية بحثاً عن لقمة الحياة وسرابها، أفـــواج مـــن المشردين الباحثين عن مأوى لآلامهم ومرسى لأحلامهم التي تتطـــاير تحت قسوة الحياة في أرض النيلين، الباحثين عن غد أفضل. هؤلاء هم المشردون الحقيقيون أما أنا فبعد أن أعلنت استسلامي هجدت آلامي إلا من قسوة النوم على الأرض ووخز الضمير عندما تعـــبر هـــي في خاطري. لو كانت هنالك أحلام للموتى فلا أظن أنـــني أملـــك إلا واحداً، أن ألعق ذلك الجرح العميق في قلبها فيهجد ويسامحني ليمنحني بعض السلوى.

الفصل الخامس

(سليم الصوفي)

- مريم ماتت وأنا لم أتجاوز الثامنة من العمر، ولكني ما زلت أذكرها جيداً، بل إني أكاد لا أنساها مطلقاً.

حسناً لا تنكس رأسك الآن كطفل مذنب هيا أكمل.

- لست الوحيد القاتل يا سليم، أنا قاتل أيضاً ولكن الفرق بيننا هو أنك سجين القضبان وأنا سجين الضمير، ضمير يقظ لا يهدأ ولا ينام، لم يتم الأمر بطريقة مباشرة كما تظن، أمي ماتت بمرض القلب، ماتت هلعاً وخوفاً عليّ، لو أنني كنت عاقلاً وأطعت أوامرها لربما كانت بيننا الآن.
- هل تريد أن تخبرني أنك تسببت في قتل أمك لأنك لم تطع أوامرها فقط، يا رجل، منذ أن وعيت على الدنيا لم أطع لأمي أمراً، بل إني كنت أتحين ما يثير جنونها لأفعله بنفس طيبة ورغم ذلك لم تمت حتى اضطررت لطعنها تسع طعنات نافذة.
- كان لموتها أثر عميق في نفسي، كانت مرشدي ودليلي، العالم كان أمي ولا شيء آخر، ولكني تسببت في رحيلها، بطيش ولامبالاة، كنت قبل موتها طفلاً يتضجر من أوامر أمه التي لا نهاية لها وصرت بعدها طفلاً يبحث عمن ينير له

طريقه فلا يجده، ظلمات، وحدة وحيرة، بعد رحيلها اختل ميزان الصح والخطأ، الخير والشر، كان الخطأ هو كل ما يغضبها والصحيح ما عداه، ولكني بعدها صرت أفعل ما أشاء وقتما أشاء، فلا ميزان ولا مرشد، عرفت العزلة، غادرتني أمي وانشغل أبي بحزنه عليها ومتطلبات حياته الجديدة، حاولت بعقلي المحدود وقتها فهم كيمياء الموت المعقد، ازدحم رأسي بأسئلة لم أسعَ للإجابة عليها، لم أسأل والدي الذي كان يقصيني بصمته المقيم، كيف لأحد أن يكون بيننا، ثم يختفي هكذا، المسافر يعود مرة أخرى ولكن الميت لا يعود، فراق لا لقاء بعده ولا وداع يسبقه، في أوقات قليلة لمت أمي على هذا الفعل، كيف تقرر أن تتركني وحيداً وتذهب، كان يكفيها أن توبخني كما اعتادت، لم تخبرني باحتمال غيابها السرمدي، كنت أعلم أنها مريضة، ولكني أمرض أيضاً، أُصاب بالزكام والحمى وأتألم من مرضي ولكني لم أفكر في الرحيل، هي لم ترحل بسبب المرض، ولكن غضبها عليّ ويأسها مني دفعاها للرحيل، أنا ولد سيئ بلا شك، دفعت أمي للموت وأبي للحزن.

عيناه غائمتان توشكان على الهطول، تنهد بعمق وأكمل:

كان عالمي حديقة البيت، عرفت حيواتها المختلفة وخنقت الكثير منها بحثاً عن حقيقة الموت، طاردت العصافير الصغيرة التي لا تقوى على الطيران، كنت أتسلق الأشجار لأصل إلى أعشاشها وأخنقها في برود وأشاهدها وماء الحياة يتسرب من عينيها المتضرعة ومنقارها

المشرع بحثاً عن الهواء، أجدت تجهيز الشراك للفئران، كنت أستمع لصرخاتها الحادة حينما تقع في الشرك، أقوم بتعليقها في ركن قصي من الحديقة وأظل أتابعها لعدة أيام ونبض الحياة يخفت فيها حتى تموت، أعين العصافير اللامعة التي تتحول لكرات زجاجية مطفأة، تيبس جسدها وتهالك ريشها، تضرع الفئران وتلويها وهي معلقة من ذيولها وأطرافها الصغيرة تضرب الهواء في يأس، كنت أغرق في الحيرة، ما يحدث لتلك الكائنات الصغيرة هو الموت نفسه الذي اختطف أمي، وفهمت أن سر الموت في الاستسلام، طالما أنت تقاوم فأنت حي، ولكن الموت يصارع مقاومتك حتى تخبو ليلتهمك عندما تذعن رافعاً راية الاستسلام، كل هذا كان خاطئاً، الحياة أثمن من إزهاقها بحثاً عن إجابات لأسئلة عقيمة ولكن عندما تفقد بوصلتك الخيرة تقع فريسة للمتع الشريرة الشيطانية، وأنا بوصلتي كانت مريم التي أذعنت لسلطان الموت وتركتني وحيداً.

- هل تحب طبخة البطاطس؟

لا تفاجأ يا عزيزي فقط أجبني.

- لم أفهم ما تعنيه؟
- أنا كنت أحب طبخة البطاطس أكثر من أي طعام في العالم، كان لدي قابلية لأكلها طوال اليوم بل والاكتفاء بها عما دونها من أصناف الطعام، كانت أمي تعدها يوم الخميس للغداء، تعدها باهتمام عظيم ومحبة أعظم، يومها كنت أشعر بالتميز في الفناء الكبير الذي يزدحم بالأطفال والأمهات المشغولات على الدوام، ولكن أمي كانت تخصص غداء الخميس لي وحدي ولطعامي المفضل، ثم أتت لحظة الوعي

ذات ليلة، لا أدري ما الذي أيقظني ليلاً، أظنه العطش، هذا ليس مهماً الآن ولكني وجدت رجلاً لم أره من قبل يلتهم طبق البطاطس بلذة كاملة والدهن ينساب على حواف شاربه، شعرت بالغيظ لأن هناك شريكاً لي في طعامي المفضل، انتبهت لأمي وهي تلقمه الطعام بمحبة وولـه، وتفوح من حركاتها وسكناتها رائحة الخنوع، خنوع المحب الملتاع.

لم أفهم ذلك الشعور الذي اجتاحني وقتها، نسيت البطاطس واستعرّت النار في جسدي ولم أعِ بنفسي إلا وأنا أقفز نحوه مطيحاً بآنية الطعام، دفعني عنه بقسوة ونهض وهو ينفض الطعام عن ملابسه ثم خرج وهو يرغي ويزبد متوعداً، لم أكن أصدق أذني وأمي تؤنبني على ما فعلت وتحذرني من تكراره مرة أخرى، صمت لأن ذهني لم يستوعب ما حدث كاملاً، ظللت طوال أسابيع أرصد مجيئه ليلة الجمعة واستمتاعه بطبق البطاطس الأثير لدي، ثم أتابعه وهو يغلق باب غرفة أمي المتهالك خلفهما، لم أجرؤ على الاقتراب من الباب، خانتني شجاعتي وربما جزعت من هول ما سأسمع فآثرت الابتعاد، ولكن منذ تلك الليلة التي انزاح فيها الغشاء عن عيني لم أتناول طبخة البطاطس إلى الآن.

تباً لعينيك المتعاطفتين، هل تظنني بحاجتهما الآن، ما الذي يدفعني لأحكي هذا الكلام السخيف.

- لا أدري ما القول المناسب الذي يجب أن أقوله، تلك ذكرى مؤلمة.

- لا تقل شيئاً، لا تقل شيئاً، ولكـــن لا تنظـــر إلى طبخـــة البطاطس. لو رأيت كما أرى لما أحزنك موت الطباخ فربما الطبخة لم تكن لك في يوم من الأيام.

براح الصمت كان ممتلئاً بالكلمات، تتلوى باعثـــة الـــذكرى لتعتصرها في ذات الفراغ، هذا الرجل على الأقل استطاع اجتياز كل هذا بعكسي أنا الذي توقفت حياتي عند تلك الليلة، كنت يافعـــاً لم أتجاوز الثانية عشرة من عمري واكتشفت أن كل ما أحوزه في هـــذه الدنيا من ذلك الفناء القذر المزدحم بالمومسات وأطفالهن هو اهتمـــام أمي الذي فقدته في تلك الليلة ورأيته يسيل على شارب ذلك الغريب الضخم الجثة.

- عندما سألت أمي عن اسمه قالت إنه يدعى جـــاد الله وأن عليّ احترامه لأننا نعيش من فضله وخير ما يجود به، كـــان يملك عرفاً متهدلاً كعرف الديك وبشرة كأنها مغموسة في بحيرة من القرف، وكان قذراً، صدقني يا خيري لم أكـــره أحداً في حياتي كما كرهته.

(رونق)

الخميس الأول/سبتمبر/2013

ليلة الأمس لا تشبهها ليلة مرت بـــي من قبل، قتلني الـــتفكير وفوضى الاحتمالات المفضية لمزيد من الاحتمالات الـــتي ســـلمتني للأرق، الأمور ليست كما تبدو، الحيرة والغموض يغلفـــان حقيقـــة الأشياء، أنا بنت زينب التي فرت من زوجها أو التي فرت إلى حبيبها،

هل هي قاسية القلب وأنانية لهذا الحد أم أن قلبها قد اختطفه الحب فلم تعد تملك من أمرها شيئاً وانقادت خلفه مسلوبة الإرادة، وخيري؟ لو فرت إليه أين هي الآن، لماذا ليست معه، لماذا ليست زوجته، لو أنهما ما زالا معاً لفاحت رائحة علاقتهما فمثل هذه القصص لا تختفي كل هذه المدة، أم يا تُرى قام خيري بالتخلص منها في روايته وتحرر من حبها بحثاً عن حياة جديدة، هل الكُتّاب مثل مصاصي الدماء يقتاتون من دموع الآخرين وآلامهم، ولكن خيري الدمث المهذب لا يمكن أن يكون كذلك، ربما بدأت بشكل خاطئ والبدايات الخاطئة تفضي لنهايات خاطئة، سأتحمل حرج اللحظة كي أعيد صياغة الأمر. هو طريق شائك ولكن الأشواك إن أدمتني ستهديني سواء السبيل أيضاً، سأتبع ما يقول قلبي، تلك قصة ستتكشف فصولها طالما أبحث خلفها وأنا مستعدة لنهاياتها مهما كانت فاجعة.

أشعلت سيجارتي وتناولت جوالي وحقيبتي وخرجت، اليوم الخميس، سأعيد الكرة مرة أخرى ولكن بشكل صحيح هذه المرة.

رنين الجرس لم يطل هذه المرة، كأنه كان ينتظر قدومي، عندما فتح الباب فاجأتني عيناه المتفحصتان، بحثت عن الطمأنينة التي تبثّهما ولكني وجدت الشك، تلعثمت قليلاً.

- مرحباً بك أ/هبة.

كان يضغط على الحروف كأنه يبث شكه من خلالها.

انتصب جسدي وكأنني عسكري فلا مجال للتراجع الآن.

- أنا رونق ولست هبة أنا بنت...

قاطعني بصوت متهدج، مزيج من اللهفة والرجـــاء والخـــوف والأمل.

- زينب.

أومأت برأسي موافقة.

لانت ملامح وجهه مثل بيداء رواها المطر وانسابت المشاعر على صفحاته جداول صغيرة، كان شوقه يطغى على جميع ما عداه، وجاء صوته مبحوحاً مختنقاً بما يعتمل في داخله.

- علمت بذلك منذ اللحظة الأولى، كأنك هي في رحلة عبر الزمن.

تناول يدي وأدخلني، قلبـــي كطبل ضخم، الآن أنا عند شـــط الحقيقة، باغتني وهو يحتويني بين أحضانه، تسللت رائحة جلـــده إلى أنفي كاملة، كان حضناً غريباً، مزيجاً من الأبوة والرجولة، شـــيئاً لم أختبره من قبل، كالجنين في بطن أمه، أمان يســـع العـــالم فتمـــوت الحروب ويعم السلام، لحظات قليلة كأنها الدهر، عندما أبعدني عنـــه كنت نصف واعية، كدت أتهاوى ولكنه لم يفلتني حتى أجلسني على كرسي من الكراسي، الصالة بحيرة زرقاء وأنا أتهادى على مركـــب ربانه خيري، كأنه حلم جميل أتمنى ألا أستيقظ منه.

- لست آسفاً، هذا شوق محتبس في صدري دهراً، أنت لست هي ولكن في البعض عزاء عن الكل.

ليتني كنتها، ليتني كنتها.

- كيف هي، لا بد أنها جميلة كعهدي بها.
- أنا التي يجب أن تسألك عنها.
- لم أفهمك.

- أنا لم أرها طوال حياتي.

الدهشة وعدم القدرة على الاستيعاب طغتا على ملامحه ثم قـــال بصوت متقطع:

- هل.. هل ماتت؟
- لا أدري، ما أعرفه أنها تركتنا أنا وأبـــي ورحلت، ظننتـــها معك.

تنهده كان حارقاً.

- الهروب هو ما تجيده، أنا لم أرها منذ كنا معاً في الجامعـــة، فرت مني ومن الجامعة أيضاً، هجرت عالمي وتركتني.
- هذا يعني.

أومأ برأسه موافقاً ثم أكمل:

- نعم لا أعرف مكانها، بحثت عنها في كل مكان حتى ظننتها هاجرت خارج البلد.
- كل الاحتمالات التي صغتها لم تضع احتمال أنك لا تعرف مكانها.

خيبة أملي كانت عظيمة، لو كان بينهما كل هذا الحب الـــذي دونه في الرواية كيف استطاعت الزواج من أبـــي، ثم كيف تفر مع عشيقها بعد ذلك؟ ومن هذا العشيق الذي استطا ع أن يقنعها بهجـــر ابنتها ونسيان حبها الكبير؟ هناك حلقة ناقصة، القصة غير مكتملة.

- يبدو أنني قد خيبت ظنك، أنا آسف.

كان صوته حزيناً وبدا كهلاً للحظة وهو مطرق، تمنيـــت لـــو أستطيع احتواءه، الحزن الصادق معد كالمرض بل أشد.

- هل تصدق أنني لم أرها طوال حياتي ولا حتى في صورة.

نظرته كانت تشي بالكثير وابتسامته فيها عزاء ربما كما قال البعض يعزي عن الكل.

- يكفي أن تنظري إلى المرآة لتريها، عندما رأيتك أول مرة انسابت ذكرياتي كالماء، أنت هي ولست هي.

صمت وكأنه تذكر شيئاً، فرد أصبعه في الهواء وأشار به ثم استأذنني في الذهاب إلى الصالون، هذا رجل أنهكته الذكريات، كنت أظن الكتابة تفضي إلى النسيان ولكن يبدو أنه لم يغادر ذلك الزمن لحظة واحدة، ما زال يقطن في عينيها رغم تداعي الزمن وبعد المسافات، عاد وهو يحمل صورة في يده، خفق قلبي واضطربت يدي وهي تتناولها منه، الصورة العارية من الألوان كأنها أُخذت مني في وقت لا أعلمه، العنق الملتفت نصف التفاتة والشفة السفلى المرتخية وكأنها على وشك الكلام وذلك النداء الغامض في العينين الذي يدنيك ويقصيك في آن.

- تلك هي الصورة الوحيدة التي بحوزتي، لو كان هناك أحد أحق بها مني فهو أنت.
- لا، هي جزء من ماضيك وحياتك لا أستطيع بتره منها.
- هل تظنين أنني بحاجة إلى صورة، أنا لا أنساها حتى أتذكرها، نحن معاً دائماً وحين تطيل الغيبة تأتيني في النوم، تؤنسني وتذهب وحشتي، خذيها.

احتضنتها بين يدي، نظرت إليه في عرفان، لم يكن هناك ما يقال الآن، الكلام لا قيمة له، كان يجلس بجانبي، مركبنا الذي يتهادى صادق الموج، عندما نظرت إليه كانت عيناه تحضناني في إلفة، تهدهداني كطفل في المهد، صورته المعلقة في الصالة جعلتني أدرك لماذا

هامت أمي به، ابتسمت وأنا أقارن بينه وبين الصورة، شعره المتراجع للخلف والتجاعيد أسفل عينيه وبجانب فمه، ولكنه ما زال يحمل ذات النظرة، القاتلة المحيية في آن واحد، ارتجفت حين مرت أناملـــه علـــى خدي، تمنيت أن يزيد ولكنه توقف.

- وجودك أسعدني كثيراً، كأني في رحلة إلى ماضٍ وددت ألا ينتهي.

لم أملك إلا أن أبتسم، كنت محتشدة بالسعادة حتى فضت، لو جلست هنا لآخر العمر ما مللت، انتزعت نفسي من الكرسي بالقوة، لا بد من الذهاب، لم يعترض، نهض ليتبعني في صمت، وقفنا عنـــد الباب، ناولني بطاقته برفقة بطاقتي، ضحكنا معاً.

- سأراك مرة أخرى.
- بالتأكيد.
- اتصلي بـــي حين تشعرين برغبة في مقابلتي.

منحته ابتسامة تفيض بالكلام ثم أغلقت الباب خلفي، عنـــدما عبرت الطريق وصولاً لسيارتي كان ممتلئاً بالألوان ويحتشد بـــالفرح مثلي تماماً، ربما لو دقق أحدهم في وجهي لظنني مخبولة وأنا أسير على الطريق وابتسم وحدي، ولكن لا بأس بعض الجنون لا يضر، جلست داخل السيارة ثم أخرجت جوالي من حقيبة اليد واتصـــلت برقمـــه المدون في البطاقة، أتى صوته ممتلئاً بالحياة.

- مرحباً.
- إنها أنا.

ضحكته الصغيرة دغدغتني.

- أرغب في مقابلتك الآن.

ضحكنا معاً ثم أنهيت المكالمة، أشعر بأني أمشي في منحدر زلق ولكن من الذي يخشى السقوط؟

بالتأكيد لست أنا.

(كوثر)

صباح مختلف، العودة إلى العمل مثل العودة إلى الحياة، مقر القناة كان جميلاً أكثر من أي وقت مضى، رجل الأمن وموظف الاستقبال وسيمان على غير المعتاد، التحايا المتفاوتة من جميع الطاقم بين الترحيب والتساؤل والفضول، لا بد أن سوسن قامت بدورها المعتاد خير قيام ولكن لا بأس، ابتسامة صغيرة تعتبر رداً مناسباً على كل أنواع التحايا، تجاوزت الجميع متجهة إلى مكتب محجوب، طرقت الباب ودلفت، انتصب واقفاً وصافحني في حرارة ثم ضحك قائلاً:

- تكشف بالأمس فيك جانب لم أره من قبل.

ابتسمت في حرج.

- سوء تفاهم، الحمد لله أنه قد تم تجاوزه.
- ظننت أن القناة استغنت عنك أليس كذلك، بل وكنت متيقنة أن لي دوراً في هذا الأمر، لذلك لم تردي على اتصالاتي بالأمس.

رددت في عجلة.

- ليس الأمر كما تظن.. كنت متضايقة فقط.
- أنت تظنين أن وجودك في القناة يضايقني، كثيراً ما وصلني هذا الإحساس من جانبك ولكن الأمر خلاف ما تظنين.

عيناه اللتان تركزتا على وجهي أربكتاني قليلاً.

- دعك مني لماذا ستترك القناة، فاجأني حديثك بالأمس؟

تنهد في عمق وشبك أصابعه أمام وجهه متكئاً على المكتب بمرفقيه ثم قال:

- لقد تعبت.
- هل يتعب الإنسان من حياته؟ القناة هي حياتك.
- لذلك أرغب في التوقف، القناة سرقت حياتي بأكملها، أجلت الكثير من المشاريع، الآن حين أنظر خلفي لا أجد شيئاً.

صوته أتى حزيناً، محجوب رجل ناجح، قاد القناة نحو النجاح باقتدار، هذا أمر يستدعي الفخر لا الحزن.

- أنا معجب بك كثيراً، استطعت الموازنة بين حياتك الشخصية والعمل، هذا سبب كافٍ كي أغبط الأستاذ خيري على زوجة مثلك.

يا للمفاجأة، محجوب يمدحني ما الذي حدث في الدنيا.

- ليس الأمر كما تظن، كانت هناك صعوبات كثيرة.
- بالطبع النجاح يحتاج إلى الصبر والمثابرة.

ما زلت أنثى يطربني المدح، نسيت هذا في غمرة البرود الذي أعيشه مع خيري.

- أنا من رشحك بالطبع.
- رشحتني لماذا؟
- لإدارة القناة.

رغم وضوح الأمر منذ الأمس إلا أن قلبـــي خفق حين قالها و لم تعد مجرد احتمال

- ولكنني لم أجرب الإدارة في حياتي، ربما لا أملك مقوماتها.
- المقومات جميعها متوفرة لديك، أنت تملكين كل المؤهلات اللازمة لإدارة القناة أما بالنسبة إلى الخبرة فسأضمن انتقـــالاً سلساً لكل المسؤوليات الإدارية حتى لا تغرقي فيهـــا مـــرة واحدة.
- وكيف سيكون ذلك؟
- سأكون بجانبك طوال الأشهر الثلاثة القادمة قبل مغـــادرتي القناة بشكل نهائي، في نهاية تلك الفترة ستكونين قد ألممت بكل الجوانب الإدارية الغائبة عنك.
- أنت لست متعجلاً لردي يمكنك إعطائي مهلة للتفكير.
- بالطبع أنت محتاجة لاستشارة خـــيري فهـــذه خطـــوة كبيرة.
- ليس لخيري علاقة بالأمر.

أتى ردي سريعاً وحازماً، تمنيت لو باستطاعتي استعادته، الآن لا بد من الإجابة على التساؤل الظاهر على عينيه

- أقصد أن خيري داعم لي في كل قراراتي العملية، تقريبـــاً لا يتدخل فيها.

نهضت مودعة إياه، شدّ على يدي قائلاً:

- أنا أثق في صواب ردك، القناة تحتاجك ولن تخذليها.

خرجت من المكتب مضطربة، بـــالطبع ســـعيدة لاختيـــاري، متفاجئة من رؤية محجوب لي، طالما كنت واثقة من رأيه السلبـــــي

وقبوله لي في القناة على مضض ثم يأتي ويرشحني لإدارة القناة مـــرة واحدة مترجلاً عنها بكامل إرادته، في زمن مضى كنت أتمنى هزيمتـــه ولكن ما حدث الآن ليس نصراً، وضع محجوب سيفه في حين كـــان بيده أن يطيح بعنقي، هذه حقيقة كثيراً ما قاتلت لإنكارها ولكن لو أن محجوب أشار إلى محي الدين بفصلي من القناة لما بقيت طوال هذه الفترة، ولكن ما يحيرني حقاً هو طريقة تعامله معي، تجنبه لي طـــوال الوقت وحديثه الموجز المقتضب معي، ونظراته الطويلة التي تبدو أقرب للعدائية، دائماً ما كانت الإجابة جاهزة، لأنه لا يرغب في وجـــودي في القناة ولكن هذه الإجابة الآن تتبعثر كالدخان، أنا لست واثقة من قدرتي على سؤاله ولكن لا بد من عثوري على إجابة مقنعة، لم أعتد على العلاقات المبهمة الغامضة.

- متى سنشرع في تصوير الحلقة الجديدة؟

العم زمراوي بقبعته المميزة قطع عليّ حبل أفكاري، ســـيجارته التي تعتبر واحدة من المعالم الرئيسية في وجهه كان دخانها يعبـــق في المكان.

رددت في حماسة:

- فوراً.

اتسعت ابتسامته، عم زمراوي كان يطمئن على بقائي، لا بد أن الشائعات قد أقلقته، حسه الأبوي الدافق يشمل كل من في القنـــاة، سرعان ما تجمع بقية الطاقم من حولي، الأسئلة المحتقنة خلف الشـــفاه لا أملك لها إجابة سوى ابتسامتي الواثقة، ستبدد غيوم الفضول لحين استقراري على رأي محدد وحتى ذلك الوقت سأمارس عملي بشكل طبيعي.

المنزل كان هادئاً، الولدان في غرفتهما، غيرت ملابسي ثم خرجت للبحث عن خيري، كان مستغرقاً في الكتابة، يكتب عادة ليلاً ولكن منذ بدأ في هذه الرواية وهو منكب عليها ليل نهار، قرأت عدة صفحات منها و لم تعجبني، متشرد ورسم ومطعم، بدت لي غير مترابطة ولكنه يتعامل معها باهتمام متعاظم، تكاد تسرقه من البيت بشكل كامل.

- سأصبح مديرة للقناة.
- ها؟

لم يرفع عينيه عن شاشة الحاسوب.

- قلت سأصبح مديرة للقناة.
- أي قناة؟

نظر إليّ بتساؤل ثم استدرك.

- مبارك هذا خبر سعيد.
- ما الموجود في هذه الرواية يستحوذ عليك لهذه الدرجة.

ظهر عليه الارتباك، هذا خيري الذي أعرفه.

- لا شيء ذا بال، رجل يحاول الهروب من ماضيه ولكنه لا يستطيع الإفلات منه.
- لماذا؟
- لأنه أقوى من حاضره.
- وهل حاضره ضعيف لدرجة ألا يقنعه بالعيش فيه.

نظرته إليّ كانت أعمق من المعتاد.

- حاضره باهت لدرجة خنوعه لماضٍ لن يعود.
- لماذا ظننت للحظة أنك تتكلم عن نفسك.

ضحكته مفتعلة بشكل واضح.

- نظرية قتل المؤلف.
- ماذا تعني.
- العمل الإبداعي كيان قائم بذاته بغض النظر عن المؤلف.
- ولكن هل تنكر بأن الكاتب يضع جزءاً منه داخل الكتاب.
- لو شئت الدقة فالكاتب تتلبسه الشخصيات التي يكتبها ولا يستطيع التملص منها إلا بعد الانتهاء من الكتابة.
- إذن أنت تتلبسك روح ذلك المتشرد الآن.
- نعم أظن ذلك تماماً.

تلك العبارات التي تحمل أبعاداً أخرى تجعلني أقبض السراب، حتى خيري يتغير.

في ليلتنا الأولى كان الحديث بارداً مثل سمر الموتى، ثم فر مني إلى النوم، ظننته يخشى عليّ من عواقب الليلة الأولى فآثرني على إطفاء ناره ثم أعقبت الليلة ثانية ثم ثالثة وعندها كان لا بد من المواجهة فاجتزنا ذلك السور العالي بصعوبة بالغة، ظننت العيب فيّ، ولكنه كان يصر على أن الخطأ فيه وأنه أحب روحي، كان يتحدث عن حب أفلاطوني بين رجل وزوجته، يتحدث عن أن الزوجين شريكا حياة قبل أن يتشاركا الفراش، ثرت وخاصمت وغرقت في العمل ولكني كنت أنجح في جره إليّ في أوقات متباعدة، وأتى ابننا الأول في واحدة من هذه المتباعدات ثم الثاني أيضاً، في أوقات نادرة كان يجتاحني كالسيل لأيام متوالية، يدهشني برجولته المتدفقة ولكن بعدها يدخل في حالة عميقة من العزلة، كانت هذه من الأوقات النادرة التي يكون فيها عدائياً وكأنه يعاقب نفسه ويعاقبني على الخضوع لسطوة

الجسد، وكنت أقابل عداءه بعدائية أشد، فينزوي وينأى ويصمت ثم يعود محاولاً إرضائي فيغرقني في الحنان والاهتمام والحب.

حلقة مفرغة تفضي بـــي من حالة إلى حالـــة مثـــل الثـــور في الساقية، فغرقت في العمل واضعة نداء الجسد جانباً، فهدأت نقاشاتنا وعوضني بذلك عن رغبته المتفانية في إرضائي، فكان داعماً لي في كل خطوات عملي ويهتم بالأولاد في ساعات غيابـــي الطويلـــة عـــن المنزل، لم يكن خيري سيئاً على الدوام، في هذه الحياة نأخذ عطاياها القريبة ونمد أيدينا للبعيد محاولين التقاطه، كنت أنتظر نوبات اجتياحه المتباعدة صابرة إزاء ما يقدمه مقابل ذلك من تعاون وتفهم لم أكـــن أحلم بهما، الحب زاد الضعفاء، وأنا لست ضعيفة.

- سأخرج اليوم ليلاً قد أتأخر.
- لا بأس أنا لن أغادر المنزل، سأنتظرك على العشاء.

لم تكن لدي رغبة في الخروج ولكن أردت الاطمئنان أن كـــل شيء على ما يرام واطمأننت.

(خيري)
(رواية طين لازب)
(الفصل الرابع)

عندما اقتربنا من المكان كان عم صالح يهرول خلفـــي وهـــو يلهث، أكاد أشم عبقها رغم مضي السنوات، ربما سألني مائة مرة عن وجهتنا وكنت أجيبه بأنك ستعرف حال وصولنا، لم أكن أعلم على وجه الدقة بما أنعتها له، مرت ثلاثة أعوام ولم أدنُ من الحـــي، والآن

وأنا أعبر الطرقات التي خبرتها سنين عدداً يجتاحني فيضان الـذكريات بلا رحمة، رأيت رسم البيت عن بُعد، خفق قلبي خفقان عاشق ولهان طال بعاده وتدانت اللقيا قاب قوسين أو أدنى، السور الحجري العالي الذي ينتهي بدرابزين الحديد المطلي بلون البرونز لوح بيده مرحباً، تطاولت الأشجار وتمددت فروعها متمردة على تعالي السور فتراقصت فروعها كعشرات الأذرع في احتفال عظيم. قارب خطوي من العدو بل كدت أركض نحوه، لهاث عم صالح يشتد ثم خارت قوته فتوقف عن السير وهتف بي أن أتريث، أشرت إلى السور مشجعاً إياه ولكنه رفض في عناد، أطعته مكرهاً، وقفت بجانبه منتظراً أن يسترد أنفاسه بصبر نافد، تغير الحي كثيراً في تلك السنوات القليلة، العديد من البنايات الحديثة متناثرة هنا وهناك وما زال بعضها في طور الإنشاء وطرق الإسفلت شقت جسد الحي من كل الاتجاهات ففقد وداعته المعروفة عنه وازدحم بالسيارات السريعة العادية في جنون، ولكنه ظل صامداً، لم تتطاول سوى الأشجار كلحية مهملة، وبهت لونه ولكنه ما زال محتفظاً بجبروته وهيبته التي أعرفها جيداً، أصدر الباب صريراً عالياً وأنا أدفعه بمشقة كبيرة.

- ما هذا المكان يا ولدي؟ ما الذي نفعله هنا؟

تجاهلت نبرته المستنكرة وملامحه المتشككة وأشرت له أن يتبعني، الممر الذي غطته الأعشاب الجافة المتكسرة والحديقة المهملة هي أول ما لفت انتباهي، قدمي كانت تغوص في بحر الذكريات، النوافذ المغطاة بالزجاج الموشّى، إحداها محطمة وأخرى مشرعة والبقية غطاها الغبار، البيوت مثل الإنسان، يؤلمها الإهمال ويقتلها الهجر.

قال عم صالح بصبر نافد:

- لمن هذا البيت؟ ولماذا نحن هنا؟

قلت بابتسامة حزينة:

- هذا بيتي يا عم صالح، هل ترى هذه الفخامة والجمال.

ضرب عم صالح بكفيه في حيرة قائلاً:

- لا أرى جمالاً ولا فخامة بل خراب في خراب. ما الذي يجعلك تترك بيتك وتسكن الشارع يا ولدي؟
- أنا لا أستحق أن أعيش هنا، البيوت يسكنها البشر لا الحيوانات.
- استغفر الله العظيم يا ولدي ما هذا الكلام الذي تقوله.

صعدت درجات السلم الأربع ثم دفعت الباب الخشبي الكبير، الصالة الكبيرة مغطاة بطبقة ناعمة من التراب، نجف الكريستال كان يتدلى من السقف كالجثث المعلقة، الأثاث المتناثر في البهو الواسع، غرباء لا يتحدثون لغة واحدة. سعل عم صالح والغبار يغزو صدره ولكني كنت ممتلئاً بالمكان فلم أعبأ، صعدت الدرج، باب غرفتي كان مواربا وكأني بالداخل، اللوحات المعلقة على الجدران شاخت ملامحها وكساها الهجر ثوباً بائساً، مرت أصابعي على إطار لوحة لكهل ذي لحية بيضاء منهمك في ترتيب بضاعته المزجاة تحت شجرة التبلدي بفروعها العارية وساقها المتضخم، ألقيت عليه التحية في شوق ووقفت أنصت لترحيبه البارد وصوته الغارق في العتاب، تطايرت الفراشات من لوحة الصباح ونبتت الأزهار في زوايا الغرفة فقبلتها ثم حلقت في سماء الغرفة راسمة لوحة عنوانها الترحيب، القطار البخاري علا ضجيجه وهو يستعد لمغادرة عطبرة، ازدحم حوله الباعة والركاب والمودعون، نبضت اللوحات بالحياة ولوحت بأيديها،

طفرت دمعتان من عيني، لم أمسحهما ولكني تراجعت وأغلقت باب الغرفة خلفي فعم السكون المكان.

عدت إلى عم صالح الذي كان ينتظرني في الحديقة، أمسكت بيده وأنا أقوده نحو آخرها مروراً بعريشة العنب التي لم يتبقَّ منها سوى هيكلها، ظهر رسمه عند آخر الحديقة، متهدلاً ومنكفئاً على نفسه وكأنه ينتحب، نادتني نفسي بالتراجع ولكني دنوت، حتى في زياراتي السابقة لم أكن أجرؤ على الاقتراب من هنا، تسعة أعوام حسوماً وأنا أنأى عنه وقلبي يهفو إليه، وقفت قبالته مشدوهاً عما سواه، حتى عم صالح احترم حزني فصمت، الباب كان ملقى جانباً، والتراب والأوساخ تناثرت في كل مكان، فضلات القرود، والأوراق الجافة الذابلة ربما امتزج مسحوقها بالغبار فأضحى جزءاً منه، اللوحات المتناثرة بطول المكان متكئة على مختلف الزوايا ولكن الأخيرة التي جلست على حامل اللوحات كملكة متوجة ما زالت منتصبة تقاوم الزمن والغبار وإن نالا منها، نصف ابتسامتها ونصف وجهها وضربات الفرشاة على النصف الآخر الذي لم يكتمل.

- سأرسمها مع صعودنا إلى سماء الحب، كل درجة بضربة فرشاة حتى تكتمل.
- أخشى ألا تكتمل يا حبيبي.
- دعي عنك التشاؤم، الحب زاد لا ينفد ما في ذلك شك.
- وعندما أحتاجك.
- حاجة الجسد فانية، نحن همسات الروح وعناقها.

كانت دافئةً كليلة بصحبة الأصدقاء، أنفاسها تتردد في صدري كطفل رضيع وعندما أحتويها يهدأ العالم ويصيخ السمع.

- سأذهب.
- لا تتعجلي، دعيني أضف للوحة لوناً فقد صعدنا درجة.
- أنت مجنون، أعييتني بحبك المتصوف.
- الحب حياة وليس لقاءً عابراً يا عزيزتي.
- ولكني مثل كل أنثى أحلم بالبيت والولد.
- ألست ابناً لك، هل ترينني ولداً عاقاً.
- سيقتلني العطش.
- الجسد لا يرتوي مهما شرب.
- زر طبيباً، ليس في الأمر عيب.
- ولكن هل هناك طبيب للحب.
- وهل الحب مرض؟
- لو خيرت لاخترت الشفاء من الشوق ولكنـــه مـــرض عضال.
- أتمنى ألا تشفى.
- آمين.
- مجنون أنت ولكني أحبك.

قد يهـــون العمـــر إلا ســـاعة

وتهـــــون الأرض إلا موضـــــعا

حين قالها الشاعر كان ثالثنا ولا شك، انسابت دموعي وأنا أمد يدي في حرص لإزالة الغبار عن اللوحة وما أن مسستها حتى تناثرت جزيئاتها في المرسم وكأنها خيال ثم تهاوت مختلطة بغبـــار الأرضـــية

وفضلات القرود وأوراق الأشجار، لم أتمالك نفسي وأنا أجثو على ركبتي محاولاً جمع أجزاءها ولكنها ذابت بين يدي واستحالت رماداً، ارتفع عويلي دون أن أقوى على كبحه، ولم أعِ بنفسي إلا وأنا في الحديقة وعم صالح يحاول تهدئتي.

– تجلّد يا بني، لا حول ولا قوة إلا بالله، رحماك يا رب.

الموت مرتان، الفقد مرتان، الخذلان الممتد حتى يأخذ صاحب الأمانة أمانته، حتى نصف وجهها عجزت عن المحافظة عليه، لست سوى قصة بترت من منتصفها وحياة وُئدت في شبابها، نهضت من الأرض، ابتعدت عن المرسم نحو الاتجاه الثاني من الحديقة، الغرفة القائمة عن أقصى الركن الشرقي كانت منتصبة هناك، ما زالت شاهدة على ما حدث، تبارى الحزن والغضب والشوق والوجد والندم والنقمة، وغيرها من الأحاسيس المضطربة المختلطة، وأنا أقف في المنتصف بينها وبين المرسم، ركضت نحوها ثم ركلت الباب فانفتح على مصراعيه، كانت عارية من الداخل متجعدة الجدران وهرمة النوافذ ولكن الذكريات بطعمها المر ما زالت حية وكأنها حدثت صباح اليوم، لا شيء يموت أو يذهب، أبحث عن نعمة النسيان فالذكريات نقمة لمن هم مثلي، ما زال صوته يدوي في رأسي، فحيح الثعبان الذي يصدر من بين أسنانه بأنفاسه الكريهة.

– تعالَ نلعب لعبتنا بعيداً من هنا، سأدعك اليوم تبدأ أنت، أسرع قبل أن يرانا أحد.

– ولكني أتألم، لا أرغب في ذلك الآن.

– الرجال يتحملون الألم هل أنت طفل.

– لا أنا رجل.

- لا أنت مجرد طفل.
- قلت لك أنا رجل هيا بنا.

لكماتي المجنونة على الجدار أدمت يدي، أمسك عـم صـالح بكتفي مرغماً إياي على التوقف.

- هيا نغادر هذا المكان الملعون يا بني، لا بد إن الشياطين قد اتخذته سكناً منذ زمن بعيد، أكاد أسمع ضحكها وأرى عبثها، يكفي ما حدث حتى الآن.

الرجاء في صوته كان أقرب للتضرع، تبعته وأنا أعرج، كان ثمن عودتي إلى هنا غالياً، ليتني استمعت إلى صوت العقل و لم آتِ، لم أجن سوى الألم وتفتق الجروح التي رجوت أن تشفى، رجعنا إلى المطعم وعند الباب ودعت عم صالح الذي كان يرمقني بعينين مشفقتين، حاولت التجلد كي أطمئنه ولكن الدموع خذلتني.

- عندما تكون جنتك ونارك في ذات المكان، عشقك ومقتك في ذات الروح، فرحك وحزنك في ذات القلب، عندما يكون بين الذكرى ونقيضها زمن لا يكفي للنسيان، لا مفر من الهروب يا عم صالح.

الفصل السادس

(سليم الصوفي)

أليس هذا أمراً عجيباً، يأتي خيري ليتجاذب أطراف الحديث معي ويدفع مقابل هذا مالاً، ليس هذا فقط ولكن يضيف عليه توصيات خاصة لصديقه الشخصي مدير السجن فألمس أثرها في مصباح الذي حاول أن يخيفني عندما نبهني إلى أنه مدير السجن الحقيقي ولكن هذا لم يمنعه من منحي خصماً خاصاً على ثمن زجاجة الويسكي، خصماً يصل إلى النصف، السجن ليس سيئاً بوجود شخص مثل خيري والحياة محتملة طالما يوجد مال ورجال يخدمون الرجال الذين لديهم المال، تتوفر الآن لدي وجبات إضافية والمزيد من الويسكي المتدفق كما أن مصباح وفر لي هاتفاً شريطة ألا أدع أحداً يعلم بالأمر، اضطررت إلى دفع مبلغ مقدر من المال من أجله وان كنت لا أعرف فيما أستخدمه، لا حاجة إلى وئام فقد ضنّت بمالها وضنّ علي السجن ببقية طيباتها فلتذهب إلى الجحيم هي وصديق طفولتها المخنث، سأنتظر طلبها للطلاق وأحاول أن أجني مالاً من وراء ذلك وإن كنت أعلم أنها لو لجأت للقضاء فسيطلقها القاضي قبل أن تستوي على المقعد.

قال لي دريابي إنني قد خبرت السجن وأزقته، ولا يفتأ يحذرني من إلفة السجن والاعتياد عليه، قال مرة ألا ترى الآتين من الحياة إلى

هنا يدخلون محبطين وخائفين ثم لا يلبثون إلا قلـــيلاً فينـــدمجون في صداقات تفرضها زنازين السجن ثم يعتادون الأمر ويألفونه ولا تمـــر فترة حتى يحبونه وعندما تنقضي مدة سجنهم ويحين موعد عودهم إلى الحياة يودعون السجن بالدموع والوصايا والوعد بالزيارات المتتابعـــة. يقول إن السجن يدجّن قاطنيه فلا ينفكون من أســـره حـــتى بعـــد خروجهم منه، هذا الرجل الخرف يقول كلاماً حكيمـــاً في أحـــايين نادرة، لو أن هناك نساء في السجن فربما لا أفكر في الخروج من هنا، عندما سألت مصباح من إمكانية حل هذه المشكلة المستعصية ضحك حتى كاد أن يسقط من طوله، ونظر إلي في استخفاف لم يسع لمداراته ثم أخبرني أن هذا أمر مستحيل بالطبع ولكن لو اشتدت بك الحاجـــة ففتحي يمكن أن يحل تلك المشكلة ببساطة وبمقابل مـــادي مقبـــول، أخبرته بأن الأمر لم يصل لهذه الدرجة من الانحدار وأطبقـــت فمـــي مبتعداً عن المكان.

فتحي هذا واحد من المساجين في منتصف العشرينات، تكـــاد بشرته تقطر نعومة ووجهه حليق يخلو من الشعر كأنما لم ينبت فيه من قبل، يتقصّع في مشيته ويمط الحروف مطّاً مقززاً وهو يتحدث والعلكة بين أسنانه لا يخلو فمه منها ليلاً أو نهاراً، يمارس عمله في سلام تـــام داخل السجن وتحت حماية مصباح شخصياً ولا بد أنه يدفع له مبلغاً محترماً مقابل ذلك ومقابل الملابس الضيقة التي تبرز لحمه المتهدل الذي يظنه فاتناً، بالطبع أنا لا أكرهه ولا أحبه ولا أشعر اتجاهه بأي شعور ولكن لو أني أملك مسدساً فيه تسع طلقات لأفرغتها في رأسه بـــلا تردد. فتحي مرة واحدة والله إن الأمر مضحك لو نظرت إليه مـــن زاوية ثانية، لا أستطيع تخيل الأمر (ههههه).

- هيا يا سليم، زيارة كالمعتاد.

صافحني خيري في إلفة، سألني عن أحوالي، مرت أربعة أيام منذ زيارته الأخيرة، بالطبع أتى تصحبه حقيبته المكتنزة ونظارته السميكة، بدأ الحديث سلساً وكان يبدو منشرحاً بشوشاً وهو يمزح ويتذكر نتفاً من طرائف الجامعة التي نسيتها جميعاً بالطبع، ثم ظهرت الجدية على ملامحه واعتدل في جلسته ومس طرف نظارته بيده ثم قال:

- قد لا تدرك عظم الفائدة التي قدمتها لي من دردشتنا معاً في المرة الأخيرة، شعرت براحة عظيمة بعد انصرافي وقررت زيارة أمي والنظر إلى الأمر من زاوية أخرى محاولاً التنصل من مسؤولية موتها التي تلاحقني ليل نهار، ولكن يبدو أن الأمر لم يعجبها.

قاطعته بدهشة:

- من الذي لم يعجبه؟
- أمي بالطبع، لا تتعجل، سأحكي لك ما حدث بالتفصيل.

صمت قليلاً وكأنه يرتب أفكاره ثم قال:

- يومها وحينما هبط الظلام قدت سيارتي إلى المقبرة، جلست عند قبر أمي وقرأت الفاتحة، ثم وضعت يدي المرتجفة على تراب القبر الجاف وهمست لها:
- ها هو ابنك يُشاد بأخلاقه في كل مكان، خذلت توقعك بأني سأكون رجلاً سيئاً، وغدوت كما كنت تأملين لي وأكثر، فاغفري لي خطأي الذي لا يغتفر، أرجوك توقفي عن تقريعي كلما تسللت إلى أحلامي. لم أعد أحتمل ذلك، لقد عملت بكل وصاياك ونفذت جميع رغباتك فأرفقي

بـــي قليلاً واعبثي بشعري المبعثر كي أطمئن على رضـــاك عني.

لم أتمالك نفسي وأنا أرفع حاجبـــي في استخفاف. هذا رجـــل هش ولا شك، تعبث بشعرك المبعثر! ههههه.

- انكفأت على القبر وأنا أبكي، ثم تمددت بجواره برهة مـــن الزمن، كانت المقابر صامتة حتى عن نباح كلب ضـــال أو عرير صرصور تائه، غفوت دون أن أشعر فأتتني أمـــي في المنام، كانت تبدو مجيدة بثوبها الأبيض وشلوخها المطـــارق، تنبض بالهيبة والجلال وكأنها قاض في محكمة، رجعت طفلاً لم يتجاوز السادسة من العمر، منحتني ابتسامة خاطفة وهي تربت على رأسي في حنو بخيل ثم قالت لي بصوت هادئ لم أعتده:

- أنا سعيدة بما حققته يا صغيري، ولكن هل تدرك ما الـــذي أسعدني أكثر من ذلك؟ تخلصك من عادة التبول اللاإرادي، الآن صرت رجلاً بنظري، هذا هو طريقك يا بني لا تحـــد عنه وأنا سأكون بجانبك دائماً.

انفجرت ضاحكاً من المباغتة:

- هل كنت تبول في الفراش يا رجل.

ظهر الضيق على وجهه:

- هذا ماضٍ بعيد ذهب لحاله. أرجوك لا تسخر مني فأنـــا لا أتحدث عن هذه الأشياء عادة، وأجد صـــعوبة في ســـردها عليك.

أومأت برأسي واعتذرت بكلمات مبهمة، كم أنا رجل فظ.

- رغم شعوري بالحرج من ذكر أمي لعادة التبول اللاإرادي والتي جهدت أيما اجتهاد حتى تخلصت منها وأنا مراهق، إلا أن عينيّ لمعتا كعيني جرو صغير يعبث تحت أقدام سيده، ثم فجأة تموجت صورة أمي أمام عيني وبدأت في الاختفاء. وصلني صوتها وكأنه آت من أعماق بئر سحيقة وهي تتابع "لم أستطع نسيان فعلتك الأولى، فأنت السبب في مغادرتي لهذا العالم مبكراً، لن أسامحك على هذا مطلقاً".

اختفت صورة أمي من أمامي وبرز من العدم وحش يملك جسد فيل ورأس تنين ينفث اللهب ويطلق لصراخه العنان، ركضت بعنف وأنا ألهث كالمجنون وأقدام الوحش تدب من خلفي بصوت كاد أن يقتلع قلبي من بين ضلوعه، تحول الوحش إلى وحشين ثم إلى قطيع من الوحوش يركض خلفي بعزم ويدنو مني بسرعة، وعندما لفحت أنفاس أحد الوحوش عنقي أغمضت عيني والوحش يفتح فاه على سعته كي يبتلعني، نهضت من نومي مذعوراً وأنا ألهث، قفزت من رقدتي وأنا أتلفت حولي بخوف. نظرت إلى الجسم الأسود غير واضح الملامح الذي يقبع على مقربة مني، ظننته أحد الوحوش أتى ليلحق بي إلى هنا، أخذت أردد الآيات القرآنية بشكل عشوائي وأنا أبتعد عن المكان ثم تعثرت في شاهد قبر ما ولكني واصلت الابتعاد عن المكان مهرولاً وخيطاً من الدماء يسيل من ساقي المجروحة.

تطلع إلي بعد أن أكمل حديثه، عيناه تحملان واحدة من تلك الأشياء التي لا أفهمها، ربما تكون الحيرة، أظنه يتعذب، بحثت عن كلام مناسب ينجيني من حرج أني لا أجد كلاماً أقوله ثم تنبهت إلى

أني لا أعلم كيفية وفاة أمه فسألته عن الأمر، صمت قليلاً كأنه يستعيد ذكرياته ثم قال:

- كثيراً ما حذرني أبي من مرض أمي، لم أفهم كيف لامرأة في قوتها أن تصاب بالمرض، كانت أقوى من أي إنسان عرفته في ذلك الوقت، بل إني كنت أظنها أقوى من الطبيعة والمرض والموت. الموت يعني الغياب يا صديقي، وأمي كانت موجودة دائماً حتى في أوقات غيابها النادرة، تلاحقني توصياتها وتحذيراتها وأوامرها، كنت أظن أن الأمهات وجدن كي يقيدن من حركة أطفالهن، يضعنهم في مربع ضيق ثم ينتظرن منهم أن يمرحوا ويلعبوا فيه، هكذا كانت أمي، كنت أظن أن أوقات تمردي النادرة بعيداً عن عينيها ليست ذات أثر، فأنا تقريباً كنت بلا أصدقاء وكنت صموتاً فكيف لأمي أن تعلم بما أفعله؟

ولكن أمي كانت تعلم كل شيء، حتى عندما تحدثني نفسي بأمر ما وأفكر في القيام به أتفاجأ بإدراكها له، وكانت في الغالب تثور وتغضب لأتفه أمر قد يمر بخيالك، وتنعتني بالابن الفاشل والغبي والمتمرد وغيرها من النعوت السيئة حتى وقر في نفسي أني كذلك، ثم كثيراً ما يعقب ذلك إمساكها بصدرها وجحوظ عينيها وتلاحق أنفاسها، عندما تأتيها هذه الحالة كان أبي يؤنبني ويذكرني بأن أمي مريضة وليس عليّ إغضابها. تلك كانت من الأوقات النادرة التي أرى أمي واهنة وضعيفة فيها فعلمت أن للمرض جبروتاً لا يعادله جبروت، فأمي لا تضعف إلا أمامه، بل وأحياناً

وفي قرارة نفسي كان هناك شعور خفي بالعرفان له، فحين ينشب مخالبه فيها يجبرها على البقاء في غرفتها يوماً أو يومين فكنت أنطلق بلا رقيب أو حسيب، أمارس كل ممنوع دون خوف من مغبة الأمر وتبعاته، كان هذا إحساس خـــاطئ، شيء مثل سرقة النقود من أجل شراء الحلوى، ستظل هـــي الحلوى بذاتها ولكن يضاف إلى مذاقها هذا الوخز القلـــق فتلتهمها دون متعة حقيقية، ليس هذا هو المهم الآن، كل ما في الأمر أنني اعتدت على انفعالها وصرت بارعاً في تجنبه إلا في أوقات قليلة، ويوم وفاتها كان واحداً من تلك الأوقات.

تنهد عميقاً واتكأ بمرفقه على المكتب مسنداً خده عليه ونظر إليّ ساهماً، فنظرت إليه صامتاً. في الحقيقة أن ما يقوله يبـــدو مممـــلاً ولا أستطيع فهم نصفه، لو انتهت مهمة الأمهات بالإنجاب لكان ذلـــك أفضل للجميع، ما يحيرني حقاً هو تعلقه بها رغم كل هـــذا، هـــؤلاء الكتاب صنف مختلف من البشر لا أفهمه، يهتمون بأشـــياء لا تـــثير اهتمام الآخرين ويتعلقون بخيوط واهية مدعين أنها حبال متينة، مثـــل هذه الأم يستدعي موتها احتفالاً لا الحزن والندم، لا بد أن خيري هذا مجنون، ربما يحتاج إلى طبيب نفسي ولكنه لا يعلم.

- هيا أكمل لماذا صمت؟

بدا وكأنه أستيقظ من نوم عميق، اعتدل في جلسته ثم أكمـــل قائلاً:

- يومها كنا في مشوار لزيارة واحدة من صـــديقاتها، بيتـــها قريب من بيتنا، طوال الطريق كنت أركض حولها والطريق آمنة وخالية من السيارات تقريباً ولكنها كانت تصر على أن

أظل إلى جانبها وأكف عن العبث الذي أقوم بـــه، كنـــت أغافلها بين الحين والآخر فأفلت من قبضـــتها وأعـــود إلى الركض من جديد مستغلاً تجنبها الصراخ في الشارع العام. ثم أتت سيارة مندفعة من العدم وصدمتني، لم أستوعب مـــا حدث بالضبط، وجدت نفسي أطير في الهواء ثم أهبط على كثيب من الرمل بجوار مبنى قيد الإنشاء، بدا الأمر وكأنه لهو أو لعبة ألعبها، فنهضت دون أن أصاب بأدنى أذى وعدوت راجعاً إلى أمي ولكنها كانت تلهث في قوة وتشبثت بـــي وهي تتلمس جسدي وكأنها غير مصدقة نجـــاتي، مـــرددة بصوت لاهث: هل أنت بخير يا بني، لم تمهلني حتى أطمئنها، فجأة أمسكت بصدرها ثم شـــهقت وتهـــاوت إلى الأرض بجانبـــي، ما تبع ذلك من أحداث لا أذكره بشكل واضح، تزاحم حولنا ثم سيارة إسعاف والمستشفى وقلق أبـــــي ثم قالوا لي: أمك ماتت، لم أكن بالطبع مدركاً لمعنى المـــوت، هذا الغياب الأبدي الذي لا رجعة منه، ثم بدأت الأمور في التغير بوتيرة سريعة لم أستوعبها.

في ليال متباعدة كنت أسمع صوتها تناديني، أخرج مـــن غـــرفتي مستجيباً ولكنها تختفي قبل أن أعثر عليها، خاطبتها راجياً أن تغفر لي وأن تتحدث إليّ فلا يجيبني سوى السكون، ثم أتتني في النوم، كانـــت تبدو في أتم الصحة والعافية وإن كان خفقان قلبها القوي يظهر مـــن تحت ملابسها، كانت غاضبة وهي تؤنبني على فعلتي الخرقاء، بكيت ورجوتها أن تعفو عني ولكنها كانت ممتلئة غضباً فلم تستجب لي، ثم تأتي في ليلة أخرى وتنهاني عن الرسم رغم أني قد هجرته.

قطع كلامه وهو ينظر إليّ وكأنه تذكر شيئاً كان غائباً عن باله ثم قال:

- لم أخبرك من قبل أنني كنت أحب الرسم، بل أظنني كنت أملك موهبة عظيمة ولكن أمي كانت رافضة لهذا الأمر رفضاً باتاً وتراه مضيعة للوقت والجهد في ما لا يفيد وشاغلاً لي عن الدرس والتحصيل فحرمته عليّ تحريماً قطعياً، أظنها كانت مخطئة في هذا، ولم أكن أستطيع مواجهتها فامتثلت.

ظهر وكأنه يعاني عسراً في الكلام، تلعثم قليلاً ولكنه قرر المواصلة في حكيه الذي لا ينتهي.

- قلت لك إنها كانت تارة تنهاني عن الرسم ثم تارة أخرى تؤنبني على التبول في الفراش ولكنها تتناسى وحدتي وخوفي، لفتني الحيرة حيناً، ماذا أفعل كي ترضى عني، صليت لأجلها وقرأت القرآن، وأكثرت من الدعاء لها، أخبرنا المعلم في المدرسة أن الولد الصالح يستجاب دعاؤه لوالده المتوفى، ولكنها لم تكن ترضى أيضا فأنا ولد غير صالح في نظرها، ولد سيئ كما أنبأتني دائماً، وفي غمرة تخبطي لجأت إلى تنفيذ أوامرها، اهتممت بدروسي لدرجة الهوس، هجرت الرسم، أضحيت لا أخرج من البيت إلا إلى المدرسة أو المسجد أو في زيارات متباعدة مع أبي لأقرباء لا أهتم لأمرهم.

حفظت المقرر عن ظهر قلب، وعندما أتت الامتحانات أحرزت الدرجة الكاملة، أتيت فرحاً إلى البيت وأعطيت النتيجة لوالدي الذي جاملني بابتسامة باهتة، لم يفت ذلك

من عضد فرحتي، سأخبر أمي عندما تأتيني ليلاً، وستفرح، فها أنا أحقق رغبتها الأكيدة في نجاحي، وضعت الشـــهادة تحت وسادتي حتى لا أنسى، أرقت وأنا أفكر في رد فعلـــها عندما أعطيها النتيجة، وفي ساعة متأخرة من الليـــل زارني طيف النوم وأتت، ناولتها الشهادة بفخر، لاح شبح ابتسامة صغيرة في وجهها، ربتت على رأسي بشيء من العطـــف، ولكنها عادت لتذكيري بتبولي المتكرر، وبتفكيري الـــذي كثيراً ما يفر من صفحات الكتاب إلى الفراغ.

لا بد أنها دمعة تلك التي طفرت من عينيه وحـــاول مـــداراتها، كائنات حساسة تبكي من لا شيء وعلى لا شيء، يقاتل من أجـــل إرضاء امرأة متسلطة، يدرس بجد ويترك ما يحب لأجلها.

- هل تعلم أنني كنت أجتهد في الدراسة ليل نهار فقط كـــي أبتعد عن أمي وعن أي مكان توجد فيه بشكل عام، هـــل أنت مندهش من كلامي؟ حسناً سأشرح لك، الفناء الذي كنا نقطن فيه كان يحتوي على ثمانٍ وعشرين غرفة، كـــل غرفة فيها امرأة واحدة، كانت الغرفة الواحدة هي غرفـــة النوم وغرفة الضيوف وغرفة العمل أيضاً، أما نحن الأطفـــال فكنا نقطن في الفناء ولا يدخلنا الغرف إلا المطـــر والـــبرد القارص، هذا الفناء الواسع كان يقطنه الصوفي، رجل واحد برفقة هذا الرتل من النساء، يضع كنبته الخشبية عند مدخل الحوش وشيشته مشتعلة طوال اليوم نارها لا تنطفئ ليلاً أو نهاراً، مهمة الصوفي كانت حراســـة الحـــوش واســـتقبال الضيوف من الرجال طوال اليوم وقضاء حوائج النساء التي

لا تنتهي، كما كانت لديه مهنة أخرى غريبة لم تقابلني عند أحد بعده، كل مواليد الفناء من الصبيان والبنـــات كـــانوا ينسبون له.

حتى الآن لم أدرك ما هي الطريقة التي كان يتبعها الصوفي في استخراج عشرات شهادات الميلاد من مكتب الإحصاء في يسر دون أن يتعرض للمساءلة. كنا جميعاً في الفناء بمختلف أمهاتنا وسحناتنا المختلفة ننتمي لأب واحد، والذي كـــان الكل يطلقون عليه اسم عم الصوفي في مفارقـــة عجيبـــة، الأغرب من ذلك أنه هو من خلصني من حبل المشنقة بعـــد أن أصرت أختي لأمي على القصاص ولكنه قال في المحكمة إنه لا يود خسارة ابنه أيضاً، حيرني الأمر ولكنـــه تـــبرع بزيارتي هنا شاكراً إياي على قتلها مدعياً أنها كانت تقســم أجرة الزبائن وتخفي عنه القسم الأكبر منها سابقاً وعنـــدما تقدمت سنها وهرمت طال لسانها وكثرت مطالبها وأنـــني بقتلها قد أزحت عبئاً عن كاهله وأنه كان يفكر بشـــكل جدي في قتلها ههنا. بالطبع كان فظاً ولكنه هو الســـبب الرئيسي في أننا نجلس الآن ونتجاذب أطراف هذا الحـــديث الثقيل على نفسينا ههنا.

ما يحيرني أني شعرت بالراحة بعد أن تحدثت، هذا الخيري بحديثه العجيب يحرك فيّ أشياء لم أتعوّد عليها فأضطر إلى النبش في داخلـــي عميقاً.

فتح حقيبته وأخرج منها كتاباً وقدمه لي، ابتسم ابتسامة صغيرة ثم قال:

- هذا جانب آخر من خيري لا تعرفه، أعلم أنك تعتقد أن كتابة الروايات عمل تافه، ولكن هذه ليست رواية، قد تجيب على أسئلة كثيرة تخطر في بالك وقد تفتح باباً آخر للأسئلة يقودنا لمعرفة المزيد عن أنفسنا، اقرأها لأجلي ولو من باب التسلية.

وعدته بقراءتها وأنا أصافحه مودعاً، قلبت صفحات الكتاب بين يدي ثم نظرت إلى الغلاف، كان عنوان الرواية مكتوباً بخط متعرج (إيلات)، ورُسم على الغلاف لوحة لامرأة تحلق بعيداً متخذة دموعاً تطفر من عينيها أجنحة وعلى الأرض رجل ينظر إليها وهو جالس على مقعد للمعوقين.

(رونق)

الاثنين الثاني/سبتمبر/2013

قالت وطيف خيال زارني ومضى
بالله صفه ولا تنقص ولا تزد

لم تكوني سوى حلم عابر، أتى في سواد الليل مشرقاً ثم خبا، من اعتاد الظلمة يفرحه نور شروقك ومن يعمه ضياؤك يعود أعمى بعد غيابك الممتد حتى آخر العمر الذي يبدو بعيداً موحشاً مثل طريق قفر محكوم عليّ بالسير فيه وحيداً حتى آخره، هذا الطين منهك والروح تناديك حتى بُحّت حنجرتها وأنت لا تجيبين ممعنة في غيابك المتعمد

العنيد، سألت عنك أمس سؤال اليائس فقال عم النور أنه قـــد رأى طيفك يعبر من أمامه، شغلته كثرة الزبائن عن رد التحيـــة عليـــك، شملت طبليته المقفرة بعيني وقد تناثر في فراغها القفر صـــندوقان مـــن العلق وعلبتا دخان مشرعتان كنافذتين على شط مهجور، لم يرد عم النور على تحيتك من أجل أن يجني ربحاً زهيداً، ربما زحمـــة الزبـــائن كانت واحداً ابتاع سيجارة وتلكأ في أخذ العلكة بديلاً لما تبقى لـــه من مبلغ زهيد، لأجل هذا تجاوز عم النور تحيتك وتركها ملقاة على قارعة الطريق تمنح الحياة للعابرين.

- أين ألقتها؟
- قلت لك كانت عابرة من هنا.
- أين ألقتها؟
- لا أفهمك، هل تبحث عن شيء، مـــا بالـــك تنظـــر إلى الأرض.
- أبحث عن تحيتها الملقاة.

ضرب كفاً بكف، يظنني هذا المجنون مجنوناً، المجنون هـــو مـــن يتجاهل تحيتك ويتركها نهباً لسطوة الليل والريح، اندفعت أبحث عنك بروح جديدة في كل الأمكنة المحتملة وغير المحتملة، وجودك في هـــذا الفضاء منذ ساعات قليلة رد عليه الحياة، للحظة ظننته متواطئاً معك، فحتى المقعد الإسمنتي القابع خلف القاعة القديمة كان يغير من جلوسي معك وينصت لأحاديثنا على مضض، لو أنك جلست عليه بـــالأمس لاجتهد في إخفاء أثرك كأن لم تكوني و لم تأتي، سألت خالتي انتصار ست الشاي عنك ولكنها جزمت بعدم رؤيتها لك، انتصار صـــادقة وطيبة على الدوام ولكن التواطؤ له سطوة على القلـــب والـــروح،

الجميع كاذبون حتى تعودي مرة أخرى ويكتحل القلب بطيب مرآك فيعود إلى العالم شكله المعتاد المحايد، ها نحن ندخل الآن على عامنـــا الثاني، وأنا شوكة الساعات توقفت عندي في تلك الليلة، يخـــادعني الزمن فتنبت لحيتي وأحلقها ويعضني الجوع فأقتات الفتات، ثم يـــأتي الليل بغتة ويعقبه نهار آخر، فليل فنهار، ولكن الزمن لا يمضـــي، مـــا زلت معلقاً بعينيك الدامعتين، وبغبائي وحمقي وبحبـــي الذي احتـــل كل مسامات الروح واستمرأ السكنى فدام.

رواية إيلات ص (212)

ترى هل مضى الزمن يا خيري أم ما زلت أسير تلك اللحظة، ثم ما الذي أريده منك على وجه الدقة، وقفت ببابك أبحث عن أمـــي فوجدتني أبحث عن ذاتي بين عينيك، أنت رجل متزوج على حافـــة الستين وأنا امرأة بلا هوية أبحث بين أضابير ذاكرتك عن أم تجاوزتني في زحمة الحياة وذهبت، هذه العلة الواضحة ولكني أدرك جيـــداً أني أسيرتك التي وقعت في الفخ بكامل اختيارها ولا ترغب في المغـــادرة، عليّ أن أقاتل فيك امرأتين بمطلق الأنانية؛ زوجتك وأمي، ولا أتـــوانى عن القتال حتى أفوز بك أو أهلك دونك فليست هذه حياة أحـــرص عليها، أنت من أضفت لها معنى ونبضاً وحياة.

أخرجت الجوال من حقيبتي، ترى هل من المفترض أن أتصـــل، هذا هو اليوم الرابع منذ التقينا ولم يتصل بـــي، ربما لم يصب بـــذات اللهفة التي تقتلني.

- خيري.
- رونق.

- أريد أن أراك.
- لِمَ لا تأتين؟
- أود أن ألقاك بعيداً عن بحيرتك الزرقاء.

ضحكته تشعرني بأني أرقص.

- ألا تحبينها.
- تشعرني بالدوار.
- حسناً أين سنتقابل.
- هناك مقهى صغير ولكنه هادئ في الأمسيات.

لم أكن مدركة لصواب اختياري فخيري يبدو متحفظاً.

- لا بأس ما دام ذلك يريحك.
- نلتقي عند الثامنة مساء.

ألقيتها سريعاً قبل أن أتراجع.

- حسناً، ما هو عنوان المقهى؟

أعطيته العنوان وودعته ثم أنهيت المكالمة، نظرت إلى الساعة، ما زالت الحادية عشرة صباحاً بيننا تسع ساعات طوال، اتصلت هبة، مكالمة طويلة مملة، أنهيتها دون متعة حقيقية، الحادية عشرة والربع، شذبت أظفاري، صففت شعري، أعدت ترتيب غرفتي ثم أعدت ترتيبها مرة أخرى، الثانية عشرة وخمس دقائق، تناومت و لم أنم ثم بعد نصف ساعة أعلنت فشلي، نهضت، تناولت حقيبتي وأخرجت صورتها ثم استلقيت على السرير، كانت جميلة لا شك في ذلك، وعيناها تحملان ذات النداء الذي لا يهدأ، كأنها صياد يفرد شبكته على مهل عند السحر، وشفتان مغريتان، قاتلتان، كأنها كانت على وشك الابتسام ولكن غيرت رأيها عن منتصف

البسمة فكانتا منفرجتين نصف انفراجة مع عينين مبتسمتين، نحن متشابهتان مختلفتان في آن، لديها شيء لا أملكه، تلك الروح المتوثبة التي تكاد تقفز من الصورة لولا أن الإطار يكبلها، شعرت للحظة بالغيرة ثم بالدهشة، الأمر كله يبدو غريباً، أبحث عن أمي وأغار منها، تشبهني وتختلف عني، تفرقنا الحياة ويجمعنا رجل واحد، نظرت إلى الساعة بعد أن أعدت الصورة إلى الحقيبة، الثانية ظهراً لا بأس، أعددت سندوتشاً صغيراً ووضعته أمامي على الطاولة، معدتي مضطربة ولا رغبة لي في الطعام، الثانية والنصف، وضعت السندوتش في الثلاجة، أعددت كوباً من الشاي، تناولت رواية إيلات للمرة الخمسين بعد الألف، ألقيتها جانباً، يكفي ما حكاه حتى الآن عن حبها، تجرعت الشاي وكأنه دواء، أشعلت لفافة ودخنتها في شره، واحدة أخرى، الثالثة والنصف مساء، أخذت دشاً سريعاً وقررت زيارة هبة في مقر الصحيفة، لو ظللت هنا حتى الثامنة سيصيبني الجنون.

أجبرتها على العودة معي إلى المنزل قبل الذهاب إلى المقهى، لم أكن واثقة من هندامي رغم إصرارها على أناقتي، عندما تبرجت ورأتني أطلقت صفارة طويلة من بين شفتيها لمّت القليل من ثقتي المبعثرة.

- خيري محظوظ بلا شك سيحظى بأمسية ساحرة.
- ليس الأمر كما تظنين سنتناقش حول رواياته فقط.
- وهل يستدعي النقاش كل هذا التبرج والجمال؟
- هل يجب أن أقابله مرتدية بنطالاً من الجينز وقميصاً قطنياً حتى أقنعك.

حاولت أن أجعل من لهجتي عدائية ولكني بـــدلاً مـــن ذلـــك انفجرت ضاحكة من دون سبب واضح، شاركتني الضحك فخــف توتري وولجنا المقهى في تمام الساعة السابعة والنصف مساء، لم ننتظر كثيراً، أتى مبكراً عكس ما كنت أتوقع، ليت دافعه يكون اللهفة ولا شيء آخر، صافح هبة ونطق باسمها باسماً ثم جلس قبالتي، كان يبـــدو قلقاً ومرتبكاً، بدأ الحديث متعسراً ثم لم تلبث هبة إلا قليلاً واستأذنت من أجل مشوار طارئ.

- اشتقت إليك.

طرفت عيناه عدة طرفات سريعة خلف نظارته الأبوية

- لم نلتقِ سوى مرتين، ألم نتعجل الشوق قليلاً؟

- أشعر بأني أعرفك منذ كنت نسمة في ظهر أبينا آدم.

اتسعت عيناه ثم ضحك ضحكة صغيرة.

- لقد استعرت هذه العبارة من واحدة من رواياتي.

- مطر أسود، الفصل السادس، الصفحة 152.

إحساس الدهشة كان جميلاً في عينيه الطيبتين، يشعرني أحياناً أنه طفل صغير تدهشه ألاعيبـــي الصغيرة، عندها أشعر برغبة في قرصـــه على خده.

- أنا أحفظ رواياتك غيباً.

- هذا مدهش غير منطقي أنت تفاجئينني، لا يحلم الكاتـــب بنصف هذا في أقصى أحلامه، أنتِ من أنتِ؟

- أنا كل نساءِ الأرض ما عدا زينب.

قسوتي جعلته يرتد إلى الخلف كأنما ارتطم بجدار غير مرئي.

- أنتِ بعض منها، أنتِ ابنتها.

- أنا إنسانة مستقلة بذاهما، أنا رونق ولست زينب، زينب لن تعود مرة أخرى.

صمته المرتبك أثار شفقتي ولكني أريده فرداً، لست راغبة في نزعه من ذكرياته ولكني أود أن أكون مستقلة عنها، تركت موج الحديث ينخفض ويرتفع منساباً بيننا، حدثني حديث الصديق القريب والأخ والأب الحنون، وعندما انتصف الليل فاجأني غدر الوقت الذي كان يتلكأ نهاراً ويتقافز الآن في جنون، وعندما أتت هبة للمقهى كنت ممتلئة به حتى خشيت أن تلمحه هبة في عيني فأسبلتهما وعندما انصرف لم يكن لي رغبة في التدخين كنت أرغب في الانفراد بنفسي واستعادة تلك الأمسية وتذوقها مثل كوب الشاي في ليلة قارصة البرودة.

(كوثر)

فاجأني التقارب بيننا في الرؤى، كأننا رفيقان منذ بداية العمر، نهتم لذات الأشياء وتسعدنا ذات التفاصيل، الحكايات التي تبدأ منه تنتهي عندي وتتشعب حتى تفضي بنا إلى نهاية لا علاقة لها ببداية النقاش، الجانب الآخر منه كان لطيفاً ومحبباً فألفته سريعاً، لم يسألني عن قبولي للمنصب من عدمه، موافقتي كانت واضحة ولا تحتاج إلى نقاش، كان متعاوناً ما جعل الأمر يبدو سلساً وسهلاً إلى حد بعيد، القرارات الإدارية كانت بالنسبة إليّ طلسماً لا أستطيع فك رموزه ولكنه كان يتعامل مع الأمر ببساطة مذهلة وخطوات مدروسة ومعلومة مسبقاً، كل إجراء يسبقه إجراء سابق ويتبعه

إجراء لاحق، المتابعة اللصيقة لاستراتيجية القناة وأهـــدافها علـــى المدى القصير والطويل في آن. بدأت أتفهم الوجه الصارم الـــذي يرتديه طوال اليوم، فتصريف الأعباء الإدارية بالشكل الأمثل يحتاج لهذا الوجه كثيراً. مرت الآن ثلاثة أيام وأنا أشاركه ذات المكتـــب معظم اليوم، لا أغيب إلا لمتابعة الإعداد للحلقة القادمة من برنامجي ثم أعود لملازمته، هذا التقارب غير المتوقع كسر الكثير من المفاهيم الخاطئة التي نسجتها حوله، ظهر لي محجوب الآخـــر، اللطيـــف والصبور لأقصى درجة، المعلم الجيد الذي يسلك مختلف الطـــرق لإيصال المعلومة إلى تلميذته، أحاول تقمص دور التلميذة المجـــدة النجيبة ولكن كثيراً ما كان الأمر ينتهي بضحكنا معاً من فشـــلي المتكرر.

عند ظهر اليوم الثالث هدأت حركة المكتب قليلاً بعـــد نهايـــة اجتماع مع وكيلين حصريين للإعلان في البرنامج الرمضاني للقنـــاة. كنت أشعر بإرهاق فظيع، لم أنتبه إلى أنني ذهبت في غفوة صـــغيرة على المكتب، حين أفقت وجدت المكتب هادئاً فشـــعرت بالـــذعر وعندما ذهبت إلى مكتب السكرتيرة وجدته جالساً برفقتها ويمـــارس عمله بشكل طبيعي، شعرت بالإحراج والارتباك ولكنه حوّل الأمـــر إلى مزحة صغيرة مؤكداً أن الإرهاق كان يبدو واضـــحاً علـــيّ في الاجتماع، عدنا معاً إلى المكتب، شكرته مرة أخرى علـــى حســـن تفهمه وتعامله الراقي ثم غلبني الفضول فقلت:

- طوال فترة عملي لم أرَ هذا الوجه عنك، كنت أظنك تنـــام عابساً وتستيقظ أشد عبوساً.

ضحك ثم ظهر الأسف على وجهه قائلاً:

- متطلبات العمل هي التي تفرض عليّ هذا، أنا خارج أوقات العمل إنسان عادي.
- عندما يخبرني بقية أفراد الطاقم بأنك كنت تمرح معهم في رحلاتكم المتباعدة وتجمعاتكم خارج أوقات العمل لم أكن أصدقهم.
- غيابك الدائم عن نشاطنا الاجتماعي هو ما أفضى بك إلى هذا الانطباع الخاطئ.
- صراحة لا أجد نفسي في تلك التجمعات، ولكن الآن يتبين لي أني كنت الخاسر الأكبر من وراء ذلك.

نظرت إليه ثم أكملت في تردد:

- ربما كان الأمر أكثر يسراً وسهولة لو عرفتك على حقيقتك منذ البداية، طالما ظننت أن بيننا حرباً غير معلنة ويجب أن أنتصر فيها.

ضحكت في حرج وأنا أنظر إليه باحثة عن انطباع كلامي عليه، فابتسم ثم قال:

- كثيراً ما وصلني هذا الإحساس منك، ولكني على العكس كنت معجباً بك إلى حد كبير وبنجاحك المستمر وتألقك الكبير، ومدركاً لأهمية الدور الذي تؤدينه للقناة.

تناولت حقيبتي وشكرته للمرة الثالثة ثم استأذنته بالانصراف، وودّعني مع وعد الالتقاء غداً. مررت في طريق خروجي بالاستديو لمجرد الاطمئنان فقط ثم قدت سيارتي متجهة إلى البيت.

في الثلاثة أيام الماضية وقعت في فخ المقارنة بين خيري ومحجوب، طبيعة عملي جعلتني أحتك بالرجال كثيراً بمختلف مشاربهم وصفاتهم

ولكني كنت أتعامل باحترافية اعتبرها الكثيرون تعالياً وغروراً و لم أكن أهتم بذلك، هذا الاحتكاك أكسبني الخبرة في معرفة الرجل بمجـــرد مصافحتي له. قلب محجوب ثقتي في فراستي إلى الضد، طوال الأعوام العشرة الماضية وأنا أضع له تصوراً خاطئاً وأعامله على أساسه، كثيراً ما سألت نفسي عن الدافع الذي جعلني أتزوج خيري، أقنعت نفسي بتفانيه وحبه لي وبدعمه اللامتناهي لعملي، بثقافته العاليـــة وتهذيبـــه وحسن أخلاقه واحترامه لي، أقنعت نفسي بهذه الفكرة حتى آمنت بها وركنت لها، لن أدعي أمام نفسي بأني كنت صغيرة وغير مجربة ولكن الرجال مثل محجوب قلة، لم أقابل رجلاً مثله من قبل، حقيقة ما كنت أبحث عنه هو الدعم والتفهم من غير انتقاص للنفس والتعاون من دون إلغاء الذات، والمناصرة من دون تلاشي الشخصية، ثلاثة أيام علمتني مدى الخواء الذي عشته طوال سني زواجي، قد يكون خيري صديقاً جيداً ويملك عدداً من الخصال الحميدة ولكني كنت أحتـــاج لقـــوة تدعمني لا لضعف. أنا مقتنعة أن أي عاصفة تمر بحياتنا سأضـــطر إلى مواجهتها وسيظل خيري من خلفي يأتمر بأمري، ما أفكر فيه الآن أمر مرعب ومخيف، شعرت بالعالم المحيط بـــي هشّاً ومتداعياً، لا يوجـــد فيه ساعد رجل يسنده إن تهاوى.

ولجت البيت الهادئ وذهبت إلى غـــرفتي كالمعتـــاد وغـــيرت ملابسي، من المفترض أن خيري ذهب إلى الجامعة وعادة ما يأخـــذ قيلولة بعد عودته، الفراش كان مشدوداً، ربما شغله أمر ما، وربما تلك الرواية المنكب عليها منذ أيام. طرقت باب الصالون ثم دفعته، لم يكن هناك، شعرت بحاسوبه يناديني فأجبت، رواية "طين لازب" كانـــت على سطح المكتب، فتحت الملف وشرعت في القراءة، لا أدري كم

مر من الزمن ولكن عندما انتهيت كنت ألهث كأني أعــدو، قلبــت الأوراق المتناثرة في المكتب حول حاسوبه، تناولت إحداها وشرعت في القراءة:

"سليم الصوفي، شبيهي ونقيضي في وقت واحد، قتل أمه لأنه لم يعثر عليها وأنا قتلتها لأني لم أعثر على نفسي بصحبتها، نحن قــاتلان تفصل بيننا قضبان السجن، عندما أجلس إليه أرى نفسي ولكن لهب الحياة صهرنا بشكل مختلف، هل مثل سليم يُعتبر قاتلاً بالفطرة أم هو مجبر على القتل، لو لم تكن أمه هي أمه هل سيكون قاتلاً؟ ربما هــو مظلوم وربما أنا متحيز له بحكم عقدة الذنب المشتركة ولكن أسـئلتي مشروعة أيضاً ففي إجابتها توجد الكثير من الإجابات التي تؤرقني. في جلستنا..".

لم تكن بقية الكتابة مقروءة، كأنه كتبها وهو متعجل أو ينظر في اتجاه بعيد عن الورقة، قلبــي يخفق وأنا أقلب قصاصاته المبعثرة، ورقة أخرى:

"زينب لعبة الزمن البارعة التي ابتلعها ربع قرن مــن الزمــان ثم خرجت رونق من ثنايا منديلها كساحر بارع، رونق حلــم الأمــس الذي استحال حقيقة تنبض بالحب والحضور الممتد الذي لا يهــدده غياب".

رسم باهت لنصف وجه غير واضح المعالم، كلمات مبعثــرة لم أفهم ما يُراد منها، مقهى كوين.... الصورة الأخيرة.... هي ليســت هي.... كوثر.

خفق قلبــي وأنا أقرأ اسمي في ثنايا بعثرتــه الغامضــة متبوعــاً بعلامتي تعجب، القلم مر على حروفي كثيراً حتى تضــخم الاســم

وكبر، كان غارقاً في التفكير وقلمه يعبر فوق حروفي، ترى ما الذي كان يفكر فيه؟ وما هي نتيجة ما توصل إليه؟ نهضت من مكاني، تعثرت وأنا خارجة من الصالون، عجيب ما أشعر به الآن، لأول مرة أشعر أني أعيش مع رجل لا أعرفه، تنزاح ستارة الماضي فاكتشف وجود امرأة مختبئة هناك، تتدثر في خبايا ذاكرته، هذه الرواية لعنة، استدرت راجعة إلى الصالون، وواتتني رغبة في إزالتها ولكني توقفت عند منتصف المسافة، شعرت بالخوف من رد فعله، خيري العاقل الهادئ على الدوام لا يمكن أن يكون مخيفاً ولكني خفت، تراجعت خارجة من الصالون وأغلقت بابه خلفي في هدوء، فزعت عندما وجدته في وجهي، ارتبكت محاولة مداراة جزعي، خرج صوتي مرتجفاً:

- مرحباً لم أنتبه إلى قدومك.
- مرحباً.

انعطف نحو غرفة النوم تاركاً إياي واقفة في مكاني، لماذا لم يستفسر عن سبب وجودي في الصالون؟ لماذا لا يسأل عن شيء؟ خيري منذ فترة لا يهمه ما أفعله ولماذا أفعله، كأني لست موجودة وأشاركه حياته، للتو اكتشفت وجود امرأتين في حياته مختبئتين بين روايته وقصاصات أوراقه ولا أجرؤ على أن أسأله، هل أنا خائفة منه أم خائفة مما سأعرفه لو سألت؟ تهاويت على مقعد في الصالة غير مدركة ما يجب عليّ فعله لتدارك ما يحدث ومحاولة استيعابه.

(خيري)

(رواية طين لازب)

(الفصل السادس)

مطعم المتوكل أضحى محطة ثابتة في حراكي اليـــومي وتحـــت إلحاح عم صالح أضحيت شبه مقيم فيه، هيأ لي غرفة صغيرة ملحقـــة بالمطعم يتخذها مخزناً راجياً مني استخدامها حـــين يســـوء الجـــو في الخارج، كما خلصني من عبء حقيبتي التي كانت تثقـــل كـــاهلي فوجدت مستقراً غير كتفيّ المرهَقين، الغرفة بأثاثها البسيط المكون من سرير ولا شيء آخر ورائحة تموين المطعم المخـــزون مـــن زيـــوت وصابون وسمن جعلت الجو فيها خانقاً، أعطاني الغرفة على مضـــض بسبب رفضي الإقامة معه في البيت، كيف يتأتى لأحد هذه القـــدرة العجيبة على العطاء؟ وعندما وجدني مصراً على الرفض اقترح علـــيّ الإقامة في هذه الغرفة وتأجيل النقاش إلى وقت آخر، قبلت مكرهـــاً فالرفض المتكرر يكسر النفس ويخنقها، فوجئـــت ذات ليلـــة بهديـــة تنتظرني في الغرفة، كانت عبارة عن علبة ألوان وأدوات كاملة للرسم مع حامل لوحات خشبـــي جميل، ففررت من الغرفة إلى الطرقـــات الخالية.

عم صالح رغم طيبته التي خبرتها جيداً لم يســـتطع الغـــور إلى داخلي، ما زال يظن أن الخير كله في تقديم الأكل والفرش وغيرها من الماديات، لا بد أن دافعه لتقديم هذه الهدية كان خيراً وطيباً مثله ولكنه أصابني في مقتل. مر اثنا عشر عاماً وأنا أفر من الريشـــة – الخنجـــر، وورق الرسم، المسامير، والألوان التي تزيف حقيقة الحيـــاة، حامـــل

الرسم المنتصب في منتصف الغرفة مقصلة هوت على سلامي ففصلته عن روحي وعدت إلى لحظة الصفر مرة أخرى، شعرت بالحنين يصفعني مصحوباً بالألم والندم والحزن والشوق وعظم الافتقاد، تيار من المشاعر اجتاحني حتى كاد أن يزهق روحي ففررت. عندما مرقت من أمامه كالسهم سمعته يهتف باسمي ولكن لم أكن أستطيع أن أتوقف، كنت أريد الابتعاد قدر الإمكان، لو أن الأمر بيدي لأعدمت كل أدوات الرسم في الدنيا خاصة الحوامل التي لا تحفظ الذكريات، التي تقف متفرجة عليها وهي تستحيل إلى رماد تذروه الرياح وتستنشقه الأرواح العطشى منغرساً فيها كالمسامير، حوامل اللوحات خائنة للأمانة، خانت أمانتي الوحيدة فلماذا تطاردني الآن.

غبت عن المطعم عشرة أيام، ظللت هائماً في الطرقات، لم أتناول خلالها سوى الماء والخبز، الجسد مطية الروح ولكن الخضوع له يحرمها نعمة التحليق فتركن إلى الطين البائس وتستكين إلى ندائه فلا يشفى لها جرحٍ ولا تبرق لها سماء، لذلك كنت بحاجة إلى رحلة حج عظيمة بعيداً عن هذا الجسد الأرضي. غسلت روحي بماء الذكرى وطيب الحكايات وأيام الوصل فانتعشت، وعندما عدت إلى المطعم كان جسدي البالي على وشك الانهيار، تلقاني عم صالح في الباب، ولم أعِ بعدها ما حدث، أيام المداواة ومحاولات إقناع الجسد بوقف ثورته على ما يلقاه من معاملة مهينة استغرقت وقتاً قضيته بين النوم واليقظة والأحلام المضطربة ووساوس النفس المتداخلة.

قلت له بضجر:

- ألم يرحل قريبك حتى الآن؟

- والله إن ما بـــي يفوقك ولكن ما باليد حيلة، الصبر حـــتى تنقضي أيامه في المدينة ثم يقفل راجعاً.
- ولكني أحتاجك.
- وأنا أيضاً.
- تباً لك ولقريبك، سأذهب كي أطرده.

الفزع الذي كسا ملامحه أجبرني على التريث:

- ستفضحني وسط أهلي، سأرحل بلا عودة.

أمسكت بكتفه وهززته بعنف.

- لا تقل مثل هذا الكلام.

الجسد مقبرة الروح، وحاجاته لا تنقضي وكلما سجدت لـــه الروح طالبها بسجود جديد. يهيل عليها تراب الحاجة فتتنازل حـــتى تخنع، عندما وجدتهما معاً في الغرفة وقف قريبه كالطود وهو ينظر إليّ شذراً في حين غرق هو في محاولات التبرير والاعتذار، ولكن هذا أول طريق الشفاء. خرجت من الغرفة ومن حياته، أقصيته كأن لم يكـــن، وكتمت صرخات جسدي واعتراضه حتى كاد أن يهلك، صـــمدت أمام توسلاته المتكررة وهو يقف أمامي باكياً، الخيانة لا غفران لهـــا وهو خائن، ورويداً رويداً تحول الاحتياج إلى اكتفاء والشوق إلى شبع والحب إلى مقت، ما عدت أطيق رؤيته يعمل في الحديقـــة فأتعمـــد مضايقته واحتقاره حتى ضجر، حاول تجنبـــي حين أكون موجـــوداً في المرسم أو جالساً عند العريشة ولكني كنت أترصده من غرفتي وما أن أراه متجولاً في جنبات الحديقة حتى أعترضه باذلاً له مـــن اللـــؤم والفجور ما يجبره على ترك المكان، ثم لم يلبث أن أعلن استســـلامه وغادر للأبد، متحججاً لأبـــي بكبر سنه وحاجته للراحة.

ظننت بذهابه أني سأشفى ولكن مقتي كبر وزاد وكلما تذكرت حالنا معاً شعرت بالقذارة فأغتسل حتى أضحى الأمر مثل الوسوسة فأغتسل عدة مرات في اليوم. حاولت إخراجه من داخلي برسمه، فرسمت له عشرات اللوحات وضعت فيها كل خيال مريض وكل فكرة تنتابني للانتقام منه. غرست في جسده عشرات السكاكين، جعلت وحوشاً تفترسه، ألقيته من حالق، ولكن انتهى بي الأمر إلى كره جسدي، صرت أحتقره وأحتقر حاجاته، تلك الفترة من حياتي كانت نفقاً مظلماً عبرته بمشقّة عظيمة ولكن عندما خرجت من جانبه الآخر كنت اثنين، جسداً محتقراً وروحاً تتسامى عليه حتى تكاد أن تنكره، وظللت على هذه الحال حتى أشرقت هي في حياتي.

أجبرني عم صالح على تناول الطعام والشراب واستخدام العلاج حتى بدأت العافية تدب في طيني المنهك، منعني من العودة إلى الشارع حتى أستعيد عافيتي كاملة، فقضيت الوقت بين الغرفة والمطعم، نسمر معاً في الليل وأحياناً ننصت للإذاعة في هدوء الليل وهي تبث الأغاني بشكل عشوائي حتى تعثرت في العطبراوي ذات ليلة فكدت أهلك.

ارحميني، ارحميني
في الأسى ضاعت سنيني
فإذا مت اذكريني
كل صداح على الأيك يغنيه حبيب
وأنا بين الورى في هذه الدنيا غريب
ليتها يا بلبل يوماً لنجواي تجيب
ذهب العمر ومالي من لياليها نصيب
ارحميني، ارحميني.

أنا الغريب غربتين، غربة عن العالم وغربة عنــك، لم تتمهلــي لتدركي أن الكون المألوف هو عيناك حين تضحكين ومــا دونهمــا وحشة تعقبها وحشة يعقبها عذاب، أنا الغريب في مدينتي، تــركلني نحو أزقتها وتحتويني شفقة رجل مكلوم، ذات الأزقة التي بذرنا فيهــا الحب والحياة والأمل، عادت جدباء حين افترقنا منكرة إيقاع خطاي وكأنها لم تخبرها يوماً.

هات لي زادي من الحسن وقيثاري وكوبي

إن يكن حبك ذنباً فأنا أهوى ذنوبي

ها هنا أيك زغاريد وأعشاش القلوب

ما أرى فيها سوى إلفين كاللحن الطروب

ارحميني، ارحميني.

ولكني بلا زاد سوى الذكريات، حتى نصف وجهك الــذي ادّخرته للزمن استحال عوزاً وندماً وحســرة، نصــف وجهــك المبتسم ضنّ عليّ ببعض العزاء، ارحمــيني فــلا طاقــة لي علــى الاحتمال.

أيها البلبل خذ أنشودة العشاق عني

وتعلم كيف تحيا للهوى العذري مني

بيتها في القلب مهجور ولكني أغني

أنا الشاعر يا بلبل دنياي التمني.

أذكر تلك الليلة وكأنها بالأمس القريب، أتتني هادئة فــوق العادة، خالية من المرح، مثقلة بالحزن بادية الإرهاق، قالت بصوت متعب:

- سأغادر.

رددت بتلقائية:

- سأموت.
- لك في الرسم عزاء عن كل فقد.
- أنت لوحتي التي لا أملها.
- أنا لك ولكنك لست لي.
- أنا لست لي، لكني لك.
- كيف يكون ذلك وأنت تقصيني بتصوفك المحير.
- الروح أبقى.
- لكن للجسد سلطانه.
- الجسد دنس.
- ولكن له سلطانه.
- لو استمعت إلى ندائه هلكت.
- أريد نداء الحلال.
- حلاله حرام.
- سأرحل.
- بيتك في قلبـــي.
- سأهجره.
- وأنا؟
- أنت ماذا؟
- لا أصلح للحياة بدونك.
- إذاً فمت، لا حاجة لي بحياتك.

يأسها كان حارقاً وأنا تفلسفت حينما كان ينبغـــي أن أكـــون إنسانا، وهذا العطبراوي يغمس صوته في الألم ثم يطلقـــه ليصـــيب

قلبـــي الخواءِ فيحتله، أنا ميت يا عطبراوي فارحمني.

ارحميني، ارحميني
نحن يا حب كأسان من الحب مُلئنا
ونحن شريانان جريحان التقينا فبرئنا
في مجال الحسن يا بلبل ها نحن التقينا
ما علينا إن ملأنا الكون سحراً ما علينا
ارحميني، ارحميني.

امتلأت بها حتى تدفقت، وشفيت جروح أمسي حتى أملت في الغد، ثم طواها الغيب وواراها الغياب، هل لروح أثقلـــها المـــوت أن تعيش، الموت هو الغياب السرمدي، أنت ميتة بغيابك وأنـــا ميـــت بغيابك أيضاً، آه من كبدي الذي احترق وراءك.

يا حياة القلب قد طال إلى حبـــي حنيني
وأنا وحدي فإن شئتِ إلى حبـــي خذيني
هذه دنياي مالي في الأسى ضاعت سنيني
سئمت روحي حياتي فإذا مت اذكريني.

ركلت المسجل بقدمي، بعض الغناءِ يقتل، والعطـــبراوي قاتـــل محترف، نظرت إلى عم صالح يائساً فابتسم في تسامح ثم قال:

- الأرواح المكلومة بلسمها السلوان، تعلم كيـــف تنســـى، فالذكرى خنجر يستله الأمس في وجه اليوم والغد.

الفصل السابع

(سليم الصوفي)

- هذا الرجل مجنون بلا شك.
- من تقصد؟ مصباح؟

نظرت إلى دريابـــي في غضب، التعامل مع الأغبيـــاء مرهـــق دائماً، تباً لظروف السجن التي جعلت مثل هذا أنيساً لي.

- أقصد خيري.

قهقه عالياً ثم قال:

- لو لم يكن مجنوناً ما أعطاك كل هذا المال مقابل ثرثـــرة لا طائل من ورائها.
- الغريب أنه هو من يثرثر ولست أنا، ولكن ليس هـــذا مـــا أعنيه، نظرة هذا الرجل إلى المرأة عجيبة لا أفهمهـــا، هـــل للمرأة قيمة بعيداً عن الفراش يا دريابـــي؟

علامات عدم الفهم التي انطبعـــت علـــى ملامحـــه أثـــارت حنقي.

- ومن أين لك أن تعلم، أنت قضيت بين هذه القضبان جـــل حياتك، أنت لا تذكر حتى شكل المرأة.
- بل أذكر يا رجل أذكر جيداً ولكن مثلك لن يفهم.
- ههه، لا بد أنك تذكر زجر أمك لك.

- أمي ماتت منذ صغري، بل هي الأخـــرى حـــرمني منـــها السجن، لا بد أنها تزوجت الآن ونسيتني.

وجهه بدا قاتماً مثل سماء غطتها السحب ثم عاد للانشراح وهو يضحك، نافضاً هذا الدريابـــي الغامض الذي لا أفهمه.

- هيا احكِ لي عن صاحبك.

اعتدلت في جلستي ثم قلت:

- بالطبع أنت تعلم أنه كاتب مهم وعالمي.

نظرت إليه بطرف عيني كي أرى وقع كلماتي عليه.

- نعم قلت لي إنه روائي مشهور.
- أعطاني رواية من تأليفه، رواية عظيمة، بالطبع أنت لا تقـــرأ الروايات فهي هواية يختص بها المثقفون مثلي.

أومأ برأسه موافقاً وهو ينصت باهتمام.

- البطل في هذه الرواية تجاهل حزن حبيبته وتدلل عليها، وهذا وضع مختل بالطبع، فالنساء خلقن للدلال ونحن وُجدنا مـــن أجل خداعهن كي نقطف ثمارهن اليانعة. هذه هي اللعبـــة منذ بدء الخليقة، ولكنه هنا يعكس الوضع، ترى مـــا هـــو الرأي الفلسفي الذي يحاول خيري إيصاله.

رفع كتفيه مقراً بجهله، أومأت برأسي متفهماً، لا بد أن أزيـــده إيضاحاً.

- عندما يكثر من دلاله عليها تقرر حبيبته الابتعاد، نحن مـــن نتخذ قرار البعد عنهن وليس العكس، البراعـــة في تخيلـــهن العكس، تلك لعبة يجيدها الرجل، ولكن خيري هنا جعـــل القرار بيد المرأة، وهذا وضع معكوس أيضاً.

هل فهمت الآن؟

حرك رأسه نافياً، غباء عجيب.

- يأتي خيري بعد هذا ليجعل البطل يبحث عنها ويبكي فراقها ليل نهار، البكاء للنساء ولكن خيري يعكس الوضع هنا أيضاً، ألم تفهم حتى الآن.
- لا لم أفهم يا سليم. لماذا لا تشرح لي وتريحني من هذه الألغاز.
- سليم، هيا انهض. مواعيد زيارتك اليومية.

نهضت ثم قلت بنفاد صبر:

- مثل خيري قد نراه مجنوناً ولكنه فيلسوف عظيم، نتهمه بالجنون لأننا لا نستطيع سبر غوره، في الجامعة كنا ندرس شعر الحلاج، شعر طلسمي وإن كان الجميع يدعي فهمه، الحلاج فيلسوف عظيم لأن كلامه غير مفهوم وبالتالي يصعب سبر غوره. خيري هذا هو حلاج هذا الزمان يا صديقي.

ذهبت نحو المكتب وأنا أشعر بالرضا مما قلت، **لا بد** أنني رجل عظيم كي يصادقني هذا المجنون، كم كنت مغفلاً حين لم أكتشفك في الجامعة يا صديقي العزيز.

صافحني بمودة ثم جلسنا، أنبأته بأني قد أكملت قراءة الرواية، أومأ برأسه ثم فتح حقيبته وأخرج رواية أخرى، "رجل بلا ظل"، لا بأس، يبدو الأمر مسلياً، أطرق برأسه قليلاً ثم قال:

- أرغب اليوم في الحديث عن أعوام العزلة، هكذا أسميها، سنوات مراهقتي كانت عزلة كاملة خالية من الأصدقاء

والحب كما يعيشه جميع المراهقين، خالية من الأب أيضاً، لم يكن هناك سوى الكتب.
صمت قليلاً وهو يحك ذقنه ثم قال:
- بدأت هذه الفترة بعد موت أمـــي ثم تصـــاعدت بعـــد زواج أبـــي وانشغاله بعروسه الجديدة، كنت أفـــر إلى الحديقة وأصادق حيواناتها البكماء وأحادثهـــا محادثـــة الأليف حتى اكتشفت الكنز الموجود في البيت و لم أنتبه له من قبل.
- تقصد الكتب أليس كذلك؟
أومأ برأسه موافقاً ثم أكمل قائلاً:
- المكتبة الضخمة التي تحتل الجدارين الجنوبـــي والشرقي من الصالون، كانت تزدحم بمئات الكتب، كتـــب صـــغيرة الحجم منتفخة بالأوراق وكتب صغيرة الحجم لا يتعـــدى عدد صفحاتها المائة صفحة، كتب كبيرة الحجم ومذهبة، كتب عارية من الأغلفة، وكتب غطاها الغبار من طـــول الهجران، مجلدات ضخمة متتابعة في شكل سلسلة مترابطة تحتل فراغات متتابعة بشكل جميل، كتب باللغـــة العربيـــة والإنجليزية والفرنسية ولغات لاتينية أخرى عرفت لاحقـــاً أنها الإيطالية أو الإسبانية. عمل أبـــي السابق في الســـلك الدبلوماسي لوزارة الخارجية لما يفوق العشرين عاماً، جعل منه موسوعة ثقافية، كل دولة عمل فيها جاء بجذوة منـــها وذكرى متمثلة في مجموعة من التحف الغريبة وعدد مهول من الصور مع مختلف الأشخاص الذين تتباين ســـحناتهم

حسب الإثنيات المختلفة لكل واحد منهم، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، تتألق ابتساماتهم التي تفيض بالثقة، وتلمع أعينهم التي تنبض بالحياة، وأبي في وسطهم دائماً، يماثلهم بذات الأناقة ويحمل نفس النظرة والابتسامة.

عندما ولجت عالم المكتبة التي هجرها أبي منذ رحيل أمي شعرت بأني قد ولجت إلى بحر لُجّي بلا بوصلة، ولكن ربما بسبب العزلة التي أعيشها وعظم الفراغ الذي أعاني منه، أصبحت أقضي جل وقتي فيها، عملت أولاً على ترتيب الكتب وتبويبها، كل فئة في قسم منفصل، كتب التأريخ تليها كتب الفلسفة والتحليل النفسي، ثم الأدب، والشعر والرواية، مروراً بكتب الاقتصاد وعلم الاجتماع. دهشت عندما وجدت كتاباً مختصاً بفنون الطبخ وسط هذه الكتب، ثم رجحت أنه كان يخص والدتي، أخذته ونظفته وعطرته ووضعته جوار صورة لأمي تجلس مبتسمة في مكان ما خلفها شجرة تستظل بها فتاة تبدو في انتظار شخص لم يأتِ بعد.

صمت للحظة، ثم بلع ريقه وقال:

- استهوتني اللعبة، اكتشفت في داخلي متعة عظيمة في عملية الترتيب والتنظيم، ثم انطلقت مبحراً بعد ذلك، استهوتني كتب علم الاجتماع بشكل خاص، الحراك الاجتماعي طوال القرن التاسع عشر والقرن العشرين. لفت انتباهي هيربرت سبينسر ونظريته الخاصة بالتطور على مستوى الأخلاق والسياسة، وأوغست كونت وكتاباته في علم الاجتماع الغارقة في الفلسفة وسان سايمون وكارل ماركس

وغيرهم. ولكن التغيير الكبير كان عندما عثرت صدفة على كتاب يتحدث عن المهاتما غاندي وصعود نجمه عبر الساتياغراها، قرأت الكتاب بشكل مختلف أو رؤية مختلفة، غاندي الذي فُرضت عليه ثلاثة خيارات لمناهضة الاستعمار البريطاني، المواجهة المباشرة والعنف البدني والقتال من أجل تحرير الهند، أو اللاعنف عن طريق المقاومة السلبية والعصيان المدني داعياً الهنود إلى حب أعدائهم قبل المطالبة بالتحرر منهم، أو الخيار الثالث وهو الخضوع للمستعمر وتجنب المواجهة. عندما أكملت الكتاب كان رأيي مخالفاً لغاندي، سياسة الساتياغراها أدت للتعجيل بخروج المستعمر، ولكن ماذا كانت النتيجة، تجذر الطائفية بين المسلمين والهندوس ثم انقسام الهند. لو أن غاندي اتبع سياسة الخضوع لتحررت الهند مع حركات التحرر العالمية دون الاضطرار للانقسام، ولكن غاندي بحث عن الخلود والمجد الشخصي، لم يفهم أن سر النجاح وراحة النفس في الخضوع.

هذا التفكير قادني إليه هدوء المنزل وخلوه في معظم ساعات اليوم، جلوسي عند الأصيل في حديقة البيت جعلني أرصد الأعشاب وهي تخضع لقانون السماء بشكل كامل، فتزهو وتخضر عند هطول الأمطار، ثم تنحو نحو الاصفرار عندما يشح المطر وأخيراً تدفن بذورها في التربة حين انقطاعه في انتظار خريف قادم، لا تمرد ولا ثورة ولكنها فلسفة الخضوع التي تحكم موازين الكون. دوار الشمس في دورانه الأبدي مع الشمس، لا يكل ولا يمل، في شفرته الجينية

ضُفرت فلسفة الخضوع، فاتبع الشمس لأنه يعلم السر. حتى الإنسان في مساره الحتمي نحو الموت يتبع ذات القانون وإن كان يظن نفسه الثائر الأكبر والمتمرد الأوحد، ولكنه يخضع للمرض والجوع والنوم ومن ثم الموت. صيرورة حتمية لما يظنه الإنسان تمرداً على ناموس الكون وهو الممثل الجاهل الأكبر. لولا خضوع الأغصان لقوة الرياح لتحطمت ولولا خضوع الرعية للملوك لفسدت البلدان ولولا خضوع العباد لقانون الله لفسدت الأرض، ولو خضعت أنا لأمي لما ماتت ولكانت بيننا الآن. يقوم السلام النفسي والروحي على اتباع الخضوع في كل شؤون الحياة والإيمان بذلك نفسه هو درجة فلسفية عميقة ينبغي القتال من أجلها لإخضاع الآخر الجاهل الذي لم يدرك كنه الحياة ولا حقيقتها بعد.

صمت وكأنه يرى وقع كلامه عليّ.

- هل تقول إن خضوعنا لكل ما تأتي به الحياة هو طريق النجاة؟ حسناً كنت تحتاج لأم مثل أمي كي تعرف أن هذا مستحيل.
- لن أفرض عليك الاقتناع بكلامي ولكن تسليمي بتلك الفلسفة خلق نوعاً من السلام النفسي لديّ، فما حدث كان مرتباً من قوى خارقة تفوقني بمراحل، قدر الله أن تموت أمي وأكون أنا السبب في ذلك كي يكشف الله لي الطريق نحو الخلاص، نحو اكتشاف السر الأكبر، علمت أن الغريق لا يغرق إلا لمقاومته الموج ولكنه إن استسلم له جرفه نحو بر الأمان، فاستلقيت على سطح الحياة وتركت أمواجها تجرفني

في خضوع وإذعان، في تلك الفترة غابت أمـــي لفتـــرات طويلة وعرفت طعم النوم العميق.

صمت وهو ينظر نحوي في تردد ثم قال:

- منذ ذلك الوقت لم أعد أجد غرفة نومي تعبق برائحة البول صباحاً.
- لحظة، بالطبع أنا لست مثلك، لم أقتنع بنظرية الخضـــوع هذه ولم تلج إلى مخي، أنا تقريباً لا أؤمن بشيء ســـوى التمرد.
- ألم تلاحظ إلى أين قد أوصلك تمردك هذا؟
- تلميحك لم يعجبني ولكني أفضل أن أكن قاتلاً على خيـــار الخضوع هذا، هل تعلم ماذا كان سيحدث لو خضـــعت، كنت سأكون قواداً في حوش عم الصوفي، هل هـــذا مـــا تنصحني به.
- لا لم أقصد ذلك بـــالطبع ولكـــن الحيـــاة تحتـــاج إلى مهادنة، الصدام الدائم سيحيلها إلى معركة أنت الخاســـر فيها.
- وكذلك الخضوع الدائم سيجعلك تخسر، لو لم أتمـــرد لمـــا درست في الجامعة ولما عرفتك، عندما تم قبولي في الجامعـــة كان هذا حدثاً جديداً في الفناء، الجميع كانوا مقتنعين بعدم جدوى الأمر إلا أنا، أقراني من الأولاد كانوا بين قـــواد في بداية طريقه وحرفي في واحدة من المهن الهامشية والبنـــات يسلكن طريق الغواية بخطى واثقة. إصراري على الدراســـة كان يعني مغادرتي، فهناك لا يقيم من لا يجلب دخلاً يرضي

عم الصوفي فغادرت، عرفت طعم الجوع والعمل بعد انتهاء اليوم الدراسي، لم يكن هذا حباً في الدراسة ولكنه كان الطريق الوحيد لأبتعد عن هذا المكان القذر.

بعد ذلك اكتشفت موهبتي التي لم أكن أكترث لها؛ كانت البنات يتساقطن حولي كالذباب، لا أبذل جهداً عظيماً لإقناع أي أنثى بالاقتران بـي، كنت أرتبك في الأول أمام إعجابهن المتدفق، ثم تداركت الأمر واستغللته بشكل جيد، وخبرت نساء الخرطوم والطريق إلى غرف نومهن وحقائبهن المكتنزة بالمال، أصبح للحياة مذاق جديد، لكل أنثى طعم مختلف ومذاق آخر، تذوقت رحيقهن كفراشة أطلقت في غابة من الزهور، تلك أيام حياها الغمام، ثم تأتي أنت لتقول الخضوع، الخضوع للفقر والجهل والقوادة؟ سأسألك أنا، هل جرّبت يوماً أن تتمرد، هل جربت متعة خرق القانون؟ هل جربت أن تفعل شيئاً لأنك ترغب فيه وليس لأن من حولك يريدون ذلك، أنت تحب الرسم ولكن أمك منعتك، أمك ماتت منذ أربعين عاماً هل جرؤت على أن ترسم؟ لِمَ لا تجرب أن ترسم؟ هذا تمرد محدود، لا أحد الآن سيمنعك من الرسم أو يستنكره، أنت من تمنع نفسك.

- الرسم؟
- نعم الرسم، الأمر بسيط أليس كذلك، بسيط جداً ولكنك لا تجرؤ على فعله لأنك خاضع لسطوة امرأة ماتت منذ نصف قرن.

مسح عرقاً ندّ من وجهه.

- لقد تأخرت، يجب أن أنصرف الآن. لديّ موعد عليّ اللحاق به.

أخذ حقيبته وتوجه نحو الباب ثم عاد لمصافحتي واعتذر ثم غادر مهرولاً.

(رونق)

الأربعاء الثاني/سبتمبر/2013

رغم إنكاري لوجود شيء بيننا ولكن هبة كانت مصرة على رأيها، قالت إن العشق كدخان الشيشة لا يمكن تعاطيه دون أن تفوح رائحته، ودخان عشقك يُشم من الضفة الأخرى للنيل، رقص قلبي طرباً وإن ظلت ملامح وجهي جامدة، العشق اكتمال الأنوثة، الآن وجدت لحياتي سبباً، سنواتي السابقة كانت مجرد انتظار طويل لهذه الأيام، عندما يتسلل الخوف من العواقب أقصيه بعيداً، لو نأى خيري ففي هذه الأيام زاد يكفيني بقية عمري ويزيد، سر الحياة في قبضة السعادة التي تنفلت من بين أصابعنا ونحن ننشغل بالتفكير في عواقبها لذا سأتشبث بها جيداً، الغد ليس بيدي، ما أملكه هو الآن، لذا فسأجني ثمار سعادته زاداً لغد مجهول لا أعلمه.

يومان وأنا أمس الطعام كحسو الطائر للماء، الاكتفاء من كل شيء، لو أن الهواء يخيرني لمنعته من مغازلة رئتي، كنت ممتلئة عشقاً حتى أورقت أطرافي وأزهرت، العالم له لون وألق لم أعرفه من قبل، حتى هاتفي أغلقته، التفكير في خيري صرفني عنه، وتذوقي من العشق أغناني من الاستزادة منه. مر يومان و لم أسمع صوته و لم أره، تناولت

هاتفي وفتحته، قلبت المكالمة الفائتة، أكثر من عشرين مكالمة، بحثـــت عن اسمه، اتصل مرتين أمس واليوم، فتحت الرسائل.

- المكان من غيرك ممل (هبة).
- دخان الشيشة أغناك عن الشيشة (هبة).
- سأبحث عن خيري هذا وأقتله (هبة).

ابتسمت ثم ضحكت وأنا أتخيلها وهي تهددني بقتله.

- هاتفك مغلق منذ الأمس قلقت عليك (خيري).

خفق قلبـــي وأنا أقرأ اسمه، اتصلت بهبة، تعللت بأمور طارئة غير موجودة أدت إلى غيابـــي المفاجئ عن المقهى، ضحكنا معاً مـــن لا شيء ثم أنهيت المكالمة، كنت أحتاج صوته، دخان الشيشة كما تقول، رنين الهاتف كان طويلاً، وعندما أوشكت على إنهاء الاتصال ردّ.

- زينب أين أنت؟

شعرت بطعنة في قلبـــي.

- رونق وليس زينب.

تجاهلني وهو يكمل:

- قلقت عليك، خفت من غياب لا لقاء بعده.

صوته كان ينبض بالخوف والرجاء.

- لن أغيب يا خيري سأكون بجانبك دائماً.
- لِمَ لا تأتين؟

تباً لكل تردد يبعدني عنك، أصلحت من منظـــري، وحاولـــت إعادة ترتيب بعثرتي، عندما نظرت لنفسي في المرآة بدوت كطفلـــة صغيرة ووجهي عار من التبرج ولكن من يهـــتم، قرعـــت الجـــرس ووقفت أنتظر، فتح الباب واحتواني صدره المشرع، تشبثت به كطفلة

تائهة، حاول أن يعدني ولكني كنت مصرة فخنع، نبض قلبه كان يصلني واضحاً وارتفاع صدره شهيقاً وانخفاضه زفيراً.

- يكفي هذا.

كان صوته خافتاً، راجياً، ملتاعاً، وضعت يدي على شفتيه فصمت، وعبثت يدي الأخرى بعشب صدره فارتجف، حاجز العمر تلاشى في لحظة وعدنا عاشقين في أول سني المراهقة.

- ما زلت تحبها؟

استدار لاجئاً إلى أحد المراكب في بحيرته الصغيرة، جلست ملاصقة له.

- ما زلت تحبها أليس كذلك؟

صمته قاتل.

- وأنا؟
- أنت؟
- لست سوى رجع صدى لذكرى بعيدة.
- لا أنت الحاضر.
- وأنت رجل أدمن الماضي وما عاد يرغب في الإفلات منه.
- أنا رجل خمسيني متزوج وأب، هذه هي الأشياء على حقيقتها.
- ومن يهتم؟

الصمت مهرب العاجزين، قلت مطمئنة له:

- لا أرغب في احتلال مكان زوجتك، لا أفكر في الزواج أصلاً.
- ولكنها فارقتني لأنها كانت تريدنا أن نتزوج.

- أنا لست هي.
- أعلم.
- لا، لا تعلم. أنت تناقشني الآن بمنطقها.

عيناه المعذبتان العذبتان تعربدان في روحي.

- ماذا تريدين؟
- أريدك أنت.
- أنا لست ملك نفسي.
- سأقاتل من أجلك.
- لماذا؟ أنت في أول حياتك ماذا تريدين من رجل هرم مثلي؟
- هذا ليس من شأنك.

ابتسمت فرفع كتفيه في استسلام، مررت بكفي على لحيته النابتة، ضحك محرجاً.

- منغمس في عمل هذه الفترة يستغرق كل وقتي.
- هل أشغلك؟
- لا، بالعكس.
- عن ماذا يحكي؟
- عن متشرد مشدود إلى الماضي ولا يستطيع منه فكاكاً.
- مثلك.
- أنت هنا موجودة ولست موجودة هناك.
- هل أستطيع تحريك؟
- لا أدري.
- لن أيأس.

مد يده نحوي مداعباً، احتويتها دون أن أمنحه فرصة للإفلات.

(كوثر)

ارتديت ملابسي ووضعت كماً كبيراً من الماكياج محاولة إخفاء شحوب بشرتي بسبب الليلة السابقة، نام كالأطفال و لم يفتقدني بجواره، عندما انتصف الليل رجعت إلى المكتب مرة أخرى، كنت أبحث عن دليل يكذب فظاعة الحقيقة التي ظهر رأسها، قرأت الجزء المكتوب من الرواية ثانية أبحث بين سطوره عني، ولكني لم أكن هناك، همت في عالمه المتشرد واختفى أثري، بحثت عن نفسي بين قصاصاته ولكن اسمي المقترن بعلامتي التعجب لم يبح بأسراره، غفوت وسط حكاياته المبتورة دون أن أنتبه. كان خيري يتحدث في ندوة وحوله حشد من الناس ولكني لم أكن أسمع، الجمع كان يجادل ويناقش، عرفت هذا من تحرك شفاههم وتلويح أيديهم أما أصواهم فقد أقصاها حلمي، كنت صماء في حفل ضخم، استيقظت وسط بحيرة من العرق ولكني لم أبرح مكاني، بدأت أسترجع أيامنا السابقة والتغيير الذي كان يحدث دون أن أنتبه. أوقات خروجه التي زادت من البيت وعودته المتأخرة وحججه الواهية التي يسوقها في كل مرة مبرراً تأخره. خيري كان يتسرب من بين يدي وأنا غافلة، هل يتهاوى بيتي حقاً دون أن أنتبه، تفتق ظلام الليل عن فجر باهت عليل، نهضت من مكاني، كل عظمة في جسدي تؤلمني، دفعت باب غرفة النوم الموارب، ما زال غارقاً في النوم، خرجت إلى الصالة، تهاويت على أحد الكراسي، الصداع يكاد يحطم رأسي، غفوت مرة أخرى، أيقظني صوت باب الشقة وهو يغلق، نهضت من مكاني ثم استلقيت على السرير في غرفة النوم، شعرت بالهلع للحظة وأنا أنتبه

لتأخري عن العمل، نهضت متعجلة نحو الحمام ثم توقفت، تناولت هاتفي واتصلت قبل أن أفكر.

- محجوب، صباح الخير. لن أستطيع المجيء للعمل اليوم.
- ماذا بك؟
- لا شيء، متضايقة قليلاً.
- ما الذي يضايقك؟
- لا شيء مهم قد أكون متوترة قليلاً.
- قولي ما الذي يضايقك؟

صوته كان صارماً وعميقاً، كأنه واقف في الاستديو ويلقي أوامره بطريقته التي كانت تستفزني ولكني لم أشعر بالضيق الآن.

- مجرد مشاكل عائلية سأعالجها، لا تقلق.

-أنت قوية دائماً فحين تدفعك مشكلة عائلية لهذه الدرجة من الضيق فلا بد أنها مشكلة كبيرة، لن أحاول التطفل أكثر مما فعلت، ولكن لتعلمي أني مهتم لأمرك كثيراً.

صوته كان قلقاً وحنوناً ومتضامناً، شعرت بالدهشة ثم أتاني صوته مبرراً في ارتباك.

- أنت خليفتي في هذا الكرسي وأمرك يهمني بلا شك.
- شكراً لاهتمامك أ/محجوب هو فعلاً خلاف كبير ولكن سيمضي مثل غيره، فلا تقلق.

ودعته وأنهيت المكالمة ثم وضعت هاتفي جانباً، صوته وقلقه وارتباكه جميعها أصابتني بالحيرة، أن أجد شخصاً متضامناً معي مثل محجوب فهذا شيء جيد، ولكني شعرت بالخوف، أنا لست أنا كارنينا ومحجوب ليس فرونسكي، ونحن في الخرطوم وليس في

بطرسبرج، هو مهتم لأمري بسبب صلة العمل وأنا مهتزة قليلاً بسبب المفاجأة، هذا كل ما في الأمر، لا داعي لإعطاء الأشياء أكبر من حجمها.

رنين الهاتف قطع عليّ تفكيري، أدركت أنه هو قبل أن أرد، فتحت الخط ووضعت الهاتف على أذني، صوت تنفسه كان واضحاً يصلني عبر السماعة.

- محجوب؟
- ما رأيك أن نلتقي، أعرف مكاناً جميلاً سينسيك التوتر الذي تعانين منه.

صمت منتظراً ردي، عندما طال صمتي أتتني ضحكته المحرجة عبر السماعة ثم قال:

- لم أقصد شيئاً سوى إبداء اهتمامي، لا بأس إن كنت لا ترغبين في ملاقاتي الآن.
- لا ليس الأمر كما تظن.

نظرت إلى السرير الخالي ثم قلت حازمةً:

- تعالَ، أنا في انتظارك.

ألقيت نظرة أخيرة على المرآة، شكلي كان مقبولاً ولكن من يدقق يكتشف ذبول عيني وعلامات الإرهاق التي فشل الماكياج في إخفائها، عندما وصل رن على هاتفي، خرجت سريعاً، حييته وركبت بجواره، كنت مندهشة مما أفعله، للحظة أتاني إحساس بأن ما أفعله ليس صواباً ولكني طردته سريعاً، لذت بالصمت، تركت له القيادة ووضعت يدي على وجهي وأسندت رأسي على النافذة، شعرت بالأمان، ضجيج السيارات والشوارع كان يصلني كحلم

بعيد، الهالة التي تحيط به ألقت بتأثيرها على السيارة واحتوتني، تمنيت لهذا المشوار أن يمتد حتى آخر العمر، ظل على صمته حتى هدأت سرعة السيارة ثم أوقفها وأشار إليّ بالنزول، قائلاً بابتسامة صغيرة:

- لقد وصلنا.

نظرت إلى المكان الذي سُوِّر بأشجار الزينة القصيرة وتناثرت النوافير بجانبها راسمة حلقات متتابعة من رذاذ الماء اللطيف، المقاعد الخشبية المتناثرة على النجيل الأخضر، حياه العمال تحية معرفة وهو يوغل إلى الداخل راداً تحياهم في اقتضاب، ثم أشار إلى طاولة معينة من الواضح أنه اعتاد الجلوس إليها، وعندما وضعت حقيبتي على المنضدة وجلست على الكرسي وجدت أن المقهى أضحى داخل مجال رؤيتي كاملاً، لم يكن اختياره عشوائياً كما توقعت، شعرت بالراحة تنساب في داخلي من المكان ومن اهتمامه أيضاً.

- أظن أن فكرة بقائك في البيت فكرة خاطئة، عندما أشعر بالضيق آتي إلى هنا بحثاً عن الاسترخاء.

طلب عصير البرتقال دون أن يستشيرني، ذات الديكتاتورية التي كانت تضايقني وتشعرني بالراحة الآن من رهق الاختيار.

- لو كنت زوجك ما ضايقتك.

انفجرت ضاحكة من جملته المباغتة ثم قلت:

- من الجيد أنك لست زوجي، فقد ظللت تضايقني طوال الأعوام السابقة.

- لم أقصد هذا، صدقيني.

كانت نبرة صوته صادقة فارتعشت.

- ظننت دائماً أن وجودك بعيدة مني يجعلني أكثر أماناً.

- مني أنا؟

كنت مندهشة مما يقول، أومأ برأسه وهو ينظر إليّ في ثبات.

- لديك حضور طاغٍ ومؤثر لذلك آثرت الابتعاد طوال هذه الفترة.
- ولماذا قررت أن تقترب الآن.
- ربما لأني مغادر، يكون المقاتلون أكثر صدقاً عند الاقتـــراب من الموت وكذلك المسافرون في لحظات الوداع.

بلعت ريقي بصوت مسموع ولكني تشبثت بالهروب.

- لماذا ستترك القناة يا محجوب؟

تراجع مستنداً إلى الكرسي وتنهد ثم قال:

- قلت لك من قبل لأنني تعبت، لي فترة أشـــعر أن حيـــاتي توقفت، شعرت بالاستعباد، القناة صارت هي حياتي فآثرت الهروب بحثاً عن حياة أخرى.
- ولكننا لا نهرب من النجاح.
- يُقاس هذا حسب تعريفك للنجاح نفسه، أنـــا لم أتـــزوج وليس لديّ أسرة بالمعنى الواضح، مجرد أخـــت غارقـــة في مشاغل أسرتها الصغيرة ولا شيء آخر. لو عاد بـــي الزمن ربما اخترت الفشل في القناة مقابل نجاحات أخرى.

كان ما يقوله صادقاً ومقنعاً إلى درجة مخيفة.

- نجاحات مثل ماذا؟
- أنا الآن خائف من تقدم السن وموتي وحيداً، الأسرة هي ما أعنيه وما يقلقني أكثر، النجاح أمر نسبـــي، زوجة جميلـــة وأطفال مشاغبون وسمر مع رفيقة العمر في مكان مثل هذا،

هذا هو ما أعنيه.

خفق قلبي كمراهقة صغيرة، كنت وحيدة دائماً ولكنني خادعت نفسي بكثرة خيري التي كانت قليلاً.

- كل النساء اللاتي عبرن في حياتك لم تجد فيهن من تملأ حياتك؟

أطرق للحظة ثم نظر إلي وابتسم قائلاً:

- هن كما قلت عابرات والعابر يستجم برهة ويغادر.

امتدت جلستنا حتى انتصف النهار، مر الوقت كلمح البصر ونهضنا لأن محجوب كان مرتبطاً بموعد مهم في القناة، شعرت بأن حديثنا قد يمتد إلى آخر العمر، عندما وصلت إلى البيت نزلت وأنا أتلفت حولي في حذر، لم يحدث ما يخز ضميري ولم يدر بيننا حديث عشاق. محجوب صديق عزيز سعى لتخفيف ما أشعر به دون أن يضايقني بكثرة الأسئلة، يجب أن أشعر بالعرفان بدلاً من وخز الضمير، للحظة مرت في خاطري آنّا كارنينا ثم ضحكت ساخرة من نفسي، فتحت باب الشقة فدهمتني رائحة الطلاء التي تعم المكان، لم يكن هناك أحد في الصالة، لمحت باب الصالون المـوارب فهرولت نحوه، فاجأني ما رأيت، السلم المعدني الصغير الموضوع على طاولة المكتب، علب الطلاء وأقلام الألوان المتناثرة بطول الأرضية، الأثاث الملقى في ركن واحد والجدران الملطخة بغابة من الألوان، ثم انتبهت إليه وهو مستلق على الأرض في وسط هذه الفوضى وينظر إلى السقف بنشوة كاملة، رفعت رأسي إلى حيث ينظر، كانت هناك لوحة غير متقنة على السقف، نصف وجه لامرأة تبدو ضاحكة.

- ما هذا الذي فعلته هل جننت؟

نظر إليّ بلامبالاة ثم عاد للنظر إلى اللوحة قائلاً:

- أليست جميلة.

ثرت في وجهه.

- لِمَ فعلت هذا؟

رد عليّ بذات الصيغة الباردة.

- ماذا فعلت؟ رغبت في الرسم فقط.

تذكرت الرسم الباهت لنصف الوجه في قصاصاته كحلم بعيد مزعج، نظرت إلى السقف ثم إليه قائلة:

- من هي زينب أم رونق أم ثالثة لم أحط بها علماً؟

ابتسامته كانت سوداء قائلاً:

- وهل يفرق كثيراً؟

- ألا تعي ما تفعل؟ لقد شوهت الصالون تماماً، جدران البيت ليست للرسم.

نهض من رقدته وهو ينظر نحوي، كانت نظرته غريبة، مخيفة، خفق قلبي وتراجعت إلى الخلف.

- هل هذا هو ما يهمك حقاً، الصالون والجدران، لم تري في رسمي سوى تشويه المكان فقط، لماذا لم تقولي إنه مضيعة للوقت والجد أيضاً.

كان صوته بارداً كنصل السكين، وضعت يدي في فمي وأنا أتراجع خطوة إلى الخلف، دنا مني وأصابع يده تتقلص وتنفر أمام وجهي وعيناه مخيفتان.

- هل ترينني طفلاً؟

تراجعت أكثر وهو يدنو مني، تعثر في إناء الطلاء فتناوله ملقياً به إلى الجدار.

- خيري المتقبل للتوبيخ كتلاميذ المدرسة لـــن يعتـــرض، لا تذهب لا تأتِ، اجلس مع الأطفال، خفّض صوت المذياع، أطفئ النور، خيري الخانع على الدوام المستسلم لا يعـــرف الاعتراض.

كان صوته يسري كالسم في جسدي، أغمضت عيني في قـــوة واضعة يدي على أذني، ركل باب الغرفة بعنف، صرخت بكل قوتي وهو يغادر الغرفة كالإعصار متأبطاً حاسوبه المحمول دون أن يلتفـــت خلفه، انثنيت ثم جلست على الأرض، الصالون بفوضاه العارمة كان غريباً، وخيري كان خيري آخر متنكراً في ملامحه، طارت قصاصـــة دفعها الهواء المتسلل من النافذة المشرعة وسقطت بجـــواري، عنـــدما رفعتها كانت رسماً أكثر وضوحاً لوجه مبتسم وتنبض ملامحه بالفرح.

(خيري)
(رواية طين لازب)
(الفصل السادس)

الشوارع ليست هي نفسها، أتيتها بشوق الحبيب الغائب ولكنها أنكرتني، كأن خطواتي تعانقها للمرة الأولى، اللافتات مثـــل وجـــوه المارة لم آلفها ولم تألفني، الأشجار كأنها غرست اليوم واستطالت نحو السماء، اثنا عشر عاماً والشوارع التي تحتويني كأمي الممعنة في الغياب الممتد الطويل تتنكر لي الآن، غربة النفس تنساب نحو الأرض وترتـــد

نحوي، لا حصاد يُجنى من غرس اليأس سوى قبض الهواء، غـــادرت لأنها تبحث عن طفل تناغيه حتى ينام، غريزة الأم عندها كانت أقوى من غريزة الحب، كثيراً ما أغرق في معضلة البيضة والدجاجة، هـــل تركتها لأني أبحث عن سمو الروح أم تركتني لأن غريزة الأم لـــديها أقوى، لأنها طينية حتى النخاع، غلب الطين على روحهـــا فـــامتطى الجسد الروح امتطاء الدابة، هل أنا حزين لأني فقدتها أم حزين لأنهـــا فقدت تجربة التسامي فوق نداءات طينها اللازب.

هذا الجسد الطيني يجري نحو طينه لذا داويته بالنار، أحلته حجراً يعبر النسيم منه فلا يجني سوى الخدش، صلداً لا تحركه المشـــاعر ولا تذله الحاجات، غصت في الطين حتى النخاع وخرجت منه والـــروح ملطخة طينية الرائحة لذلك غسلتها في هذه الأزقة حتى عادت شفافة كرقراق الماء، عندما يشدني ذات الطين أتشبث بالسماء فأنجو، الذاكرة المتقدة كالنار لا تمنحني فرصة النسيان، لعنة الاستسلام تغور في الروح عميقاً لذا أقف في وجهها صلداً حتى تولي وهي تجر أذيال خيبتها.

تأخذني الأزقة إلى شوارع أوسع، إشارات المرور تومض مثـــل غمز العيون لفتاة حسناء، وجوه المارة عابسة كأنها الطرق التي يعلوها التراب، غرباء خلفهم غرباء، لا أعرف منهم وجهـــاً ولا أدرك لهـــم جهة، يدبون على وجه الأرض كالنمل ويعيشون في ذاكرة الشـــوارع خراباً فتغدو غير الشوارع التي رافقتنا في تلك الأيام ولكن هذا الوجه أعرفه، ارتجف الطين مني حتى كاد يندلق على قارعة الطريق، تصاعد الدم إلى رأسي حتى كاد ينفجر، الطين يشدني حتى يكاد ينزع الروح منه، تعجلت خطواتي وزاحم طيني كتل الطين المتداخلة من حـــولي، دنوت منه قليلاً، نفس الجلباب المتسخ المصفر عنـــد الإبطـــين وذات

القامة الطويلة المتهدلة المنحنية قليلاً إلى الأمام، ركضت نحـــوه وأنـــا ألهث، العمامة المائلة قليلاً مع ميلان الكتف نحو اليمين، يمشي وكأنه سينكب على وجهه، لا بد أن عجلة الزمن قد توقفت، لم أره منـــذ خمسة وعشرين عاماً أو يزيد ولكنه ظل كما هو، دنوت منه كـــثيراً ومددت يدي متشبثاً بعنقه ثم أطحت به أرضاً وجثوت فوق صدره، ضربته بغل السنوات التي ابتلعتها هذه الشوارع القميئة، ضربت فيـــه طفولتي المسروقة، ضربت فيه الطين الذي لطخ روحي ودنســـها في الوحل، كأنها غيبوبة الغضب ويداي تنـــهالان عليـــه كالمطـــارق، استسلامه العجيب وصراخه المكتوم يحفزان الغضب داخلي، ليته كان وديعاً وقت حاجتي لوداعته، الضجيج من حـــولي والأيـــدي الـــتي تناوشتني حتى اقتلعتني من صدره وأنا أقاوم بجسدي النحيل.

- دعوني أقتل هذا الكلب.
- هل ستقتل رجلاً أعمى؟

نظرت إليه للمرة الأولى، كانت يداه تجوسان حـــول وجهـــه الدامي على غير هدى، وعيناه شاخصتان إلى السماء.

- إنه ليس هو، ليس هو.

جثوت على الأرض واضعاً رأسي بين يدي، تحملت ضـــربات المارة الغاضبة ولكماتهم التي انهالت عليّ كالمطر.

- دعوه، المجنون في ذمّة الواعي.
- للمجانين حظائر تجمعهم بدلاً من إطلاقهم علـــى النـــاس كالكلاب المسعورة.

الركلة على جانبـــي أطاحت بـــي إلى جانبه، تشبثت بســـاقه محاولاً النهوض.

- ليس هو.

اللعنة على الذاكرة المغروس فيها الوهم عميقاً أكثر من الحقيقة نفسها، موجوداً في هذا الرأس الذي يمور الآن كالقدر و لم يغادر للحظة واحدة، يغرز طينه في طيني ويقتلني في اليوم آلاف المرات، الذاكرة لا تموت، لا بد من قتلها ودفنها، سأقتله لأستريح. رفعت عينيّ إلى السماء، كانت مظلمة كأن لم تعرف الشمس قبلاً و لم يسامرها قمر، توكأت على ألمي ونهضت طيناً لازباً عن قارعة الطريق وسلكت طريقي نحو المطعم، تلقفتني يدي عم صالح بين الجزع والدهشة، لم أكن قادراً على الكلام فغسل طيني الملطخ بالدم ثم تركني أذهب إلى غرفتي، كنت الآن مدركاً ما ينبغي عليّ فعله، دخلت إلى الحمام، حلقت لحيتي المهملة واغتسلت من أدراني ثم ارتديت ملابس عم صالح التي أهداها إليّ سابقاً، لم أكن أنيقاً ولكني كنت مقبولاً إلى حد ما، عندما رآني تهلل وجهه فرحاً.

- الحمد لله إنك عدت إلينا أخيراً يا أستاذ.
- الذاكرة الممتلئة بالوهم لا بد لها من الموت يا عم صالح.
- لعنة الله على الذاكرة التي تدمر حياة الإنسان، تعوّذ منها.
- أريد مالاً، القليل فقط، سأغيب اليوم وغداً سأكون عندك.
- أنت مصاب يا بني ألا ترى نفسك.
- لدي أشياء لا بد من وضعها في نصابها.
- دعها تنتظر.

صمت فناولني حفنة من النقود، الذاكرة لا تسقط حرفاً ولا موضعاً، كنت أذكر اسم قريته جيداً، أقلّتني حافلة حتى هناك، الناس هنا يرتدون ذات الثياب ويحملون ذات السحنات، سألت فدلوني

على داره، الجدار الطيني المتهدم وشجرة النيم العجوز همـــا أول مـــا صادفني، صافحني غريب يشبهه عند الباب بعينين متسائلتين، وعندما سألت عنه نظر إليّ دهشاً ولكنه أشار إليّ بالدخول، البيـــت يبـــدو غائصاً في الأرض أو خارجاً من غورها، لا أدري، الدجاجات المبعثرة في الفناء القذر والآنية المتناثرة في أرجائه وهديل الحمام من الصـــفائح المعلقة في أفرع النيم العجوز، أعدت السؤال مرة أخرى ولكنـــه رد مستفسراً عمن أكون، وعندما أخبرته أنبأني بموته، عيناي الممتلئتـــان بالدموع ظنهما حزناً فانطلق يواسيني مهوناً الأمر علـــيّ، لا أحـــد يستطيع أن يفهم، أصررت على العودة إلى الخرطوم ضارباً عـــرض الحائط بدعوته إياي للمبيت، ثم أذعن لإصراري وأوصلني إلى محطـــة المواصلات، حكى لي في الطريق عن مرضه، وآخر أيامـــه وشـــدة عوزهم وحاجتهم، كان ابنه الأكبر، لهما نفـــس الملامـــح وطريقـــة الكلام، لم أطق النظر إلى وجهه ولكني جاهدت حتى لا أظهر ذلك، مر على الوفاة عامان كاملان وأنا لا أعلم، شكرني قبل أن يـــودعني على إخلاصي وسؤالي عن أبيه مؤكداً أنه كان يذكر أسرتي بـــالخير حتى آخر أيامه، بصقت نظرة العرفان التي ودعني بها وهو يظنني حزيناً على أبيه اللعين، لم يدرك أنني كنت مقهوراً لأن الموت اختطفه مني.

الفصل الثامن

(سليم الصوفي)

- لقد فعلتها.

أتاني صوته ينبض فرحة عبر الهاتف.

- ما الذي فعلته؟
- رسمت.

كان يلهث من الإثارة، سعيداً مثل طفل اقتنى لعبة ظل يحلم بها لفترة طويلة.

- كان شيئاً مثل.

صمت للحظة كأنه يبحث عن كلمة مناسبة.

- مثل شرب الماء بعد عطش يمتد لأيام.

صاح نافياً بسرعة:

- لا أفضل من ذلك، مثل ملاقاة حبيبة مصادفة بعد أن يئست من البحث عنها.

أتبع بذات السرعة:

- لا ليس كذلك، كان شيئاً مثل اجتماع الروح والطين بعد انفصالهما، مثل عودة الحياة إلى جسد ميت.

صمت وصوت لهاثه المنفعل يصلني واضحاً، كنت مندهشاً، هل الأمر عظيم ومهم إلى تلك الدرجة.

- من الجيد أنك فعلت هذا، لقد كسرت حاجز الخضـــوع. مرحباً بك في عالم المتمردين.

قهقهنا عالياً، للحظة كنا قريبين أحدنا من الآخر وكأننا أصدقاء منذ بداية العمر، شعور الصداقة هذا جديد عليّ، لا أذكر أن هنـــاك أحداً ما كنت أدعوه صديقي، ولكن خيري يبدو كصديق مقرب.

- ولكن الأمور لم تسر بشكل جيد حتى النهاية.

تغيرت نبرة صوته دفعة واحدة وعاد هادئاً وحزيناً كما عهدته، نأى عني وصار غريباً كأننا لم نكن نركض على ذات المضمار قبـــل لحظات.

- ماذا حدث؟

سألته متوجساً.

- الأمر لم يعجب كوثر.
- النساء لا يعجبهن شيء يا صديقي اسألني أنا.

قلت ذلك مهوناً من وقع الأمر عليه.

- لا ليس كما تظن، الأمر أسوأ من ذلك، لقـــد ثـــارت في وجهي وأنبتني كأنني طفل صغير، هي تفعل هذا دائماً عندما تغضب، كنت أتجاوز الأمر سابقاً ولكني لم أعد أســـتطيع التحمل.

ارتفع صوته الغاضب حتى كاد يخترق أذني.

- أنا لست طفلاً وهي ليست أمي حتى تفعل هذا، لا يحق لها، بالطبع لا يحق لها، أنا رجل بالغ راشد وأستطيع التمييز بين الخطأ والصواب.

قلت محاولاً تهدئته:

- بالطبع أنت كذلك يا صديقي، النساء لهن عقول مثقوبة لو رمت رضاءهن هلكت دون ذلك.

هذا الرجل يتعذب من لا شيء، لو صفعها لكان أجدى.

- الحب يضعفنا يا رجل، خذ من المرأة ما تجيد إعطاءه منذ بدء الخليقة ودعك من الفلسفات الفارغة.
- لم أفهمك.
- ههههه النساء للفراش، وما دون ذلك مجرد أوهام في رؤوس الشعراء.

ثار فجأة وكأن به مسّاً، هذا الرجل مجنون بلا شك.

- لا ليس الطين، ليس الطين يا سليم، هذه الروح يجب أن تسلم.

سعل بقوة فأكملت:

- الروح من أمر الله يا رجل هل ستكفر، دعنا في الجسد الذي نعرفه جيداً.
- والروح.
- تباً للروح، ما لنا وللغيب، ابقَ في عالم المحسوس وستسلم، صدقني. عندما كنت أمارس الحياة خارج هذا السجن كانت وئام أسعد أنثى على وجه الأرض، لم تكن الروح تؤرقنا، هو الجسد يا صديقي ما يهم النساء ولذلك أول ما قبرت هنا ركضت بعيداً تبحث عن جسد آخر.
- ألست حزيناً عليها؟
- لو أن هذا السجن يمنحني الاختلاء بها لحزنت على انصرافها عني، ولكني مؤمن أن للجسد حاجات لا أستطيع أن

أقضيها، لها لذلك تجدني أكثر تسامحاً.

- تقول إن نداء الطين أقوى وإن لم ألبه فعلى الأقل لا أقف في طريقه.
- عن أي طين تتحدث يا رجل.

أتاني صوته بعيداً وكأنه يحادث نفسه.

- بالأمس رسمت نصف وجهها في السقف وهي تنبض بالحياة.
- من هي؟
- التي لبت نداء الطين وتركتني وحيداً.

ستطول هذه المكالمة بلا شك.

- لم أفهمك؟
- زينب.
- زينب؟
- إيلات.
- إيلات التي في الرواية؟

همهم موافقاً.

- كيف رسمتها، هي غير حقيقية؟
- هي الحقيقة الوحيدة وما دونها سراب.
- وأين هي الآن؟
- لبت نداء طينها مثل كل النساء.
- ومن زينب؟
- هي بذاتها.
- سأجن يا رجل دعك من هذه الألغاز.

- زينب هي الحقيقة الوحيدة في حياتي ولكنها تركتني.
- هل تقصد؟
- نعم هي بذاتها زميلتنا في الجامعة.

شعرت بالعطش فجأة، زينب صحراء لا يُنال منها سوى السراب.

- كانت تريدنا أن نتزوج.
- ورفضت؟

صرخت دون أن أنتبه.

- كنت أهرب من طين الجسد وقتها.
- ألم أقل لك إنك مجنون، مثل زينب تعتزل لها الدنيا.
- لن تفهمني.
- ولكنك تزوجت كوثر بعد ذلك؟

قال مبرراً:

- حاولت أن أنساها بالزواج.

شعرت برأسي يغلي كالمرجل.

- أنت تركت زينب لأنك لا تريد أن تتزوج ثم تزوجت بعد ذلك حتى تنساها. لو أني أبحث عن التعاسة ما فعلت فعلتك هذه.

انقطع الاتصال فحاولت الرجوع إليه ولكن هاتفه كان مغلقاً، هذا الرجل بقايا إنسان، محطم وكأنما دهسه قطار سريع، الحب لعنة، أدركت هذا مبكراً عندما رأيت عشق أمي لصاحب الشارب الضخم المشغول بالتهام البطاطس على الدوام، سعيد بأني لم أعرفه في يوم من الأيام، عندما تحب واحدة من النساء تمتلكك وتربطك إليها برباط

وثيق لا تستطيع منها فكاكاً، ثم تبدأ في صب لعناتها عليك الواحدة تلو الأخرى حتى تغدو مكباً للعنات دون أن تملك قدرة على الفرار. عندما أنظر إلى وئام أدرك مدى صحة كلامي، لو أني تعلقت بها لكنت تعيساً الآن ولكني ما زلت أستمتع بزجاجة الويسكي ولفافة التبغ وثرثرة دريابي غير المجدية، نعم أنا أشتهيها ولكني أدركت استحالة الحصول عليها في هذا القبر فتواءمت مع الأمر رغم صعوبته، ثم يأتي خيري ليتحدث عن الروح، هذا الجسد دابة تحتاج لإشباع غرائزها وإلا تمردت، الروح من أمر ربي، ما لنا في ما اختص الله به نفسه، هذا الجسد حاجاته محددة بدقة، نساء وطعام ولا شيء آخر ولكن أمثال خيري يجعلون من الأمر أكثر صعوبة بفلسفاتهم العجيبة التي هي أقرب للكفر والعياذ بالله.

عندما أتاني نداء الزيارة ظننتها وئام، يزورني خيري فقط وكنا نتحدث قبل قليل. لو أتت تطلب الطلاق سأطلقها ولو لم تطلبه سأطلقها أيضاً.

عندما انحرف العسكري نحو مكتب المدير دهشت وعندما رأيت خيري في وجهي تفاجأت.

- ما هذا؟ ما الذي أصابك؟

تجاهل سؤالي وهو يصافحني ثم جلس دون أن يعقب.

- لماذا يغطيك الطلاء، تبدو غارقاً في الأوساخ يا رجل؟

نظر إلى ملابسه ثم نظر إليّ ساهماً.

- الملابس هي الأقل قذارة فينا.

- وهل الإنسان إلا مظهره وما يظهره يا خيري؟

وضع يده على فمه غارقاً في التفكير ثم قال:

- انظر إلينا، انظر إليك.

اعتدل في جلسته وبرقت عيناه ثم قال:

- سليم لماذا قتلت أمك؟

باغتني سؤاله فتلعثمت قليلاً ثم قلت:

- قتلتها في نوبة غضب.

هز رأسه نافياً ثم دنا بوجهه مني وهمس:

- أنت قتلتها يوم البطاطس، قتلت حبك لها بكرهك لطبخة البطاطس، هي جثة في داخلك منذ ذلك الحين.

خفق قلبي بعنف، الكتّاب المجانين غريبو الأطوار الحمقى...

- عندما قتلتها لم تكن لحظة غضب، كانت لحظة إشهارك الرسمي لنفسك كقاتل.

- ما هذا الكلام يا خيري؟

- هل تظن لو أن أمك كانت طيبة السيرة وامرأة فاضلة .بمقاييس المجتمع هل كنت في السجن الآن؟

لذت بالصمت عاقداً يديّ على صدري.

- ما نحن عليه هو حصاد ما غُرس في ماضينا، الحاضر ثمرة الأمس وغرس الغد، متوالية لا تنقطع منذ البدء وحتى النهاية.

- .بمقاييسك أنا بريء من تهمة القتل إذاً، ويجب إخراجي من السجن.

هز رأسه نافياً ثم مطّ شفتيه.

- .بمقاييس المجتمع أنت ثمرة فاسدة وغرس معطوب لذا يجب عزلك، المجتمع ليس عادلاً بالطبع ولكن أحكامه نافذة للأسف.

- هذه محادثة ثقيلة على النفس يا خيري، لماذا لا تغير الموضوع؟
- وإن غيرناه هل سيختفي، ههههه، لن يختفي بالطبع، ولكنه سيتخفى في محادثات أخرى مرتدياً ثوب المزاح مرة وثوب السأم مرة أخرى وغيرها من أسمال الكلام البالية، حين نقول شيئاً ونحن نقصد شيئاً آخر، وفي أحايين نادرة يقف عارياً من كل ثوب فيبدو قبيحاً ومقززاً وثقيلاً على النفس، لذلك نركض بحثاً عن رداء مناسب له.

يتصاعد كلامه من عمق النفس كبخار بحيرة مالحة.

- تباً يا خيري أنت تفسد الآن واحدة من المتع القليلة التي أجدها في ذلك القفر الذي أعيش فيه.
- هل تدرك من هم أسعد أهل الأرض؟ إنهم المتبلدون، الذين اكتفوا من هذه الحياة بلقمة طيبة وجسد بض، ولكن من تنهض عندهم الروح أولئك كتب عليهم الشقاء إلى الأبد، فالروح رفيقة الضمير، والضمير في أحكامه أكثر ظلماً وتعسفاً من المجتمع والأسوأ من ذلك أنه أكثر إقناعاً أيضاً، وهنا تبدأ الحلقة المفرغة في التكون، غرس سيء، ضمير زاعق، ثمرة سيئة فغرس فاسد، أنا وأنت ندور في ذات الحلقة، أنت تجاهد للخروج منها بسخريتك واستخفافك بعكسي، فأنا ما زلت أركض رغم وعيي ببؤس مصيري المنتظر. العلم مع العجز شيء مؤلم يا صديقي.

صمت خيري، في روايته التي أعارني إياها كتب "تنفس الصمت كان هادئاً مثل ثورة رجل أبكم" أظنه كان صمتاً شبيهاً بهذا، ما يقال الآن كلام عظيم رغم أني لم أفهمه تماماً ولكني أشعر به، هذا الرجل

يغير في داخلي شيئاً لا أعرفه ولكنه يجعلني رجلاً مختلفاً عما كنته، رجلاً يكترث لما يحدث حوله ويحيط به.

- لا أملك سلاحاً سيغير من ترتيب هذا المصير ولكني سأقاوم للخروج من هذه المصيدة المحكمة، سأقاوم مثل كل الفئران التي تظل تصرخ وتخربش بأظافرها في الهواء حتى تسحب روحها في هدوء، قد يكون السر في المقاومة يا صديقي وليس في النجاة.

أطرق خيري طويلاً، كأنه ذاهب في غفوة طويلة، لولا صدره الذي يصعد ويهبط في انتظام لظننته ميتاً ولكني لم أجرؤ على تنبيهه أو الكلام معه، لا أدري كم مر من الزمن حينما رفع رأسه نحوي، عيناه كانتا كرتين من النار ولكنه كان مبتسماً، هذا رجل عجيب، من أين تأتيه قوة الابتسام في وسط هذا العذاب المقيم، نهض من جلسته وتناول حاسوبه ثم اعتذر عن عدم حمله نقوداً هذه المرة، رددت عليه بجملة واحدة:

- تباً لك وللنقود يا صديقي.

لو أني أملك أن أنجيه من كل هذا لفعلت، خيري صديق طيب، يمنحني المال والتقدير في حين أن زوجتي ضنّت بمالها وأختي بتقديرها، يتجاهل كوني قاتلاً ويعاملني معاملة الند للند ولكني عاجز عن فعل شيء سوى التربيت على كتفه المثقلة بالهموم، احتضنته بقوة وودعته مع وعد بلقاء قريب، ساحة السجن كانت شبه خاوية وقد تناثر المساجين في ظلالها الشحيحة، مصباح يزعق في واحد من المساكين ودريابي يرتجف خوفاً في زنزانتنا من لا شيء وما زال يحسب الأيام لخروجه من السجن لعله يلحق بقطار الحياة.

(رونق)

- خيري؟
- أين أنت.
- لماذا تبدو مضطرباً؟
- أرغب في لقائك الآن.
- حسناً، هل آتيك في البيت؟
- لا، لا. ليس في البيت.
- حسناً عند المقهى، ولكنه مغلق الآن. دعنا نلتقي هناك ثم نرى أين سنذهب.
- اسمعيني، أنا الآن بالقرب من السجن، مري لتأخذيني من هناك.
- حسناً، سأكون عندك بعد قليل.

تناولت مفتاح السيارة، ركضت خارجاً، طريقة كلامه أشعرتني بالقلق، هناك شيء لم أفهمه، لأول مرة يتصل بي، ويطلب لقائي الآن، تلك ليست لهفة بالتأكيد، هناك شيء آخر، تفاديت سيارة تتهادى على الطريق بمعجزة وعندما وصلت إليه كنت ألهث وكأنني أركض، فتح باب السيارة وجلس بجواري، عبقت رائحة الطلاء داخل سيارتي الصغيرة، ملابسه كانت ملطخة بالألوان، حتى لحيته المهملة لم تنجُ ولكنه كان يبدو سعيداً وهو يتأبط حاسبه المحمول وينظر إليّ بعينين عابثتين.

- ما هذا يا خيري ما الذي حل بك؟

ما زالت ابتسامته على حالها.

- ماذا؟

نظر حيث أنظر، ثم ضحك قائلاً:

- لا شيء كنت أرسم فقط.
- ترسم! هل تجيد الرسم أيضاً؟

تلعثم قليلاً ثم قال:

- لنقل إني أحبه.
- حسناً، لنرجع إلى البيت وتغير ملابسك فهي متسخة تماماً.

هز رأسه بعنف ثم قال:

- لا أرغب في العودة إلى البيت.
- إلى أين سنذهب إذاً؟
- إلى البيت.
- حسناً أنا لا أفهم.

ابتسم مبدياً صبره على غبائي:

- سأصف لك الطريق.

هززت كتفي ثم انسقت لتعليماته حتى وقفنا أمام فيلا كبيرة تبدو مهجورة منذ زمن، شعرت بقليل من التردد، ولكنه فتح باب السيارة ثم دفع الباب الحديدي الذي أصدر صوتاً عالياً ثم أشار إليّ كي أدخل السيارة، قدت السيارة إلى الداخل، فشعرت كأنني قد ولجت غابة على حين غرة، الممر الصغير الذي كان يبدو معداً للسيارات سابقاً كان مفروشاً بورق الأشجار والفروع الجافة والأشجار من حوله قد تطاولت وتدلت فروعها وكأنها في رقص محموم، أوقفت سيارتي ونزلت وقد شملتني الحيرة.

- ما هذا المكان يا خيري؟

أمسك بيدي دون أن يرد عليّ ثم قادني إلى الداخل متحاشياً فروع الأشجار في براعة ثم دفع الباب الخشبـــي ودخلنا معـــاً إلى البهو الواسع، طقم الجلوس المواجه لي غطاه الغبار، النجف المتدلي من السقف، الدرج، الفرش، الجدران، جميعها مغطاة بطبقة ناعمة من الغبار، هذا المكان لم يلجه أحد منذ ما يزيد علـــى العشـــرة أعوام.

ربّت على يدي قائلاً:

- انتظريني هنا، سأصعد لأغير ملابســـي وأعـــود إليـــك سريعاً.

ركض صاعداً الدرج وكأنه في عمر العشرين ثم عاد أدراجـــه وأمسك بيدي قائلاً:

- قد يراك أحد هنا، تعالي سآخذك إلى حيث نجلـــس دائمـــاً بعيداً عن أعينهم.

شلّتني الحيرة والدهشة فانقدت إليه وهو يدخل من أحد الأبواب المطلة على الهول عابراً ممراً صغيراً ثم انحرف يساراً وفتح باباً آخـــر ثم انحنى وأشار إليّ بحركة مسرحية قائلاً:

- تفضلي يا أميرتي.

دخلت بخطى مترددة، كانت المكتبة مكتنزة بالكتب حـــتى السقف، لم أشاهد هذا الكم من الكتب من قبل، كتب في كـــل مكان، على الرفوف، فوق الطاولات، على الأرض، على النافذة، بجوار الباب، كتب فوقها كتب وبجوارها كتب أخـــرى، هـــذا مستودع للكتب وليس مكتبة منزلية، التفت لأسال خيري ولكنه كان قد اختفى، تجولت في المكتبة وكنت حذرة وأنا أعبر الكتب

التي غطاها الغبار وغطى بعضها خيوط العنكبوت، الحر كان قاتلاً، ولكن انتبهت لتيار الهواء القادم من مكان ما وعندما تابعته وجدت زجاج إحدى النوافذ مكسوراً وقد تسلل فرع من شجرة المهوقني إلى الداخل، شعرت بالوحدة والخوف وعندما فكرت في العـــودة باغتني خيري بولوجه المكتبة وكأنه قد خرج للتو من أحد مشاهد (BIG BUSNESS) أو أحد مشاهد (FAME). بملابسه الغريبة التي تعود إلى حقبة الثمانينيات بالفانلة الزرقاء الضيقة الملتصقة علـــى جسده وبنطاله الكاروهات الفضفاض والحزام العريض، بدا شكله كوميدياً ولكن الدهشة تغلبت على رغبتي في الضحك.

- ما هذا الذي ترتديه؟

نظر إلى ملابسه ثم رفع وجهه مبتسماً.

- أليست مفاجأة جميلة، هل تذكرين عندما اخترتها لي علـــى ذوقك؟

تساءلت بدهشة.

- أنا؟!

- دعينا من هذا الآن، لديّ مفاجأة أخرى هـــل تـــرغبين في سماعها؟

لم ينتظرني، أمسك بيدي وشدني إليه حتى التصقت به ثم قـــال هامساً:

- ما رأيك في تحقيق أمنية طالما راودتك.

- حسناً، ولكن ما هي تلك الأمنية؟

همس في أذني:

- هل تقبلينني زوجاً؟

رغم غرابة الموقف وعدم منطقيته ولكن قلبـــي رقص فرحاً، أنا أحب هذا الرجل رغم كل هذا الجنون الذي يمارسه، غابت يـــداه في شعري وهو يشدني إليه أكثر، شعرت بالدوار فتشبثت بكتفيه دون أن أشعر، عندما انتبهت كنا وسط فوضى عارمة من الكتـــب وكنـــت مستلقية على ظهري محلقة في سماء الغرفة.

- ماذا حدث؟
- أحببتك منذ رأيتك كان لا بد من استسلامي آخر الأمر.

ربتّ على صدره وقلت في شقاوة:

- لم يكن هذا يبدو عليك في المرة الأخيرة، شعرت بأني ألقي نفسي عليك وأنت تتجاهلني.

ضحك في استمتاع ثم نظر إليّ في ثبات وقال:

- طالما أحببتك وناضلت حتى لا أستسلم ولكن كل معاركي ضدك خاسرة يا زينب.

أحسست بوقع الاسم كالصفعة فنهضت عن صدره ونفضـــت الغبار عن ثيابـــي.

- للمرة الألف أنا لست زينب، أنا رونق. إن كنت لا تـــزال تحبها فلِمَ لا تبحث عنها بدلاً من تضييع وقتي.

تناولت حقيبتي من الأرض وقلبت محتوياتها حتى وجدت الصورة فقذفتها في وجهه.

- هذه زينب، خذ هذه الصورة وابحث عنها بعيداً عني.

ثم انقضضت على الصورة ومزقتها قطعاً صـــغيرة وألقيتـــها في وجهه.

- أنت لا تحتاج إلى صورة فهي محفورة في قلبك.

صوتي مبحوح وقلبي جريح وأشعر بالعطش، بدا وكأنه استيقظ من غيبوبة وهو يجمع القطع الصغيرة ويضعها بعضها بجوار بعض.

- لماذا فعلت هذا؟ لماذا مزقت صورها؟

كان ينوح مثل ثكلى فقدت طفلها قبل لحظات، نظر إليّ، عيناه بحيرتان من العذاب، انفطر قلبي، أمسكت برأسه واحتضنته، اهتز في حضني كورقة تذروها الرياح، تركته حتى هدأ ثم أخذت حقيبتي خارجة فما عاد لوجودي هنا معنى. وعندما وصلت إلى باب المكتبة التفت ناظرة إليه فوجدته حاسوبه مشرعاً وهو منهمك في جمع أجزاء الصورة على لوحة المفاتيح باهتمام وحنو عظيمين.

(كوثر)

لن تتوقف حياتي لأنه غاب عن البيت ليلة واحدة، كنت ضعيفة بالأمس وغبت عن العمل، ولكني أكرر هذا الخطأ ثانية، يكفي الفوضى التي سببها لي. بالأمس خرج عمال الطلاء قبل منتصف الليل بقليل وما زال الصالون يحتاج إلى مجهود جبار كي يعود إلى حالته الأولى، لم يهتم حتى بالاتصال ليخبرني بغيابه المفاجئ، هذه طريقة صبيانية للتعبير عن الاستياء، هل أنا متسلطة فعلاً وهل كنت أهينه على الدوام، مر شريط حياتنا في رأسي، تذكرت أنني كنت عنيدة في كثير من المواقف ومتعنتة في غيرها ولكني ليس كما وصفني. أوقفت سيارتي عند موقف السيارات أمام مبنى القناة ولكني لم أغادرها، التغير من أقصى إلى أقصى كان مفاجئاً، أليس طبيعياً غضب امرأة تجد

صالونها قد تحول إلى مكب للطلاء والألوان، ولكن بدلاً من اعتذاره أغرقني في غضبه محاولاً مداراة شناعة ما قام به، كأنه طفل صـــغير لا يعلم تبعات التصرفات الخرقاء التي يقوم بها من حين إلى آخر. عندما انتصف الليل و لم يرجع و لم يتصل ضـــعفت للحظـــة وفكـــرت في الاتصال به، ولكن من الجيد أني لم أفعل، لو تراجعت لتمادى في غيّه الجديد وعندها لن أستطيع ضبطه.

خرجت من السيارة وأحكمت من وضع النظـــارة الســـوداء العريضة على عيني، ودخلت مقر القناة، رسمت على وجهي ابتســـامة مدروسة مكملة وظيفة النظارة في الاختباء وأنا أحرص علـــى إلقـــاء التحية على الجميع حتى وصلت المكتب، لم يكن محجـــوب هنـــاك، شعرت بالراحة، طلبت كوباً من القهوة ثم أمسكت بصحيفة ملقـــاة على المكتب من الأمس في محاولة للهروب من التفكير.

كانت عادته أن يكتب صباحاً عندما أكون في العمل ولكن في الفترة الأخيرة كان لا يغادر الصالون إلا إلى خارج البيت، نومه القلق وهمهمته أثناء النوم وإرهاقه الدائم، كيف فات عليّ كـــل هـــذا؟ ثم تذكرت حرصه على أخذ حاسوبه معه رغم غضبه وثورته، هل يظن أنني جاهلة بما فيه أم أنه لا يستطيع مفارقة نساءه ليلة واحـــدة، هـــل كان ينقصني جنونه وتمرده العجيب؟ ألا يكفي الصبر الـــذي لعقتـــه سنين لأجني تمرده الآن.

- هذه المرة الثالثة التي أطرق الباب هل أرجع؟

كان محجوب يقف مبتسماً بطريقة مسرحية.

- هو مكتبك لا تحتاج للاستئذان.

نبرتي كانت رسمية من دون تعمّد.

اتسعت ابتسامته وهو يدنو من المكتب ثم مد يده مصافحاً.

- هو مكتبنا لفترة قصيرة ثم سيكون مكتبك يا سيدتي.

يده كانت دافئة، بل حارقة.

- ما بالك ترتجفين؟

سحبت يدي من بين يديه ووضعتهما على وجهي.

- لا شيء، مجرد إرهاق.

أمسك يدي مبعداً إياها عن وجهي ثم نظر إلى داخل عيني فارتجفت روحي.

- لا أحد في هذا العالم يستحق أن تحزن هاتان العينان لأجله.

ليته أنت، رددتها في نفسي وأنا أنظر نحوه باستسلام كامل، منهكة أنا وحائرة، ولأول مرة أقر بأني ضعيفة وأحتاج سندك وقوتك، ربتت يداه على خدي فتفتت همومي عدماً، الأرق استحال حلماً جميلاً، نهلت من عطره حتى ثملت، ما هذا الذي يحدث، كنت أرغب في التوقف ولكني ظامئة، القليل من الماء لن يضر، تشبثت بعنقه محاولة النهوض، ما يحدث الآن ليس حقيقياً، الأحلام فقط التي تكون بهذا الجمال، عرق عنقه ينبض في جنون مثل منبه الساعة، يلسع يدي كمس الكهرباء، المكتب ساحة للرقص ومحجوب راقص بارع، يتموج جسدي في ليونة وكأني راقصة باليه محترفة وهذا العرق ما زال ينبض ويزداد جنوناً، حاولت سحب يدي عن عنقه ولكن العرق أحاط بها قيداً محكماً، تأوهت وأنا أحاول الابتعاد فازددت التصاقاً به، تزداد إيقاعات الرقص جنوناً وأنا أفعى لا تمل الانثناء.

- توقف.

نطقت بها ضعيفة هامسة وكأني أدعوه لمزيد من الغرق.

- لا.

ولكنها تتبخر في إيقاعات موسيقاه المجنونة فتستحيل نعماً يذوب في أنغامه.

انتزعت نفسي منه بمشقة عظيمة واستندت إلى المكتب حتى لا أسقط. انتصب أمامي وهو يبتسم ثم مد يده نحوي فأبعدها، وتناولت حقيبتي وركضت نحو الباب ثم التفت إليه قائلة:

- أنا لست آنّا كارنينا يا محجوب أنا لست هي.

ابتعدت بسيارتي عن مقر القناة وأحداث الرواية تنهال على ذاكرتي وكأني أتصفّح الكتاب بين يديّ الآن.

(خيري)

(مسودة رواية طين لازب)

(الفصل السابع)

ها أنا ذا أسلك الطريق نحوه مرة أخرى في أيام معدودة، كنت وحيداً، تسللت من المطعم دون أن يراني عم صالح، سيعترض لو علم أني سآتي إلى هنا، عم صالح يؤمن بالنسيان، ولكن هبة النسيان لا توهب لمن أصابتهم لعنة الذاكرة مثلي، لذا تسللت من وراء ظهره، دنوت من البيت بقلب متوجس فلا مجال للتراجع، الذاكرة لا تموت ولكن تجيد القتل، هكذا علمني التشرد، الهروب هدنة ولكنها تعود إلى المباغتة حين تأمن شرها، ماذا سيحدث لو رأيتها أمامي في الطريق فجأة؟ ما الذي أملك أن أفعله لو دخلت المرسم فوجدتها تقلب كتاباً عند النافذة، الذاكرة تستعيد كل هذا صباح ومساء وعند الظهر وقبل

العصر وبعده، الذاكرة تنكأ الجرح بسكينها وتحشوه ملحاً ولا تبالي، وعندما تمل لعبة الجروح تلجأ إلى طيني اللازب فتذكره بعاره المخفي عن العيون، تذكرني بالدنس وأيامه ثم تسخر من ألمـــي بالإمعـــان في التفاصيل.

دفعت الباب وولجت عمق الذاكرة بعزم، صفعني هدوء المـــوتى الذي يغلف المكان، توجست ولكني لم أتراجـــع، دفعـــت البـــاب الداخلي فأصدر صريراً عالياً، الصالة كانت بذات غبارهـــا وعبـــق ذكرياتها.

- هيّا الحديقة خالية، لماذا لا تخرج لتلعب؟
- أكره الذهاب إلى هناك فهو ينتظرني دائماً.
- ما الذي تتمتم به؟

كان صوته صارماً وهو ينظر إليّ بوجه عابس ضامّاً إليه زوجته الجديدة.

- لم أقل شيئاً يا أبـــي.
- هيا انصرف من هنا إذاً.

صوته كان عالياً فاندفعت خارجاً نحو مصيري المحتوم، اختبأت خلف الباب دون أن ينتبها، تصلني ضحكاته العالية وضحكتها الممتدة الطويلة ثم صرير الكنبة، وهما يتعاركان عليها، شملت جسدي رعشة قوية، وعندما تحولت الضحكات إلى لهاث وزاد صريرها حتى ظننتها ستتحطم من ثقلهما فررت إلى الحديقة هلعاً.

الكنبة تصدر الآن ذات الصرير، أمسكت بأذني وأنا أغلق عيني حتى لا أرى، تراجعت في بطء حتى اصطدمت بالبـــاب المشـــرع ثم اختبأت متقرفصاً خلفه، كان الصرير قوياً مثل قهقهة مخمور، يخترق

أذني ولحمي ويهز عظمي هزاً، صرخت بكل قوتي ثم تصبب جسمي عرقاً وكأني محموم، عندما فتحت عيني كان المكان هادئاً، نظرت إلى الباب المشرع في دهشة، الكنبة كانت تجلس في وداعة طفل رضيع متنكرة لمجونها قبل لحظات. هربت منها نحو الأعلى، نحو غرفتي، قابلوني بالتهليل والسلام وربما الدهشة من زيارتي الثانية، نزعت لوحة الرجل الكهل بجوار شجرة التبلدي فتوقفت الطيور عن الزقزقة متسائلة في حين رفع رأسه ناظراً إليّ بدهشة، ولكني لم أتوقف وأنا أنزع لوحة القطار البخاري حتى كاد أن يخرج من قضبانه متجاهلاً صراخ الركاب والمودعين وهلعهم وعندما وصلت إلى لوحة الصباح كانت العصافير تنظر إليّ غير مصدقة، وبعضها حرّكت مناقيرها مهددة ولكني نزعتها بذات القسوة ثم جمعتها جميعاً تحت إبطي وأغلقت الباب من خلفي وتوجهت نحو الخارج متجاوزاً الكنبة المقيتة ثم تذكرتها فعدت إليها وركلتها في قوة قبل أن أمنحها الفرصة لممارسة مجونها مرة أخرى، خرجت إلى الحديقة قاطعاً الطريق نحو المرسم، فتحت بابه بقوة وألقيتها لامبالياً بصرخات احتجاجها صفقت الباب ثم أسندت رأسي عليه مودعاً إياها بهمهمة خافتة، الغرفة الأخرى كانت تتابع ما يحدث بصمت، دنوت منها، داهمتني ضحكته الخبيثة وهو يهمس في أذني.

- دعنا نلعب مثلهما. هنا سريري يصدر ذات الصرير.
- ولكني لا أحبه.
- سنلعب على الأرض المهم ألا تغضب يا جميل.

شد على خدي حتى آلمه.

- ومن ستكون أنت هل ستلعب دور أبي؟

- ما رأيك أنت.
- أنا أكره أبـــي.
- إذن سألعب أنا دوره.
- وأكره زوجته هذه أيضاً.
- أوف، هل سنتجادل حتى ينتهيا من اللعب، هيا إلى الداخل وسنتفق.

كانت الغرفة مظلمة ولزجة مثل بطن التمساح، اســتندت إلى الجدار العاري، صرير السرير يصلني واضحاً.

- قلت لك لا أحب هذا الصوت.
- لا تصرخ ستفضحنا.

أقاتل من أجل التملص من تحته ولكن قوته ترجح.

- لن آتي إلى هنا مرة أخرى.

يربت على كتفي مهدئاً.

- حسناً سننزل إلى الأرض لا تغضب.

صوت الصرير هذه المرة يأتي من جهة النافذة، نظـــرت فـــإذا العصافير تتابع ما يحدث بعيون مندهشة والرجل الكهل قـــد تـــرك بضاعته عند المرسم ووقف يقلب يديه آسفاً، حتى القطار البخـــاري المزدحم بالركاب برزت له عينان. إلى جانبـــي كابينة السائق الـــذي وقف يتابع في استمتاع واضح والركاب ارتفعت أصواقم متســـائلين عن سبب التأخير، ركضت نحو باب الغرفة وعنـــدما خرجـــت إلى الحديقة وجدت نصف وجهها حزيناً يتابع ما يحدث بعـــين دامعـــة، ركضت والجمع يركض خلفي مصدراً ذات الصرير، وضجيجه يعلو حتى وصلت إلى الباب الخارجي، حاولت فتحه ولكنه لا يستجيب،

الجدار ناعم كخد المومس، تخربشه أظفاري ولا أستطيع أن أصـــعد، أسندت ظهري إلى الجدار وأنا أدفع عني العصافير المتوحشة فيتوعدني الرجل العجوز وعندما أجادله يزأر القطار متوعداً، اجتاحني اليأس من كل هذا فركضت مبتعداً، تسلقت شجرة المهوقني التي بجوار العريشة واختبأت بين فروعها، كتمت أنفاسي وأنا أتابع بحثهم المحموم عني في الأسفل، لا أدري كم مر من الوقت، لا بد أن الملل قد أصابهم مـــن إيجادي أو غلب عليهم الظن في عثوري على منفذ يصلح للـــهروب. تيبست عضلات ساقيّ ففردتهما وأنا أرقب الليل يفرد سلطانه علـــى المكان، ذكرني بالليلة التي بكى فيها عم صـــالح كالأطفـــال، كـــان منغمساً في التجهيز ليوم الغد ويدندن لحناً مشهوراً، يـــرمقني بنظـــرة فاحصة بين الحين والآخر ثم يعود للانهماك في عمله.

- كأنك قد ذهبت اليوم إلى هناك.
- إلى أين؟
- إلى ذلك المكان اللعين، عدت إلى المطعم بغير الوجه الـــذي ذهبت به.

نفض يديه عن الطست ثم قال:

- سأقول لك شيئاً قد يدهشك.

نظرت إليه متسائلاً:

- منذ دفنت ابنتي لم أذهب إلى قبرها مرة أخرى.

نظر إليّ باحثاً عن وقع كلامي عليه، وجهي صفحة بحر هادئ.

- هل تظن أني أفتقدها، بالعكس، ولكني لا أرغب في تجديد حزني عليها، لو أبصرت التراب بيني وبينها فسأجدد الجرح كأنها ماتت الآن وليس قبل ذلك.

كان صوته مغموساً في الحزن والألم، عم صالح عميق كالبحر، نهضت من مكاني وعانقته فبكى.

- لم يتبقَّ لي أحد في الدنيا بعدها فوهبت نفسي للناس.

جسده يهتز ونشيجه يعلو.

- لا أنام قبل أن أتذكر لعبنا ومداعبتها لي وأحلامها الصغيرة.

أرخى ثقله على مقعد بجواره.

- كانت تداعب لحيتي وتشدها إليها ثم تقول أنها ترغب في واحدة مثلها عندما تكبر.

ضحكته التي امتزجت بلمعة عينيه بالدموع لسعتني مثل سوط غادر.

- يكفي ما نحسه من ألم يا ولدي، لا تبحث عن المزيد بنبش مواطنه فلن ترتاح، الراحة في التناسي فمن هم مثلنا لا ينسون.

هبطت من أعلى الشجرة، شرعت أسير عبر الحديقة الساكنة كمقبرة مهجورة، التناسي غفوة الذاكرة مهما طالت فسيعقبها استيقاظ وحش يهده الجوع ووقتها لن يجدي الهرب، لا بد من القتال ولو كنا سنجني الهزيمة.

انتزعني من أفكاري تكسر الأوراق الجافة بالقرب مني، دققت النظر، الجسم الصغير كان يعدو مبتعداً عني في سرعة، لا بد أنه فأر، عصر اليوم التالي كنت أملك أربعة فئران معلقة بطول السلك الذي شددته بين العريشة وشجرة المهوقني، نصبت لها الشراك بسهولة فالذاكرة شعلة لا تنطفئ، كانت عيونها الصغيرة تلمع في ذعر وهي

تتلوى محاولة الإفلات، حان الآن وقت العصافير، شرعت في نصب شراكها في أماكن عدة.

- تعالَ، الغرفة خالية.

نصبت شركاً وغطيته بالأوراق الصفراء ونثرت حوله بعض الثمار الجافة التي تساقطت أسفل شركة الجوافة.

- ألن تكمل نصف وجهي الآخر، لقد طال عمر هذه اللوحة حتى مللت؟

نصبت شركاً آخر بجانب العريشة وأخفيته في مهارة.

- لقد أصلحت السرير فما عاد يصدر صوتاً بعض اليوم.

وقفت أرقب الفأر وهو يتلوى دون أن تلين عزيمته، غبي، لا يستطيع فكاكاً من الأسر فقد أوثقته جيداً ولكنه بلا ذاكرة.

- لا تلعب بجوار النافذة، ستسقط وتنكسر عنقك، لقد مللت من غبائك.

خفق جناحاه في الهواء وهو يحاول الإفلات في يأس، ركضت نحوه في سرعة، أمسكت به جيداً وخلصته من الشرك، ثم أدخلت جناحيه في بعضهما وهو يزقزق ناظراً إليّ في ذعر، ألقيته أسفل الفئران المعلقة في الهواء، ثم أعدت نصب الشرك مرة أخرى في عناية كبيرة.

- أنت لم تحبني يوماً، المحب لا يعذب حبيبه بتلك الطريقة.

خفق الشرك الثاني، ركضت نحوه ثم ألقيت العصفور الثاني بجوار أخيه وأعدت نصب الشرك مرة أخرى ثم جلست أنتظر.

- ألا تمل من التمرغ في التراب؟ هل أنت طفل؟ يكفي أن تزورها أو حتى تدعو لها من هنا.

تُرى كم مر من الزمن؟ ما زال عم صالح يأتي كل يوم باحثاً عني، يهتف باسمي من وراء السور العالي ولكني أتجاهل نداءه، لا جدوى مما وراء السور، الحقيقة تجول في هذا البيت وما وراءها محض خيال، نظرت إلى الحبل المشدود المكتظ بالفئران التي مات نصفها على الأقل، الطيور الملقاة بالأسفل صنعت بساطاً من الريش المتطاير المختلط بجثثها المتيبسة والبعض منها ما زال يزقزق يائساً، نظرت جهة المرسم، نصف وجهها كان يحتل الجدار المواجه للحديقة كاملاً، هو ذاته نصف وجهها المرسوم على سيقان المهوقني الضخمة، على السور المحيط بالحديقة، عند باب العريشة، في جدار الغرفة النائية، على الأرض بجوار جثث العصافير المتيبسة.

- أنت معي حتى عندما تكونين بعيدة.
- لا أطال منك شيئاً سوى كلامك المعسول.
- أنا أخبرك فقط ولا أطالبك بتصديقي.
- ولكني أصدقك، لو كذبتك فما الذي سيتبقى لي في هذه الدنيا.
- أنت الدنيا.
- الدنيا عندك روح هائمة لا قرار لها.
- الأرواح لا تفترق، الطين خائن.
- طيننا طاهر.
- لا يوجد طين طاهر فقد مُزج بالدنس.
- تعبت منك.
- ولكني قوي بك، سنظل معاً مهما نفترق.

تجمعت أنصاف الأوجه المبعثرة بطول الحديقـــة ثم امتزجـــت ليتعانق نصفا وجهها وتكتمل ابتسامتها ثم سعت نحوي بلا ســـاقين، التقينا في عناق طويل، لو رأته العصافير الذاهبة في غفوتها الطويلة لربما عادت إلى الحياة خافقة بأجنحتها في سماء الحديقة الزرقاء.

محمد الطيب

2017/4/11